

حُرَّتِي آيَة

الذين يتركون حياتهم في يد الله سيرتب الله لهم حياتهم في كل تفاصيلها حتى يروا لطف الله يشملهم في أبسط الأشياء قبل أعظمها

تأليف: أسامة عبد العظيم



ح أسامة عبدالعزيز عبدالحليم إبراهيم ، ١٤٤٣هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
إبراهيم ، أسامة عبد العزيز عبد الحليم
حدثني آية . /أسامة عبد العزيز عبد الحليم إبراهيم-.
الرياض ، ١٤٤٣هـ
ردمك : ٠٠١١٣-٠٤-٦٠٣-٩٧٨
١- قصص القرآن أ.العنوان
ديوي ٢٢٩،٥
١٤٤٣/٤٣٩٨
رقم الإيداع : ١٤٤٣/٤٣٩٨
ردمك : ٠٠١١٣-٠٤-٦٠٣-٩٧٨

مقدمة

قد ينتهي المرء من ختمة للقرآن دون أن يجد لهذه القراءة أثرًا في أفعاله وسلوكه، يختم مرة بعد مرة ولم تستوقفه في القرآن كله آية واحدة يتدبر معانيها؛ وذلك لأنه قرأ القرآن كما يُقرأ غيره، لم تُحرِّك قراءته في قلبه شيئًا، فالقرآن إنما أنزل ليُتدبَّر ويُعمَل به، أنزل ليرسم للمؤمنين حياتهم وفق مراد الله، ولن نجد لقراءة القرآن أثرًا في حياتنا إلا حينما نقرؤه على أنه رسالة من الله للخلق، فمما يميِّز الجيل الأول أن تعاملهم مع القرآن ارتقى من القراءة إلى التجسيد الحي في واقع الحياة .

والقرآن حينما نزل تلقفته آذان العرب فوجدت في أسلوبه بيانًا يعجز عن مثله إنسان، لم يقتصر تأثيره على من آمن بالنبي ﷺ وصدقته، إنما تجاوزه ليؤثر حتى فيمن كفر به وحاربه . روى ابن إسحاق أن أبا سفيان بن حرب وأبا جهل بن هشام والأخنس ابن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي بالليل في بيته، فأخذ كل واحد منهم مجلسًا يستمع فيه وكل لا يعلم بمكان صاحبه فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا، حتى إذا جمعتهم الطريق فتلاوموا وقال بعضهم لبعض لا تعودوا فلو راكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئًا ثم انصرفوا . (١)

لم تكن مرة واحدة بل تكررت في ليال متتالية وفي كل مرة يلوم بعضهم بعضًا ويتعاهدون على ألا يعودوا ثانية ، فكان تأثير القرآن أقوى من تلاومهم، فردتهم جاذبية القرآن إلى نفس الموضع عدة ليال.

وهذا الإعجاز التأثيري للقرآن هو إعجاز خالد، يأخذ بمجامع القلوب ، يؤثر في النفس تأثيرًا مباشرًا نراه في حياتنا بصور مختلفة، حينما تستقبل قلوبنا القرآن في لحظات خشوع وسكون تتفاعل مع الآيات كأنها أول مرة نسمعها ، تأخذك قصة من قصصه إلى مشاعر تعجز عن وصفها، ربما من صوت قارئ تحبه تجد نفسك مدفوعًا لتكرار سماعها كل يوم .

فللقرآن جاذبية غَلَّابة، ما استقبله قلب خاشع إلا هزَّ أوتاره، وما قرأه قارئ بتدبر إلا غيَّر فيه شيئاً في لحظتها، وذلك لأن الأوامر والنواهي ليست هي الجزء الغالب في القرآن، بل إن الحيز الأكبر فيه يتعلق بالأخلاق، والمعاملات، وعلاقة العبد بخالقه، والغاية من خلق البشر، والعبادات التي يريد الله من الخلق أن يتبعدها، وتعاليم بناء الأمة وتنظيم أمورها، وجملة من القصص التي جاءت في سياق حكيم ونظم فريد أراد الله منا أن نتدبره وأن نتوقف عند دلالاته ليس لنعرفها فحسب، إنما لتعلم كيف يمكن للإيمان أن يغير من حياة الفرد، وكيف يمكن للإيمان أن يوجه الفرد إلى الطريقة المثلى لمواجهة مواقف الحياة والتعامل مع الأحياء.

والقصة في القرآن لم تكن مجرد عرض سردي لتفاصيل أحداثها، إنما جاءت في عرض نابض بالحياة، تتفاعل معه مشاعر المؤمن وهو يتابع أحداثها كأنها تتجسد أمام عينيه، فيرق القلب لتفاصيلها ويستوعب العقل مضامينها وغاياتها، وهذه هي الغاية التي ننشد، ألا يقرأ القصص القرآني كأَي قصص، فما ذكره الله إلا لغاية ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾^(١) فالغاية هي الاعتبار والتدبر، لكنها غاية لا يدركها كل قارئ لكتاب الله، إنما لمن يقرأ هذا القصص بقلب خاشع ومشاعر تتفاعل مع الأحداث كأنها تشاهدها رأي العين، في حينها ستدرك كم أن هذا القصص يمكن أن يعيد رسم أفكارك، ييث الطمأنينة في قلبك، طمأنينة يلقيها الله في قلوب عباده، تُثَبِّتَه عند المخاوف، فلا تزلزله الفتن، ولا تؤثر فيه المحن.

والكتاب الذي بين أيدينا هو خواطر حول قصص القرآن، ليس سرداً للقصص بقدر ما هو محاولة لتناوله بشيء من التدبر يراعي مكان العبرة ومقتضى المقام والغرض من القصة.



مشاهد من قصة يوسف العليّة السلام

قصة يوسف عليه السلام قصة متفردة في مجمل أحداثها وفي تفاصيلها، جاءت لتخبرنا ببعض تفاصيل حياته كإنسان قبل أن يكون نبياً مرسلًا، جاءت لتخبرنا أن الصعاب التي يواجهها المرء في حياته قادر على تجاوزها حينما يستحضر معية الله، جاءت لتخبرنا ببعض خبايا النفس البشرية في عرض نابض بالحياة؛ لنرى هذا الكم الهائل من التناقضات في قصة واحدة بين دنس وطهر، خيانة ووفاء، شر وخير، قسوة ورقة، فراق ولقاء، حزن وفرح، غلظة ولين، نرى كل هذا واضحًا جليًا في تفاصيل أحداثها ليرسخ في أذهاننا قيمًا أخلاقية، ومفاهيم عقائدية، ودروسًا تربوية، وخواطر دعوية ينهل كل امرئ من فيض أحداثها بقدر ما يحسن في مجالات المعرفة؛ لذا نجد أن الكتابات التي تناولت هذه القصة قد اختلفت اتجاهات كاتبيها، فنجد الداعية يفيض في استخراج ومضات دعوية قد استوقفته، ونرى التربويين يستخرجون دروسًا من كل مشاهدتها، بل نرى حتى من يكتبون في الاقتصاد وفي أمور الحكم يتوقفون عند قصة يوسف عليه السلام وكيف أدار البلاد في زمان مجاعة وقحط، وكيف أنه تجاوز بأمة في غابر الزمان في محنة أصابتهم لم تمس قوت يومهم فقط بل مست بقاءهم على قيد الحياة .

ورغم كثرة ما قد نتوقف عنده من معان وقيم تضمنتها أحداثها إلا أننا نجد أبرز دروسها قد جاء واضحًا ومباشرًا في ختام عرض أحداثها **﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾** ^(١) مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَلَنْ يَضِيعَهُ اللَّهُ، مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَلَا عَلَيْهِ بَتْدِيرُ الْبَشَرِ ومكرهم وصدودهم، مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ يَتَّقُوا بِمَعِيَةِ اللَّهِ لَتَهْوَنَ عَلَيْهِ صَعَابُ الْحَيَاةِ، مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ يَأْنَسْ فَلَا يَفْزَعُ، يَطْمَئِنُّ فَلَا يَظْلِقُ، يَلْجَأُ إِلَى رُكْنِ اللَّهِ الْقَوِي فَلَا تَهْزِمُهُ الْمُحَنُّ، مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ لَا يُخْضِعْ حُكْمَهُ عَلَى الْأَحْدَاثِ لِتَصَوْرِهِ وَنَظَرَتِهِ الضَّيْقَةَ الْمَحْدُودَةَ، مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ لَا يَقْنَطُ فِي الشَّدَائِدِ وَلَا يَرْكُنُ فِي الرِّخَاءِ، مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ لَا تَغْرُهُ الْبَدَايَا الْمَشْرِقَةُ وَلَا تَصْدُهُ الْبَدَايَا الْمَرْهَقَةُ، فَالْبَدَايَا الْمُبَشِّرَةُ لَا يَشْتَرِطُ أَنْ تَأْتِيَ تَوَابِعُهَا حَمِيدَةً، وَتَقْلِبَاتِ الْأَيَّامِ قَدْ تَحْمِلُ مِنَ الْخَيْرِ مَا لَمْ يُكْشَفْ لَنَا إِلَّا بَعْدَ حِينٍ .

وقبل أن نخبرنا ربنا بتفاصيل القصة أخبرنا أنها ليست قصة عادية نعرف تفاصيل أحداثها وينتهي بنا المقام عند قراءتها، إنما قبل أن يسرد التفاصيل أخبرنا أننا سوف نرى في كل مشهد فيها آيات ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلِّسَّائِلِينَ﴾^(١) آيات لا تفارق أحداثها مع كل ابتلاء مرَّ به، نرى صبره البشري في أروع صورته، ونرى معية الله في ألطف صورها لنعلم أن تكاليف الله ليست فوق طاقة البشر، ولنرى نموذجاً في واقع الحياة من تطبيق هذه التكاليف في حياة الأنبياء وهم يُبتلون ويصبرون بشرية خالصة، فلا نرى المعجزات والخوارق إلا في نطاق ضيق يخدم جوهر الرسالة أما صبرهم على دعوتهم وتحملهم مشقة تطبيق تكاليفها فقد جاء ببشرية خالصة، كي لا يتحدث ضعيف نفس بجهل عن كيفية تطبيق التكاليف وعجز قدرته عن تحمل مشاقها.

وحين نقرأ القصة وتأخذك أحداثها واحدة تلو الأخرى تحار أي من ابتلاءاتها أشد وطأة عليه؟ فما أن تنتهي محنة إلا ونجد التي تليها قد بدأت، صنوف شتى من الابتلاءات التي تعرض لها فلا نكاد نعرف أيها أشد وطأة، حين ينتهي بنا سرد جانب من جوانب حياته نعتقد أننا رأينا أقوى ابتلاء قد واجهه، لكن هذا الإحساس سرعان ما يتلاشى بمجرد أن نبدأ في التعرض لجانب آخر من حياته، وربما نتساءل أي من هذه الابتلاءات هو محور القصة؟ قسوة إخوته؟ أم كيد امرأة العزيز؟ أم دخوله السجن؟ أم توليه السلطة ومشقة القيام بأمر العامة في زمان المجاعة؟ وبجوار كل هذا مهام نبوته في دعوته الناس للتوحيد وتصحيح مفاهيمهم نحو الخالق سبحانه، يصعب أن نحدد محور القصة الأساسي كأبرز ابتلاءاتها.

ولعل قاسماً مشتركاً قد جمع بينها، وهو أن هذه الابتلاءات قد أظهرت بعض خبايا النفس البشرية في خيرها وشرها، ورأينا كيف تعامل معها حين ظهر بعض قبحها في كيد إخوته وكيد نسوة المدينة، وحين ظهر بعض جمالها في إكرام الملك له وإظهار فضله، رأيناها حين كُشفت بعض خبايا كل من عاملهم ورأينا جانباً مظلماً في كل شخصية، ذاك الجانب الذي في العادة يجتهد المرء في إخفائه، لكننا نراه في أحداثها ظاهراً مباشراً قوياً، لم يستح أصحابه في التصريح به

والدفاع عنه، ففي كيد إخوته: ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ طَرْحُوهُ أَرْضًا﴾^(١)
وفي تدبير امرأة العزيز: ﴿وَلَيْنَ لَّمْ يَفْعَلْ مَاءَ امْرَأَتِهِ لَيِصْغَبَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾^(٢)
وفي تدبير نسوة المدينة: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمْ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾^(٣)
ثم نرى حلمه ورفقه كخط واحد لم تغيره الأحداث، لم تصنع منه شخصاً آخر، لم يزد جهل الجاهل إلا حِلماً، ولم تزد قسوة القاسي إلا رحمة.

و حين نقرأ قصة يوسف عليه السلام علينا ألا نجتزئ مواقفها إنما نقرأها كلُحمة واحدة ومشاهد مترابطة تُبنى أحداث المشهد على نتائج الذي سبقه، فيبدأ المشهد الذي يصف لنا جانباً من القصة من حيث انتهى المشهد الذي قبله، لنستوعب حجم التنقلات التي شهدناها في حياته من الفرقة والشتات إلى الانضمام والائتلاف، من المحن والابتلاءات إلى المنح والعطاءات، من الضيم وهضم حقه إلى العز والسلطان، من الأسر والعبودية إلى القوة والتمكين، ولا يمكن أن نستوعب كل هذه التنقلات في حياة شخص واحد إلا حينما نقرأ قصته كاملة كوحدة واحدة، لنرى كيف غير الله الوضع من حال إلى حال .

١ [يوسف: ٩]

٢ [يوسف: ٣٢]

٣ [يوسف: ٥١]

المشهد الأول : من بيت النبوة إلى ظلمات الجُب

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ٤﴾ قَالَ يَبْنِي لَكَ تَقْصُصُ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ٥﴾ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٦﴾ [سورة يوسف: ٤-٦]

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ﴾ في بيت النبوة الوالدان هما المرجع، هما مصدر التوجيه، ليس في أعمال اليوم الاعتيادية فحسب، بل حتى في رؤيا طفل صغير في حال النوم، فحين حاك في صدره ما رأى أفرغه على مسامع والده.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ﴾ لم يكن دور الوالدين يومًا مجرد الرعاية من توفير طعام وشراب ومسكن، إنما دورهما التربية، والتربية محورها الأساسي هو تشكيل الأفكار، بناء القناعات التي يفهم بها المرء الحياة من عقيدة صحيحة، ومبادئ يتمسك بها وطموحات يتطلع إليها وطريقة التعامل التي تعكس ما يحمل من قيم وأخلاق، ثم يأتي دورهم في توجيه الاهتمامات لئلا يسقط الابن فريسة للمغريات، وضبط مفاهيم القدوة في مخيلته لئلا يتخذ من السفهاء قدوة، ودور آخر في تنمية المهارات بالتنقيب عما يتميز فيه الابن ودعمه، لذا نجد في القصة التي نحن بصدد الحديث عنها أن الأبناء قد استأذنوا أباهم في أن يذهب يوسف عليه السلام معهم، لا لعمل يقوم بأمره إنما ﴿يَرْتَعَ وَيَلْعَبُ﴾ فلم يعب عليهم رغبتهم تفهيمًا لاحتياجاتهم، هذه هي التربية وهذا هو دور الوالدين، أما ما دون ذلك فهي رعاية توفرها أغلب الكائنات الحية لأبنائها.

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ﴾ قالها وهو طفل صغير بتوقير الابن لأبيه، ثم قالها وهو عزيز مصر الأمر المطاع ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ﴾^(١) فالمنبع الأصيل لا تُغيره الأحداث، لا تُغيره المكانة والوجاهة والسلطة، يظل الوقار ملازمًا له حتى في أبسط الألفاظ.

﴿إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ كان يوسف عليه السلام إذ ذاك صغيراً، لم يؤول الرؤى بعد، وحين قصّها على أبيه لم يتعرض يعقوب عليه السلام لتفسيرها، لكن ظاهرها يسوق البُشرى لعلو يُصيب يوسف عليه السلام في الدنيا والآخرة، إلا أنه لم يتطرق لتأويلها إنما تطرق لتوجيهه بالألا يقصها على أحد حتى إخوته. وتفسير الرؤيا قد أشار إليه يوسف عليه السلام في آخر القصة حينما دخل عليه أبواه وإخوته ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾^(١) هذا السجود هو تفسير رؤياي التي قصصتها عليك في صغري، قد جعلها ربي صدقاً، أي أنه علم تأويلها لما صارت حقاً فكان تأويله لها أن الأحد عشر كوكبا هم إخوته - وكانوا أحد عشر رجلاً - والشمس والقمر يرمزان لأبيه وأمه.

﴿رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ حين نقرأ لفظ السجود ترسم في ذهننا الصورة النمطية لسجودنا وجباهنا على الأرض، ونحاول في تخيلنا أن نُسقطه على باقي الأشياء في الكون، والذي لا خلاف فيه أن سجود كل شيء بحسب طبيعته، ليس كنفس هيئتنا في السجود، فحين نقول أن الكواكب والنجوم والجبال والأشجار تسجد ليس علينا أن نُقيده في تخيلنا بالسجود الحركي كما يسجد البشر. بل إن تعبير السجود يشتمل أيضاً من ضمن معانيه خضوع الكون بما فيه لله والطاعة له.

﴿قَالَ يَبْنَى لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ﴾ بُني تصغير (ابن) فهو صغير السن، لكن رؤياه تفوح منها رائحة بلوغ أمره وعلو شأنه، يتلطف معه في الحديث عطفًا وشفقة، كأنها يتذكر الأب حال إخوته معه، إعراضهم عنه، كيدهم به، فإذا ما كان أقرب الناس إلينا بهذه الغلطة فأين للمرء أن يفر؟ تلطف الأب لما يستشعر من صنيع إخوته معه.

﴿قَالَ يَبْنَى لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ﴾ لم يتطرق لتفسير الرؤيا، لم يسترسل في حديث قد لا يعرف كل تفاصيله، بل أجهل التوجيه أن اكنم فلا تفصح بحديثك. ليس كل ما نعرفه يحق لكل أذن أن تسمعه، قد نحتاج لشيء من الكتمان، وما أجهل الأدب النبوي حين يوجه بلطف، يُظهر العلة للأمر أو النهي، لا يستصغر شأن صغيره بأوامر لا مبررات لها، إنما يذكر علة عدم الذكر بكيدهم وترصدهم له ﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ فأرصاد البشر لبعضهم لا ينتهي.

﴿قَالَ يَبْنَى لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ﴾ التوجيه يكمن في كيفية التعامل، فقد توسّم في رؤياه خيرًا وفراصة الأب في ابنه نادرًا ما تخيب، حين يتوسّم فيه خيرًا يأتي الخير.

﴿قَالَ يَبْنَى لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ﴾ يستمع الأب لتفاصيل الرؤيا، لم يهّمش حديثه، أو يستصغر شأنه، ثم جاء التوجيه بعد الاستماع، توجيه ليس من أب لابنه فحسب إنما من مُجَرَّب للحياة إلى حديث عهد بها، إن النفوس ليست واحدة، وما ينطق به لسانك لن تتلقفه القلوب بنفس المذاق، قد يأنس به البعض ويبغضك بسببه آخرون، لذا اكنم الحديث قدر ما استطعت، لا تتحدث بحديث يوغر عليك القلوب، إن لم تجد فيمن تحادثه ألفة ومودة فلا تسترسل وتُخرج كل ما بداخلك، بل اكنم، ففي بعض النفوس مقاومة لكل صاحب رسالة، لكل صاحب موهبة، بعض البشر لا يُحسنون شيئًا قدر إحسانهم لو أد الأفكار.

﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ الكيد هو الاحتيال الخفي بقصد الإضرار، أي إيصال المكروه إلى الإنسان من حيث لا يشعر، وقد قالها يعقوب عليه السلام على سبيل اليقين لا الظن، فسوابق أفعالهم تجاهه قد أنبأته أنهم يضمرون له سوءًا، وعادة الآباء ألا يفصحوا عن شيء كهذا بين أبنائهم، لكن لما كانت سوء طباعهم تجاهه غالبية كان عليه أن يُحذّره.

﴿فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا﴾ كيد البشر غالبًا ما يأتي من قوي على ضعيف، فلا ملجأ للضعيف إلا أن يركن إلى قوة الله فيتقوى بها على كيد البشر ومكرهم.

﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ يرجع سبب ترصدهم له إلى تزيين الشيطان لهم عداوته ، كأنه يريد أن لا يوغر صدره على إخوته فأشار إلى أن الشيطان هو الذى أغراهم بالكيد له ، فإذا ما قص عليهم رؤياه نبت الحسد في قلوبهم ، وهذا الحسد يغرسه الشيطان في نفوس الناس ، لتولد بينهم العداوة .

﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ يجتبيك ، يختارك دون غيرك ، يُقربك دون غيرك ، ولا اجتباء إلا وقبله ابتلاء ، فكل ما ستصل إليه من مكانة وعِلْم مآله إلى اجتباء الله لك ، إلى اختيار الله لك ، إلى نعم الله عليك .

﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ قد تتعثر خطواتك في دروب الحياة ، وبعد سعي وجهد تتجاوز كل الصعاب ويعطيك الله أكثر مما كنت ترجو ، حينها على قلبك أن يأنس إلى فضل الله لا إلى فضل البشر ، لا إلى فضل السعي ، لا إلى فضل الكفاح ، لا إلى فضل الظروف والصُدف .

﴿وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾ أي تأويل الرؤيا على حقيقة دلالتها ، كما سيأتي في تأويله رؤيا صاحبي السجن ورؤيا الملك فيما بعد .

قال تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلْسَّائِلِينَ﴾ ٧ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أَيْنَمَا نَحْنُ غُصْبَةً إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ٨ أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ٩ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ١٠﴾ [يوسف : ٧-١٠]

﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ﴾ رغم أن مشاهد القصة قد حوت تفاصيل كثيرة ، وشخصيات متعددة ، وأماكن مختلفة ، لكن تبقى قصته مع إخوته هي الحدث الأبرز بين أحداثها ، وذلك لأنها خالفت ما اعتاده الناس أولاً ، ناهيك عن كونها في بيت نبوة يفيض بنور الوحي صباح مساء ، وثانياً لأن كل أحداث القصة قد بُيِّنَتْ نتيجةً لفعلتهم في حق أخيهام ؛ لذا لا عجب أن تكون قضية إخوته مصدر الاعتبار الأول

في القصة؛ ليعلم كل امرئ أن الابتلاءات لا تؤخذ بظواهرها فحسب، وأن لطف الله يحل مع كل ابتلاء، فلا ينزل ابتلاء بمرء إلا وصاحبه لطف الله يخففه على قلبه، وإلا فبعض الابتلاءات من قسوتها تكاد تقتل القلب كمداً.

﴿إِنِّي لِّلشَّائِلِينَ﴾ ليست آية واحدة، بل آيات متعددة، ففي تفاصيل أحداثها نرى الآيات في كل مشهد تتوالى، نرى تناقضات البدايات مع الخواتيم، نرى أسرة واحدة في بيت نبوة تتخللها التناقضات، بين أخ يحنو وإخوة تقسو، نرى الرعاية التي نالها في بيت العزيز كانت سبب شقائه لسنوات في السجن، نرى سنوات الرخاء يتبعها سنون جدد، نرى الواقع في نهاية أحداثها بعد أن كان حلماً في أولها، نرى الحزن يكسو مشاهدنا ثم يتبعه فرح في آخر أحداثها يمحو كل حزن قبله.

﴿إِذْ قَالُوا لْيُؤَسِّفْ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ آفة كل بناء أن يأتيه الهدم من داخله، الأسر لا تمزقها الهزات الخارجية بقدر ما تمزقها الفرقة من داخلها، وإخوة يوسف عليه السلام إنما وقعوا أسرى لحب الذات، لكن هذا الحب لا يصلح أن يكون سبباً لبغض الآخرين، لتمني زوال ما بهم من نعم، لعقد مقارنات ومفاضلات ونعي حظوظ، لماذا يحبه أبونا أكثر منا؟ أليس أصغر منكم والصغير ضعيف.

سئلت أم من تحبين من أولادك؟

فقالت: «مريضهم حتى يشفى، وغائبهم حتى يعود، وصغيرهم حتى يكبر، وجميعهم حتى أموت».

لقد أساءوا فهم رفق الأب بابنه الصغير. ماذا يريد الابن اليافع من أبيه؟! لم لا يفهم الأبناء أن ما يرونه من عطف أبيهم على أخيه الصغير قد شملهم حينما كانوا صغاراً؟!

هل من العدل أن نعيب على أب يحنو على طفله الصغير وهو يرى قسوة أخوته عليه؟!

أما إخوته فقد أصيبوا بداء الزهو بالنفس ﴿أَحَبُّ إِلَيَّ أَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾^(١) أعصبتكم مبرر لحسدكم على أخ لكم من أبيكم؟! كان الأولى بالعصبة أن تكون عونًا لا عبئًا، أن تكون للأب سندًا لا وجعًا. ثم لم أخرجتم الله من حساباتكم؟! أليست تلك العاطفة التي تسكن القلب تجاه شخص ما يُغلب عليها المرء وليست باختياره؟! كيف لنا أن نحسد قلبًا على حب قلب دون غيره؟!

﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ كان يوسف عليه السلام في مكان ما لا يفتن لما يحاك له، وهكذا هي المكائد لا تأتي عفوية أبدًا إنما يسبقها كيد وتخطيط، فقد أصبحت النكاية بأخيهم قضيتهم الكبرى، أفرغوا لها أوقاتهم، استنزفوا طاقات عقولهم بالتفكير في التخلص منه، ولم تأل عقولهم جهدًا في التفكير بالكيد بيوسف عليه السلام، فبعد بشاعة الفكرة ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ يأتي تلطيف الجرم لئلا يوقظ غفلة الضمير ﴿وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ مكائد تُرصد لطفل لا لجرم ارتكبه إنما هي حسد قلب على حب قلب. والخيانات التي تأتي من الظهر لا تمر بلا أثر، بل إنها تترك في القلب مرارة تعجز الأيام عن محو آثارها.

﴿أَوْ أَطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ ألقوه في أرض بعيدة عن الأرض التي نعيش فيها، فالغاية إبعاده عن أبيه وليس قتله تحديداً، فكل طريقة تبعده عن أبيه هي فكرة مقبولة لديهم .

﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ﴾ وجه أبيكم لا قلبه، إنهم لم يبالوا بالقلب وما يحوي، يعلمون مقدار الألم والمرارة التي سوف يسببها فقدان يوسف عليه السلام بقلب أبيهم، لكنهم لم يبالوا، إنما اهتموا بوجه أبيهم، وأعرضوا عن مرارة قلبه بفقدان ابنه.

﴿قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ﴾ لا مكان لاسم القائل وإن أظهر رفقا عن البقية، فمن يهادن في الإثم لا يقل جرما عن مرتكبه، أما الأخوة فقد كان أرفقهم ذلك الذي أنكر القتل ورجح النفي، ليس أن يلقوه في الحب بل في ﴿غِيَبَتِ الْجَبِّ﴾

فحين يخالط المرء من يستسيغون الجرم تأتي أفكاره وألفاظه قريبة من اللغة التي لا يحسنون سواها، ﴿وَالْقَوُّهُ﴾ هكذا كان الكيد ، وهكذا كان التدبير .

والمرء الذي يتعرض لمكائد البشر وخذلان البشر لن يسلم من شوائب المكر إلا حينما يأنس قلبه بالله، فحين نقرأ ﴿وَالْقَوُّهُ فِي غَيْبَتِ الْجَبِّ﴾ نستحضر صورة ذهنية سلبية للكيد بطفل لا ذنب قد اقترفه ولا جريمة قد اكتسبها، لكننا حين نقرأ في قصة موسى ﷺ ﴿فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ﴾^(١) نستحضر صورة أخرى من معية الله ولطفه، وكلاهما إلقاء، لكن الأولى من تدبير بشر لبشر والثانية من تدبير الله لبشر .

قال تعالى ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصِحُونَ﴾^(١١) أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَزْنَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ^(١٢) قَالَ إِنِّي لِيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ^(١٣) قَالُوا لَيْنَ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذًا لَخَسِرُونَ^(١٤) ﴿[يوسف: ١١-١٤]

﴿لَا تَأْمَنَّا﴾ مع كل هذه المكائد يتحدثون عن الأمانة، ومهما اجتهد المرء في إخفاء مكره يفضحه الله في فلتات لسانه، وتعاير وجهه، فالأب لم يتحدث عن خيانة ولم يتطرق لخوف على صغيره من مكيدة تحاك ضده، لكن نظرت له لتعبيرات وجوههم ربما ألفت في نفسه شيئاً من التردد حينما رأى عصبتهم، بأي حجة أقبلوا على أبيهم مجتمعين يطلبون مرافقة يوسف ﷺ؟ أصبح يوسف ﷺ فجأة أخاً مقرباً إلى قلوبهم يريدون أن يأنسوا به ويأنس بهم؟

﴿يَزْنَعْ وَيَلْعَبْ﴾ حين يأتي الاهتمام الزائد فجأة؛ على المرء أن يقلق من نية فاسدة تتوارى عنه. اختاروا ما يأنس به الطفل ﴿يَزْنَعْ وَيَلْعَبْ﴾، قواعد الطفولة تشمل حتى أبناء الأنبياء يأنسون باللعب .

خاطرة إلى كل أب أن ارفق بأبنائك واحترم طفولتهم ، فها هم أبناء نبي يتحدثون عن اللعب ولم يعب عليهم .

﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾ أسرف إخوة يوسف عليه السلام في دلائل إقناعهم لأبيهم ﴿وَإِنَّا لَهُ لَتَصِحُّونَ﴾ ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾ تجاهلوا معرفته بأحوالهم معه من قبل هذا، والذي ينوي النصيحة لا يجعلها حُجة، فنعت المرء نفسه بالنصح والإصلاح لا يكون بالفاظ مجردة وأفعال تناقضها، أأصبحتم الآن له ناصحين وموافقكم تجاهه تضرر الشر في كل حين؟ مَنْ يُحب الخير لغيره لا يتباهى به، ولا يدّعيه باللفظ المجرد، لا يمكن أن يضر الأذى ويظهر الصّلاح، وكأن الأحداث تتصاعد في حياة الطفل الصغير ليتخلص من كل شوائب البشر حتى في العناية والرعاية والتربية والتوجيه، فلا يأنس قلبه إلا لله.

﴿لَيَحْزُنُنِي﴾ هاجس يُحدّث القلب في اللحظة الأولى أن وراء الإلحاح سوء نية، لكنه الأب الذي افترض في أبنائه حُسن النية فقال في رقة تملؤها الحسرة ﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ﴾ يُظهر تخوفه ويعطي المبرر ويلتمس لأبنائه العذر، أخاف أن يؤدّي في غفلة منكم، لا يريد أن يوغر صدورهم على أخيه، لا يتهم جزافاً، أن الخوف سببه إحساس بمكر يُحاك ضد أخيه.

﴿لَيَحْزُنُنِي﴾ مرارة الفقد لا تعادلها مرارة، فقد الأحبة يدمي القلب، هذا نبي مُرسل ويحمل هذا الكم من المشاعر، فما بال أحدنا يعامل بنيه بقسوة ويدّعي أنها تربية.

﴿لَيَحْزُنُنِي﴾ نقل لنا القرآن وصفاً بليغاً لمشاعر الآباء تجاه أبنائهم، رأيناها هاهنا في موقف يعقوب عليه السلام وما آل إليه حاله من الحزن على فقد ابنه، ورأيناها في قصة أم موسى عليها السلام حين ألقته في البحر وغدا قلبها فارغاً ولم يهدأ لها بال حتى عاد إليها.

وحين نقرأ هذا القصص نجد أنفسنا أكثر فهماً لطبيعة المشاعر، وأنها جزء لا يتجزأ من تكويننا، خاصة تلك التي لا نستطيع السيطرة عليها كرد فعل على المواقف التي نتعرض لها، أو نجد أنفسنا في تفاصيل أحداثها - ربما بغير سعي منا ولا قصد -، وأن الرقة واللفظ واللين والحزن على الفراق كلها مشاعر يحق لها أن تأخذ حيزاً واسعاً في حياتنا، وأن تعاملنا مع المواقف لا يجب أن يتسم بالتجاهل والبرود بل بمنح مشاعرنا حق الظهور علانية في أي موقف في فرح أو حزن.

﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ كم من ألفاظ نطقها بحُسن نية ونجد غيرنا يستخدمها بسوء نية، فإخوة يوسف عليه السلام لم يُكلفوا أنفسهم البحث عن سبب آخر يُخفون به مكيدتهم إنما أخذوها من فم أبيهم لِيُعيدوها ثانية، كأنما أهداهم العذر الذي سيأتون به ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾

﴿وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ يُقَدِّم البشر على إيذاء من لم يلحقوا بهم ضرراً لأنهم - غالباً - لا يشعرون بالآلام الآخرين. إذا علمت مكانة أمر ما أو شخص ما في نفس إنسان ثم فكرت في إيذاؤه به أو حرمانه منه فأنت والذئب سواء .

﴿وَنَحْنُ عُصْبَةٌ﴾ ظل إخوة يوسف عليه السلام يكررون عصبتهم على مسامح أبيهم كأنما يذكرونه في كل آن كيف تُفَضِّل صغيرين لا منفعة فيهما على جمع يقوم بما تحتاجه من مقومات العيش والعمل؟ وكيف يشملهما برعايته ويترك جماعتهم؟ هكذا نتخذنا عقولنا أحياناً، هكذا تُسول لنا أنفسنا أحياناً، أننا الأفضل، أننا فوق المقارنات، أننا نستحق تقديرًا أكبر، واحترامًا أكبر، واهتمامًا أكبر، والحقيقة التي تنطق بها تجربة الحياة أن الاحترام والاهتمام والحب لا يُستجدي، وأن المرء رهين ما يقدم، وأن أفعالنا هي مقياسنا الحقيقي في نظر الآخرين، ولورأى يعقوب عليه السلام في أبنائه حبًا ورعاية وعطفًا على إخوتهم الصغار ما دارت كل هذه النقاشات، وما أظهر كل هذا التخوف والتردد من طلب هو في عُرف الأسرة مقبول حين يصحب الأخوة أخاهم معهم .

قال تعالى ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابِ الْجَبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَجِّنَهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَجَاءُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يوسف : ١٥-١٨]

﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غِيَابَتِ الْجُبِّ﴾ اكتملت أركان المكيدة ، انطلقوا بيوسف عليه السلام مبتتين له النية، أن يجعلوه في غيابة الحب ، لكن الذي ترعاه يد الله أنى لا يدي البشر أن تطاله ، الذي ترعاه يد الله لا تضره مكائد البشر، وكأن كل هذه الأحداث تجرد يوسف عليه السلام من عوالم البشر فلا يكون لأحد عليه فضل في تربية أو إصلاح، فحين يصير شاباً ويتعرض لمحن أشد وطأة لا يعاب بمكر البشر إنما يأنس بمعية الله، لذا اختار السجن على غواية امرأة العزيز ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾ يفضل تقييد الحرية على أن يقترف إثماً ، هكذا هم عباد الله حين تكون أعينهم وعقولهم وقلوبهم متعلقة بالله في كل تصرفاتهم .

﴿وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ﴾ العُصبة كلها على رأي واحد، ولفظ الإجماع هذا يصور لنا كم بلغت المكيدة في نفوسهم، كم بلغ الحقد في قلوبهم، إخوة يكون أرفقهم بيوسف عليه السلام من يقترح أن يُلقى في غابات بئر في صحراء قاحلة. الإجماع على أمر لا يعني صلاحه، فقد يجتمع البعض على أمر ويكون فيه مفسدة . لابن مسعود جملة جامعة قال فيها «الجماعة ما وافق الحق؛ ولو كنت وحدك» .

﴿وَجَاءُوا آبَاءَهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ﴾ ليس تباكياً بل بكاءً، ليس ادعاءً وتزييفاً بل حقيقة، يكون حقيقة، أي قدرة تلك التي استطاعت أن تُنتج دموعاً كاذبة بعد موقف كهذا؟!

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعِنَا﴾ في وقت المساومة والإقناع كانت ﴿أَرْسَلَهُ مَعَنَا عِدًا يَرْتَعِ وَيَلْعَبُ﴾ وفي وقت التضليل والخداع أصبحت ﴿وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتْعِنَا﴾ أليس المقصود باللعب كان يوسف عليه السلام لا أنتم؟ بعض الخداع يحتاج أن يلبس ثوب الخطيئة وأن يظهر شيئاً من التقصير، يعترفون بتقصيرهم في حمايته لئلا يتهموا بقتله.

﴿وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ كيف يمكن وصف هذا المشهد؟ أب يرى قميص ابنه ملطخًا بالدماء ومن يحمله هم إخوته الذين يُفترض عليهم نصرته وحمايته، إنهم من كادوا به.

﴿بِدَمٍ كَذِبٍ﴾ جعلوا وجود الدم على قميصه قرينة على صدقهم في ادعائهم، لكن يعقوب عليه السلام أبطل قريبتهم هذه بقرينة أقوى منها، وهي سلامة القميص من الشق. عن الحسن قال: لما جاء إخوة يوسف عليه السلام بقميصه إلى أبيهم، جعل يُقلِّبه فيقول: ما عَهدت الذئب حليمًا؟ أكل ابني، وأبقى على قميصه^(١).

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ سَوَّلَتْ أي زَيَّنَتْ وَحَسَّنَتْ. والتسويل: تزيين النفس لما تحرص عليه. لا تثق في ميولات النفس في كل آن فقد تقودك لفعل ذميم. ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ القلوب المتعلقة بالله لا تفتأ في كل مقام تتمسك بمعيته، استسلام لقضاء الله، لم يزد في كلامه عن عتاب عابر يُخرج شيئًا مما يحمله القلب من مرارة ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ﴾ عتاب لا تجرح فيه ولا توبخ، عتاب يخاطب القلوب لا الأذان، عتاب يُذكّرهم بإنسانيتهم قبل أخوتهم ليوسف عليه السلام، عتاب يوقظ الضمير من غفلته، يرد العقل إلى رشده، لكن ما من شيء من كل هذا قد حرك مشاعرهم.

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ صرح بها ولم يكتمها، ليس الأمر كما تقولون إنما زينت لكم أنفسكم سوءًا. ثم باستسلام المؤمن لقضاء الله يعلن أنه لا يملك إلا الصبر، ليس صبرًا عابرًا ولا عاديًا إنما ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ فبعض الخذلان لا يصلح معه العتاب، بعض الأوجاع لا تجدي معها الشكوى، فلا تُشكى إلا لله، في حينها يلهج اللسان بصبر جميل، ولا يكون الصبر جميلًا إلا إذا خلا من الشكوى لغير الله، ومن الركون إلا لله، وما حيلة كل مبتلى إلا الصبر الجميل، صبر لا شكوى فيه ولا سخط، صبر لا جزع فيه ولا تذمر.

﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ العون من الله لا من غيره، قد أوكلته أمري، قد لجأت إليه دون سواه، قد أعلنت خضوعي لقضائه، الأمر أكبر من كيد عابر، الأمر أكبر من حسد إخوة، ﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ﴾ فلا طلب للعون في الابتلاءات التي لا تقوى القلوب على حملها إلا من الله، لا قوة تعين ضعيفاً إلا قوة الله، لا معية تربط على قلب مبتلى إلا معية الله، استسلام مطلق لقضاء الله يُجَمِّله بصبر جميل، وكل القرائن تُخبره بكذب ادعاءاتهم .

﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ هكذا هي قلوب المؤمنين، لا تطرقها يد اليأس ولا تُدنّسها رائحة القنوط، لذا ظل يعقوب عليه السلام ما بقي من حياته ينشد عودة يوسف عليه السلام حتى إنه بعد فقد ابنه الآخر قال لبيه ﴿يَكْبَىٰ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُونُسَ وَأَخِيهِ﴾ كأنما يتذكر رؤيا يوسف عليه السلام العالقة في قلب الزمان والتي لم يرها يعقوب عليه السلام حقيقة بعد.

﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ كل اتكاء على جدار البشر هو سقوط مؤجل، كل اتكاء على غير الله إلى زوال ، فالله المستعان لا غيره، الله المستعان باعتقاد قلبي لا بلفظ مجرد ، فإذا ما تعلق القلب بها يقيئاً اختلفت نظرتة للحياة والأحياء .

﴿وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ والله المستعان ترددها حينما تغلبك الحياة، حينما تغلبك الهموم، حينما تضيق عليك الدنيا الواسعة، تلجأ إلى الله بجوامع قلبك؛ لتتضاءل أمام عينيك الدنيا بكل متاعها .

المشهد الثاني «من غيابات الجب إلى ظلمات السجن»

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّهُ بِضْعَةً ۖ وَاللَّهُ عَلِيمٌ
بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَرُّهُ بِشْمَنِ يُحْسِبُ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ
الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِّصْرَ لَا مِرَاتٍ ۖ أَكْرَمَىٰ مِثْلَهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا ۖ وَكَذَلِكَ
مَكَتَ يُوسُفُ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ۚ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ ۖ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ
النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾﴾

[يوسف: ١٩-٢٢]

انتهى المشهد الأول من القصة، طويت صفحة إخوته ومكيدتهم، وبدأت صفحة معية الله لعبده تأخذ شكلاً أكثر إشراقاً. فالمشهد الآن غلام صغير مُلقى في غيابات بئر في صحراء قاحلة في زمان غابر لا نعرف شكل الحياة فيه داخل المدن فكيف هي في البادية؟! فيسوق الله له قافلة تريد الماء ربما لحاجة ملحة أو على سبيل التزود لا أكثر. هكذا هي معية الله لا تفارق عباده، لكنها تتدخل لتغير سير الأحداث حينما تنقطع أسباب النجاة، نجدها قد تدخلت لنجاة إبراهيم عليه السلام من الحرق، وهاهنا تتدخل لإنقاذ يوسف عليه السلام من غيابات الجب.

﴿وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ﴾ أسباب النجاة التي يسوقها الله لعباده ليس شرطاً أن تكون أسباباً ظاهرة واضحة جلية، فقد حفظ موسى عليه السلام بعاطفة ألقاها في قلب زوجة فرعون ﴿وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ﴾ ^(١) ونجى يوسف عليه السلام من ظلمات الجب بطلبهم الماء ولو على سبيل التزود، لا الإلحاح، هكذا هي معية الله لعباده، يخلق حاجة في نفوس بعض خلقه ليكون في قضائها لطف بغيره، فما قدر ابتلاء إلا وساق معه بشريات الفرج.

﴿قَالَ يَبُشْرَىٰ هَذَا غُلَامٌ﴾ الغريب رأى فيه البُشرى، وإخوته رأوا فيه سبب شقائهم. قد ينتقص منا من هم أولى الناس بدعمننا، وكأننا نرى بعض واقعنا في كل مشهد من مشاهد القصة.

[القصص: ٩]

﴿قَالَ يَبْشُرِي هَذَا غُلَامٌ﴾ كيف كانت نظراته الأخيرة في وجوه إخوته؟ كيف كانت نظراتهم له وهم يتخلصون منه في غيابات البئر؟ بل كيف كانت نظراتهم وهم عائدون إلى أبيهم يحملون له الخبر؟ ألم يلتفت منهم أحد للوراء يودعه ولو بنظرة عابرة؟ أي قسوة هذه التي تصرف القلوب عن أبسط معاني الإنسانية؟ إن المرء السوي يستشعر مرارة الجرم حين يُروى على مسامعه، فكيف هي قلوب صانعيه؟ ألا تشعر؟ ألا تتألم مثل باقي القلوب؟ بل كيف كانت نظراته لمن انتشله من غيابات الحب، وقبل أن يُقدّم له أي نوع من الشكر على المعروف يسمعه يهتف أن وجد بضاعة؟ بإمكانك أن تطرح مرارة ما يمكن أن تمر به في حياتك بجوار نظرات هذا الطفل في هذه الحال.

﴿وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةً﴾ أبوه نبي، وجدّه نبي، وجد أبيه نبي، ثم ها هو في نظرهم بضاعة، نظرة الناس لا تُغير الحقائق، نظرة الناس ليست دائماً حكماً صائباً، من قبل قالوا عن إبراهيم عليه السلام ﴿قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ﴾ ^(١) كان في نظرهم مجرد فتى، أما في ميزان الإيمان: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ^(٢)

﴿وَأَسْرُوهُ بِضَاعَةً﴾ نبي كريم يروونه بضاعة يسعون لستر خبرها ولم يعلموا أن خبرهم هذا سوف يوثقه كتاب سماوي. حين يكون الشخص في المكان الخاطيء تكون الأحكام عليه قاسية، لا يُعرف له قدر ولا يُحفظ له حق، هكذا هي حال كل من يكون في مكان لا ينتمي إليه، وهكذا هي حال كل صاحب موهبة بين سفهاء يسخرون منه وآخرون يتقصون من قدره.

﴿وَشَرُّهُ بِشْمَنٍ بَخِيسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾ لم يكتفوا باتخاذهِ سِلعة بُاع، بل كانوا في بيعه من الزاهدين، هكذا النعم حينما تكون في يد جاحد بها، هكذا يُباع كل مبدع حينما يوكل أمره لمن لا يعرف قدره ﴿مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾

١ [سورة الانبياء: ٦٠]

٢ [النحل: ١٢٠]

كأنما يريدون أن يتخلصوا من عبئه عليهم. لفئة أخرى تخبرنا أن نظرات الناس ليست مقياسا للحكم على أحد.

﴿وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لِامْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ بعض الوجوه تتأمل فيها الخير من نظرتك الأولى، كذلك فإن بعض الأعمال نقوم بها تطوعًا أو حبًا للخير ولا ندري أننا مجرد أسباب للطف الله بغيرنا من العباد.

﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ﴾ لَفَظُهُ إخوته وكادوا له، وأكرمه غريب لا يعرفه، هكذا هو عطاء الله، لا مقياس له، لا حدود تقيده، يبدأ تمكين يوسف عليه السلام من باب الرق، تبدأ أول صفحاته بمصر وقد دخلها ﴿بِضْعَةٍ﴾ وقد بيع ﴿بِثَمَنِ بَخِيسٍ﴾ وهم فيه ﴿مِنَ الزَّاهِدِينَ﴾.

﴿عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَخَذَهُ وَلَدًا﴾ كان عزيز مصر عقيمًا لا يُنجب، فاستبشر في يوسف عليه السلام خيرًا، فكان عُقم العزيز سبب الرحمة بيوسف عليه السلام.

قال ابن مسعود : أفرس الناس ثلاثة :

العزيز في يوسف عليه السلام حيث قال لامرأته : ﴿أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا﴾
و المرأة التي قالت لأبيها عن موسى عليه السلام : ﴿يَتَأْتِيَ اسْتَجْرَهُ﴾
وأبو بكر في عمر رضي الله عنهما حيث استخلفه .

﴿عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ ليس أمرًا إلزاميًا يُلزم به زوجته، إنما حوار راق وأسلوب إقناع، الصدام والتعنّت هو ما يُفسد البيوت، ولو قامت على الاحترام لَصَلَحَتْ.

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ عطاء إلهي لا سعي بشري، وهكذا كل توفيق في الحياة نُرجعه لعطاء الله، يسعى المرء بكل طاقته لكنه لا يتعلق بالأسباب، لا يتعلق بقدرتها أو عجزها، إنما يسعى بجوارحه وقلبه معلق بعطاء الله له، بفيض الله عليه، بلطف الله به، فيمضي في أي طريق يسلكه مع أقدار الله بيقين .

﴿مَكَتًا لِيُوسُفَ﴾ يتحدث الله عن التمكين ولم نر مشاهده بعد، يحدثنا الله عن التمكين ولا تزال صورة البدايات عالقة في أذهاننا، لا تزال نستحضر مشهد غيابات الحب، مشهد ﴿وَأَسْرُوهُ بِضْعَةَ﴾ مشهد البيع بـ ﴿دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ ، مشهد ﴿عَسَى أَنْ يَنْفَعَنَا﴾ مشاهد كلها تحمل صور الاستضعاف لكن الله يحدثنا بأنها تمكين، إنه البناء النفسي لعقلية المؤمن حينما ترسم في خيلته كل صور الضعف التي لاقاها يوسف عليه السلام ليستحضرها في نهاية القصة وما بلغه من قوة وتمكين لنعلم أن التمكين لا يأتي إلا بعد ضعف، وأن الاجتباء لا يأتي إلا بعد ابتلاء، وأن المنح لا تأتي إلا بمحن تتوالى قبلها، وأن القوة الحقيقية ليست في سلطان قائم على الأرض إنما في إيمان وقر في القلب .

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الله غالب يُقدَّر ما شاء من أحداث، يُرسل الفرج بعد الضيق بأسباب وبغير أسباب. قال ابن كثير: أي إذا أراد شيئاً فلا يُرد ولا يمانع ولا يخالف، بل هو الغالب لما سواه .

وقال القرطبي: الهاء راجعة إلى الله تعالى؛ أي لا يغلب الله شيء، بل هو الغالب على أمر نفسه فيما يريد أن يقول له: كُنْ فَيَكُونُ.

وقيل: ترجع إلى يوسف عليه السلام؛ أي الله غالب على أمر يوسف عليه السلام يدبره ويحوطه ولا يكله إلى غيره، حتى لا يصل إليه كيدُ كائد.

﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ ﴿بَلَغَ أَشُدَّهُ﴾ أي اكتمل نضجه، نضج عقلي ونفسي وجسماني، ثم يأتي العطاء بعد الاكتمال ﴿آتَيْنَاهُ حُكْمًا﴾ أي آتينا حكمة في التصرف وفهماً يرتقي به عن أفهام من هم دونه فيبصر الأمور على حقيقتها بلا شوائب، ﴿وَعِلْمًا﴾ ثم يأتي العلم بعد الفهم، علماً فيما بينه وبين ربه، وعلماً بمصالح نفسه، وعلماً بمصالح العباد، وهذا العطاء هو أول أمر النبوة لذا نجده متكرراً في الخبر عن أنبياء الله، فعن لوط عليه السلام ﴿وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ ^(١) وعن داوود وسليمان عليهما السلام ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَنَ وَكُلًّا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ ^(٢)

١ [سورة الانبياء: ٧٤]

٢ [سورة الانبياء: ٧٩]

﴿عَاتَيْنَهُ﴾ عطايا الله لا تأتي بعجلة العبد، إنها تأتي في الوقت الذي أراده الله ، تأتي في الوقت الذي يكون في عطائها خير للعبد، قد يؤجل الله عنك أمرًا لحكمة، وقد يُعجله لحكمة، في الحديث أن النبي ﷺ قال: **يُسْتَجَابُ لِأَحَدِكُمْ مَا لَمْ يَعْجَلْ يَقُولُ قَدْ دَعَوْتُ رَبِّي، فَلَمْ يَسْتَجِبْ لِي.** (١)

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ الصّابرين على النوائب، جزاء غير مقيد بزمان ولا مكان، أبتلي يوسف ﷺ في حياته بصنوف شتى من الابتلاءات فما كان منه إلا صبر جميل وقلب راض ولسان ذاكِر، حفظ الله فحظفه وراقب الله فعصمه .

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ نجزي المحسنين بحُسن عطائنا، حتى في الإخبار عنهم يُعلمنا ربنا أدبًا فريدًا، قبل أن يسرد بعض تفاصيل قصة يوسف ﷺ مع امرأة العزيز يُذكرنا أولاً أننا نتحدث عن نبي من المحسنين فقدم حُسن الذكر، وجميل الصفات، واجتباءه إياه، وإتيانه العلم والحكمة قبل أن يسرد طرفًا من قصته مع امرأة العزيز، معان تحجب مخيلاتنا عن التفكير السيئ ولو بالخطارة .

قال تعالى ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهٖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأٰ بُرْهٰنَ رَبِّهٖ ۚ كَذٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهٗ السُّوءَ وَالْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهٗ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِيْنَ ﴿٢٤﴾﴾ [يوسف: ٢٣-٢٤]

تنتقل أحداث القصة لجانب آخر في حياة يوسف ﷺ، يوسف الإنسان، يوسف الشاب، يوسف الغريب في عقيدته ووطنه وقيمه وأخلاقه عن كل المحيطين به، وغربة المرء ليست محصورة في انتقاله من المكان الذي تربى فيه إلى مكان جديد، إنما غربة المرء الحقيقة أن يعيش وسط أناس لا يالفهم ولا يألفونه، يشعر بغربته وهو بينهم، إنها غربة الأفكار والاهتمامات والمشاعر.

وقصة امرأة العزيز مع يوسف عليه السلام تكشف لنا كيف يمكن للمرء أن يُظهر صدق حقيقته الإيمانية والأخلاقية في مواقف الفتن، إن كانت أحداث طفولته قد عجز عن إظهار أي مقاومة بشأنها فكل الذي سيأتي كانت له وقفات حاسمة في تفاصيله ونتائجه، لنعلم أنه ليس للفضيلة وطن، لنعلم أن استحضر الرقابة الإلهية ليس له مكان محدد ولا زمان محدد وليس حكراً على أناس دون غيرهم، لنعلم أن مَنْ تعلق قلبه بمراد الله كان سره كعلانيته وظلمة ليله كضوء نهاره، لنعلم أن من هتك البستر الذي بينه وبين الله هتك الله السر الذي بينه وبين الناس، وأن من اعتصم بالله آواه ومنعه .

﴿وَرَاوَدَتْهُ﴾ محاولة دنيئة تكشف عن نقیصة في الأخلاق، أهذا الذي استأمنك عليه زوجك؟ أهذا الذي استقدمه ورعاه ليكون لك ولدًا؟ والنفس ترضخ لقوة الشهوة حين لا تردها عقيدة ولا يهذبها إيمان ولا يردعها ضمير، الابتلاءات آتية لا ريب، لكن الذي يصنع الفارق هو القلب الذي يستقبلها برضا المؤمن بقضاء الله، فلا اجتباء بغير ابتلاء، ولا صدق بغير بينة .

﴿أَلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ بعض الرذائل نستقبح أنفسنا بعد إتيانها، إنه النقص البشري، إنه التمييز والمفاضلة بين العباد، بين نفس تميل ونفس تثبت، حتى الوصف القرآني جاء غاية في الدقة، لم يقل سيده، لم يقل زوجة العزيز، بل ﴿أَلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا﴾ استنكاراً لصنيعها.

﴿وَعَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾ مكيدة أخرى قد أفرغ صانعها كل جهده أخذًا بالأسباب.

﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ هكذا قالها بقوة الإيمان، قالها خشية من الله في خلوة قد هيأت لها امرأة العزيز كل الأسباب، حين تستحضر خشية الله في قلبك عند الخلوة فاعلم أن قلبك ينبض بالإيمان

﴿وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ﴾ قالت، قال، لا فواصل، لا أداة عطف توحى بالتسوية أو التريث، إنما قول قاطع لم يمنح نفسه أي وقت للتفكير، هذا هو اليقين، وأكثر الخبيات التي نعيشها إنما هي جراء التردد في وقت كان علينا أن نكون حازمين.

﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾ تذكير بالله أولاً أعقبه بـ ﴿إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ تذكير بنبيل الأخلاق وحسن السيرة والسريرة، أعقبه بـ ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ تذكير بالجزاء وسوء العاقبة للظالمين، تدرج يرد النفس إلى رشدتها، يحول دون خاطرة عابرة تحيد فيها عن طريقها.

﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ﴾ لا لنصرفه عن السوء إنما لنصرف السوء عنه، فلا يطاله ولا ينال منه، هكذا هي حياة المحسنين التي زكّاها الله، إنها حياة يعلن فيها المؤمن عبوديته المطلقة لله، فلا يقتصر الجزاء على رضا الله فحسب، إنما سلامة العيش من منغصات الحياة، حتى إن الركون البسيط من النفس لا يحدث للقلوب المتعلقة بالله.

﴿لِنَصْرِفَ عَنْهُ﴾ في كل موقف أثرت فيه طاعة الله بالانصراف عن السوء والفحشاء، صرف الله عنك بعده السوء والفحشاء فلا يلقيانك في طريق، فالله يحفظ قلوب عباده من كل مظاهر الدنس.

قال تعالى: ﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصُهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَى قَمِيصُهُ قُدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يوسف: ٢٥-٢٩]

﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ كلاهما يسعى نحو الباب بهم مخلفة، هو يفر من المعصية، بينما هي تسعى نحوها، ليس في كل بقاء خير، فبعض الأماكن في تركها خير، وبعض الأشخاص في فقدانهم خير، استبق نحو كل باب ترى فيه نجاتك، ولا تمكث في مكان يُساء إليك فيه .

﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ﴾ تسابقه نحو الباب الذي أغلقته بيديها بإحكام ﴿وَعَلَقَتِ الْأَبْوَابَ﴾ ألا تثق في إغلاقها له؟ النفس تحت وطأة الشهوة تكون قلقة مضطربة لا تفكر بعقل ولا تتصرف بحكمة، فكلاهما انطلق لكن الغايات قد اختلفت فتحرك هو ييقن المؤمن أن الله جاعل له مخرجًا وإن كانت أحكمت إغلاق الأبواب، وتحركت هي خلفه بقلق أنساها أنها أحكمت إغلاق الباب.

﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ﴾ بعض الابتلاءات يكون فيها النجاة، أساءت إليه، شقت قميصه، فكان دليل براءته .

﴿سَيِّدَهَا﴾ ليس سيد يوسف عليه السلام، رغم أنه في حكم المملوك، يرتفع الله بعبده فينسب سيادته عليها لا على يوسف عليه السلام.

﴿لَذَا الْبَابِ﴾ المكان الذي أحكمت إغلاقه جاءتها الفضيحة من عنده.

﴿قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ استشارة للحمية، تلاعب بالألفاظ، الآن تذكرت أنها من أهله، الآن تذكرت زوجها، ألم يكن كذلك حينما غلقت الأبواب؟ يا للنفس حين تكيد وتصدق كيدها، لقد احتاطت وتمادت في كيدها، فاخترت الوقت الذي ليس بعادة العزيز أن يحضر فيه، ثم غلقت الأبواب تأكيدًا وكيدًا، ثم راودت، ثم استبقت الباب لتجد العزيز عند الباب.

﴿قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ بكل جراءة تتحدث، لكنه حديث تلميح لا تصريح ﴿مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا﴾ فأشارت تلميحًا إلى يوسف عليه السلام الذي أبى التلميح، وبشبات قال تصريحًا: ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ حين يكون المقام اتهامًا لا يصلح

التلميح أو التعريض، إنما دفاع واضح وصريح لإبراء النفس من دَنَسِ الشبهات ﴿هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي﴾ هكذا هو منطق الأبرياء، واضح لا غموض فيه، لا جدال ولا جهد في الإقناع، إنما بكلمات بسيطة واضحة تغنيهم عن أحاديث طويلة يصنعها من يختلقون ويدعون الكذب .

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ من أين جاء الشاهد؟ ما اسمه؟ كل هذا لا يفيد في عرض القضية شيئاً، القرآن يوثق مواقف لا يعرض أسماء، الذي يعيننا أن الله أجرى الحق على لسانه في تلك اللحظة الحرجة ؛ فأدلى بشهادته لتثبت براءة يوسف ﷺ أمام العزيز . ثم إنه ليس بشاهد عادي ، إنما هو من أهلها ؛ لتكون شهادته أوجب للحُجَّةِ عليها، وأوثق لبراءة يوسف ﷺ، وأنفى للتهمة عنه . رغم أنه لم يسلم من حظ النفس فقدمها وأخره ﴿فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ﴿فَكَذَبْتَ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ لكنه مع ذلك قدم رأياً فريداً في إقامة الحجة دون الحاجة للمواجهة المباشرة أمام العزيز .

﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ قَامِيصَهُ فَقَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ تبين للعزيز صدق يوسف ﷺ، فنظر إليها متعجباً من جرأتها على اتهامه رغم كل ما قدمت من كيد به، إنها تكيد وتدّعي كذباً وتدافع عن كذبها أمامه ، فلم يجد العزيز بُدّاً من الإعراض عنها، وهذا دأب قلبي الحيلة، لا يأخذون رأياً قاطعاً إنما تبيع القضايا الشائكة، بل تخفيف حدة الألفاظ بتوزيع الاتهام كأنه يتقي غضبها ﴿كَيْدَكُنَّ﴾ إنها امرأة واحدة فما دخل باقي النساء بكيدها ليقحمه في الحديث !

﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ الذي يشغل العزيز هو انتشار الخبر ، فيتوجه إلى يوسف ﷺ مخاطباً أن أعرض عن الحديث في هذا الأمر وليتبه الحديث فيه عند هذا الحد، هذا هو ما كان يشغله، ثم يلتفت إليها أن استغفري عن هذا الخطأ، ومع أن أخطاءها كثيرة لكنه عاد ثانية ليخفف من حدة النقد ﴿وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ﴾ كأنه خطأ عابر لا يستحق من العزيز أن يَبْتَ فيه برأى، لذا تمادت امرأة العزيز فيه ثانية .

ورغم أن العزيز لم يكن يدين بدين سماوي نعرفه إلا أنه كان يعرف الاستغفار من الذنوب، ربما بقايا تعاليم قديمة، ربما إرث أخلاقي جعله يرى في فعل امرأته نقیصة تستوجب الإعراض عنها فعبر عنه بالاستغفار .

قال تعالى ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرُلَهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣١﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكًا وَمَاءً كَلًّا وَحِدَةً مِّنْهُنَّ سَكِينًا وَقَالَتْ أُخْرِجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣٢﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْنَهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [يوسف : ٣٠-٣٢]

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ خرج الحديث عن حدود قصره، هكذا هي القصور حين يسكنها فارغو العقول، ينشغل سكانها بتناقل أخبارها، ونسوة المدينة اللاتي ادعين الصلاح أردن التشهير بأبلغ صوره، فألصقن اسم العزيز إليها ﴿امْرَأَتُ الْعَزِيزِ﴾ وهذا ادعى لنشر الخبر وتناقله في المدينة كلها، ثم تشنيع وتبشيع للجرم ﴿تُرَاوِدُ﴾ فلم يكتفوا بنقل الخبر إنما بشرح بعض تفاصيله، ﴿فَتَاهَا﴾ ليس شخصاً عادياً، ليس رجلاً من القصر، إنما ﴿فَتَاهَا﴾ لتلتقف الأذان الخبر باستقباح شأنها واستهجان فعلتها .

﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ الدين ليس ضد الحب، إنما هو ضد كل انهيار للخلق باسم الحب، كل وأد للعفة باسم الحب، فالقلب الذي يضرب بالأخلاق عرض الحائط ليس قلباً محباً إنما قلب يبحث عن المتعة بستار الحب، فالله تعالى كما أوجد في قلوبنا المشاعر أوجد بجوارها الإرادة التي تضبط سير المشاعر، التي تُقيم عوج أي انحراف قد تميل إليه النفس، الإرادة التي تضع في طريق الاعوجاج أشواكاً تؤلنا حتى نصحح مسارنا، التي تُذكرنا في كل آن أن حياتنا مع العفة أنقى من حياتنا مع الرذيلة، وحياتنا مع الكرامة أنقى من حياتنا مع المذلة، وحياتنا مع الفضيلة أنقى من حياتنا مع الانحطاط.

﴿إِنَّا لَنَرِيهَا فِي صُلَالٍ مُمِينٍ﴾ هذه الحكمة وكمال العقل الصادر من نسوة المدينة وهن في بيتوهن ومجالسهن، قبل أن يُعرض عليهن يوسف عليه السلام، ما أسهل النقد وإطلاق الأحكام حين لا نكون طرفاً في تفاصيل الأحداث، التمييز ليس في حكمك على الأمور من خارجها إنما في صلاحك وأنت في قلب أحداثها، حين تغوص في أمواج الفتنة ثم تخرج منها سالماً، فالنسوة اللاتي أطلقن القول العاقل وأظهرن الشجاعة هن أنفسهن من خاطبهن الملك قائلاً ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ﴾ خطبكن بالجمع، فالفعل جاء منهن كامرأة العزيز .

﴿إِنَّا لَنَرِيهَا فِي صُلَالٍ مُمِينٍ﴾ قد تستنكر على أحد فعله وتذمه إما قولاً أو في نفسك وأنت لم تخض ما خاض فيه ، فتدور دائرة الزمان وتسقط في نفس موضعه فإذا بك تفعل نفس ما فعل ، تخطو نفس خطواته ، وتتصرف نفس تصرفه، فلا تكلف نفسك مشقة محاسبة الناس على أفعالهم ، فهي ليست وظيفتك، ولا تتعجل الحكم على أحد قبل أن تخوض نفس التجربة ، لا تلم غريقاً وأنت على شاطئ البحر ، فمن عاب أبتلي ، ربما ليست قاعدة عامة لكنها موجودة نراها كثيراً في حياتنا .

﴿إِنَّا لَنَرِيهَا فِي صُلَالٍ مُمِينٍ﴾ يحكي شخص عن تجربته فيقول: عبت على رد فعل شخص في بلاء وقع به، استنكرت رد فعله وطريقة معالجته للأمر ولم يمض وقت طويل حتى وقعت في نفس البلاء أسلك نفس الطريق الذي سلك، وأسمع من غيري نفس العبارات التي أسمعها له من قبل؛ فلا تسخر من غريق لا يحسن العوم وأنت على اليابسة.

﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكًا وَءَاتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا﴾ كما أن الأخبار كسرت جدران القصر لخارجها، ها هي تعود إليه من جديد، فعلمت امرأة العزيز بقول نساء المدينة في حقها، وبعض النفوس تبلغ بها الدناءة ألا يكون لها شغل شاغل سوى تناقل الأحاديث، ونشر التفاصيل التي تضيق النفس بافتضاهاها، لكن امرأة العزيز أدري بنساء المدينة، فكادت هن كما كادت ليوسف عليه السلام من قبل، أعدت لهن طعماً ودعتهن جميعاً إليه ليرين بأنفسهن ما الذي دعاها لما صنعت وتقف هي شاهدة عليهن .

﴿وَقَالَتْ أَخْرِجْ عَلَيَّهِنَّ﴾ تعلم يقينًا نتيجة اللقاء ووقعه في عيونهن وقلوبهن، إنهن قد بلغن من الدناءة أنه لم يعد للحياء مكان في أحاديثهن.

﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ﴾ من يصطفيه الله يُلقِي الهيبة في وجهه، فما رآه أحد إلا انشرح له صدره، ومن العجيب اختلاف النظرات والتقدير، فنسوة المدينة هالهن ما رأين من جمال الخلق، أما ملك مصر حين رأى يوسف عليه السلام أول مرة هاله ما رأى من عظيم الخلق وحسن المنطق ﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ هكذا هي نظرات الناس، كل يبحث عن غايته.

﴿وَقَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ تحركت السكين فتجاوزت الفاكهة لتطال اليد التي تمسك بها، فطالمتها بالأذى. فأين إحساس الجلد بالسكين وهي تقطعه؟ لم يشعرن بالألم لانشغال قلوبهن بيوسف عليه السلام حين رأينه فتخدر الشعور.

﴿وَقَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ أكثر ما يقود الناس للهلكة هو إمعان النظر فيما لا يملكون، فرغم أن الإحساس بالألم يفوق جميع الأحاسيس الأخرى حتى أنه قد يوقف المرء عن طلب ما يسد به جوعه وعطشه عند الضرورة، إلا إنهن قد تجاوزن مرحلة الإحساس بالألم حينما رأين ما هو أكثر إلحاحًا على أبصارهن.

﴿وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا﴾ استدل النسوة بجمال الوجه وغلو الهيبة على جمال الروح وصدق السريرة حتى ظنن أنه ملك لا بشر عادي، فلما تمت مكيدتها، أصبح نسوة المدينة في نفس خندقها، أصابهن ما أصابها، لقد عبن عليها ثم أبتلين بجنس ما شمتن به .

﴿قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَنِي فِيهِ﴾ أتدري ما هذا؟ إنه وأد للفضيلة في أبشع صورها، إنه انتهاك لكرامة الإنسان، وماذا يبقى للمرء إن هو فرط في كرامته؟ كيف يمكن له أن يحيا بعدها؟ لقد كادت له ثم كادت لنسوة المدينة وكل هذا كانت تُدبره سرًّا، تُدبره وفي وجهها شيء من الحياء دفعها للدفاع عن نفسها أمام العزيز، أما الآن، لا عفة، لا حياء، لا كرامة، لتتطق بفحش اللفظ علانية ﴿لُْمْتُنَنِي فِيهِ﴾ ما عبتن علي فيه هو ما تطلبينه الآن.

﴿وَلَقَدْ رَاودَتْهُ عَنِ نَفْسِهِ فَأَسْتَعْصِمَ﴾ ما أروع اللفظ القرآني وهو يصف ثبات يوسف عليه السلام، يصف تمسكه بعقيدته وقيمه وأخلاقه وفضيلته، تمسكه بمروءته وإنسانيته، لا هزّة داخلية، لا تردد، لا خوف، بل ﴿فَأَسْتَعْصِمَ﴾ استعصم كله، القلب والجوارح، ظاهرًا وباطنًا، والمرء قد تصيبه بعض الهنات، بعض لحظات الضعف في حياته، في حينها عليه أن يلجأ إلى ركن الله، أن يردد بكل قوة (معاذ الله) أن يعبر عنها بالفعل مع القول .

﴿فَأَسْتَعْصِمَ﴾ ليس تمنعًا عاديًا إنما بالغ في إظهاره بكل صورة، فحين تقرأ اللفظ بهذه القوة ﴿فَأَسْتَعْصِمَ﴾ يقع في قلبك إحساس بشدة التمتع، شدة الرفض، شدة الإنكار، ليس إنكارًا عاديًا، ليس رفضًا عاديًا إنما استعصام كامل بالله ليحول بينه وبين مقدمات المعصية .

﴿وَلَقَدْ رَاودَتْهُ عَنِ نَفْسِهِ فَأَسْتَعْصِمَ﴾ استعصم قلبًا وقالبًا، إلى من يبحثون عن النصر ويتشدقون بشعارات التمكين، إلى من يتساءلون في كل حديث لم لا تنتصر هذه الأمة؟ إلى المتعجلين بلا أسباب، إلى المتعجبين من تأخرنا في كل مجال، الذي تهزمه الشهوة لا يمكن أن يتنصر في الحياة، الذي يريد أن يحرر أرضًا عليه أن يحرر نفسه أولاً، الذي يتنصر في ميدان النفس يتنصر في ميادين الحياة كافة

﴿وَلَقَدْ رَاودَتْهُ عَنِ نَفْسِهِ فَأَسْتَعْصِمَ﴾ أول السلامة صدق النية، فمن جعل الله وجهته سلمت نيته، من جعل وجهته لله وجه الله له الخير في كل طريق يسكله وفي كل نية يقصدها .

﴿وَلَقَدْ رَاودَتْهُ عَنِ نَفْسِهِ فَأَسْتَعْصِمَ﴾ محال أن تترك شيئًا لأجل الله وبأيتيك عوض عادي، بل يأتي العوض عظيمًا ليشعرك بعطاء الله .

﴿وَلَمَّا يَمْزِجْ مَاءَ امْرِئِهِ﴾ ما كان تلميحًا غدا تصرّيحًا، وما كانت تُسرّه غدت تعلنه، هكذا تفعل الشهوة بالنفس، تسلب منها كل عفة، كل حياء، كل فضيلة، من تأسره شهوة يصبح بلا عقل، حتى منطق اللسان غدا سبة لها .

﴿وَلَيْنَ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمُرُهُ لَيَسْجَنَنَّ﴾ هكذا مباشرة، بلا أي جريمة ارتكبتها إلا أنه قال (معاذ الله) وحين يكون من يلي الأمر بلا ضمير فلا تنتظر أي صورة للعدل، ابتزاز دنيء، استغلال للسلطة، إلصاق التهم جزافاً بلا بينة ولا دليل، ثم يتوج كل هذا الفساد بإصدار الحكم ﴿لَيَسْجَنَنَّ﴾ هكذا مؤكدة بنون التوكيد لعلمها يقيناً بسلطانها وقوة كلمتها، لعلمها أن بإمكانها أن تلقي به في غيابات السجون بأمر منها.

﴿وَلَيْنَ لَمْ يَفْعَلْ مَا أَمُرُهُ لَيَسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ بعدما رأت من نسوة المدينة ما رأت لم تعد بحاجة إلى تلميح لذا جاء كلامها تهديداً مباشراً صريحاً قوياً حافلاً بالمؤكدات باللام ونون التوكيد الثقيلة في ﴿لَيَسْجَنَنَّ﴾، لتؤكد ما هي قادرة على فعله، واللام ونون التوكيد الخفيفة في ﴿وَلَيَكُونَا﴾ أما إذلاله فخارج عن قدرتها.

﴿لَيَسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ تنطق هذه الكلمات وهي لا تزال عالقة بأمل تخويفه، بكسر ثوابته، بهزيمته في تمنعه، في عفته، في طهره ونقاؤه، هكذا كل ظالم لا يحسن إلا أن يهدد ويتوعد، ويظن أن البقية كحاله لا ثوابت عندهم يدافعون عنها.

قال تعالى ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ۖ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٣١ ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ۝٣٥﴾ [يوسف: ٣٣-٣٥]

نهاية طبيعية لهذا المشهد، يلجأ إلى ربه داعياً، راجياً، مقراً بضعف حوله وقوته، يلجأ إلى الله مسلماً مستسلماً، يلجأ إلى الله بقلبه وعقله وجوارحه، يختار تقييد حريته على معصية ربه، هذه هي الصورة المشرقة في حياة يوسف الشاب قبل أن يكون نبياً مرسلًا، وكل أحداث السورة إنما تظهر لنا بعض الجوانب من إحسانه، نجدها خاتمة كل مشهد من مشاهد القصة، نجدها حاضرة قوية في منطقته وفي تصرفه.

﴿السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ ما أروع اللفظ النبوي وهو يقر بقلّة حيلته، بانعدام بدائله، فلما لم يعد أمامه إلا السجن اختاره ليس كرهاً بل رضا، فما دام السجن خطوة يحفظ بها عقيدته ومروءته وأخلاقه لم ينظر لها نظرة غاضب مكروه، إنما نظرة راض بقضاء الله مستسلم له .

﴿السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ من يتصر في حربه مع نفسه يتصر في كل الميادين ، قال علي بن أبي طالب «ميدانكم الأول أنفسكم، فإن انتصرتم عليها كنتم على غيرها أقدر، وإن خذلتكم فيها كنتم على غيرها أعجز، فجربوا معها الكفاح أولاً»

﴿يَدْعُونِي إِلَيْهِ﴾ انتهى وقت قوة الألفاظ ، فالآن لا حاجة للتصريح، فاقصر على التلميح عفة وطهراً وحياءً، حتى في اللفظ العادي كان عفيفاً.

﴿قَصْرَ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ نبي كريم يعلن بكل وضوح أنه إنما يستمد قوته من إيمانه بخالقه، أنه بدون عون الله ومعيته فلا قوة تبقى، ولا ثبات يبقى ، ولا تمنع يبقى.

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ ليس هناك كثير وقت بين الدعاء والإجابة، يأتي العون بقدر الصدق في الدعاء. ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ ^(١)

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ﴾ لا يضام من كان ربه الله، لا يفتقر من كان ربه الله، لا يخيب رجاء من أحسن ظنه بالله، الذين يتركون حياتهم في يد الله سيرتب الله لهم حياتهم في أدق تفاصيلها حتى يروا يد الله في أبسط الأشياء قبل أعظمها.

في الحديث أن النبي ﷺ قال «لَيْسَ أَلْأَحَدُكُمْ رَبُّهُ حَاجَتُهُ حَتَّى يَسْأَلَهُ الْمَلِكُ وَحَتَّى يَسْأَلَهُ شَيْعُ نَعْلِهِ إِذَا انْقَطَعَ» ^(٢) حتى أبسط الأمور إن لم يُسرّها الله فلن تيسر .

﴿فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ﴾ أتدري كيف كانت الاستجابة؟ كانت بدخوله السجن . ليس كل مصيبة بلاء ، فقد يكون اللطف في قلب الابتلاء .

١ [النمل : ٦٢]

٢ سنن الترمذي (٣٩٦٣)

المشهد الثالث «من ظلمات السجن إلى قصر الملك»

قال تعالى ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٌ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنْ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي ابْرَهِيمَ وَاسْحَقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نَشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [يوسف: ٣٦-٣٨]

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٌ﴾ أيما كان البلاء الذي نزل بك فإنك قد تجد من يشاركك فيه، دخل يوسف عليه السلام السجن فدخل معه فتيان، أحداث في ظاهرها عابرة لكنها كانت نقاطاً فاصلة في حياته، أما صاحب السجن فلم يدر بخلدهما أنهما سيكونان ركيزة في تفاصيل حياة نبي مرسل.

﴿وَدَخَلَ مَعَهُ﴾ معه لا قبله، لا بعده، رافقاه منذ بداية المحنة، يبعث الله بواذر الفرج، صاحباه في السجن، ثم كان أحدهما سبب خروجه منه، فحتى إن بدت بعض الأقدار مؤلمة فبداخلها رحمة قد لا نعرفها في حينها.

﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ هكذا مباشرة دون أي تفاصيل سابقة لأحداث جانبية، يعرض لنا القرآن الجانب الأساسي في الحوار، بعض الأحاديث لا جدوى منها، وهذا يعلمنا أن نترفع عن الخوض في أحاديث لا طائل منها.

﴿نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنْ الْمُحْسِنِينَ﴾ حديث جديد عن الإحسان الذي لازمنا منذ بداية القصة، حديث يمتد في أوصال السورة منذ بدايتها، يشهدون له بالإحسان وهو سجين، والسجن كالمرض يُشعر المرء بضعفه وقلة حيلته، إن يوسف عليه السلام لم يحتاج إلى عقد مناظرات أو أن يخوض جدالاً أو نزاعاً فكرياً، إنما قدم عقيدته نقية شفافة في أخلاقه وتعامله، لذا رآها كل من تعامل معه، رآها رؤية لا تشوبها أي شائبة.

﴿إِنَّا نَزَّلْنَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ إحسان رأوه في قسّمات وجهه، في ألفاظه، في أخلاقه، في تعامله، في ملاحظه، فكان إحسانه مفتاح دعوته، فَاسَّرَ به أفئدة كل من تعامل معه، وكذا دأب صادق الإيمان يرزقه الله القبول في قلوب عباده، يأنسه كل من تعامل معه، ويألفه كل من رأى وجهه.

﴿إِنَّا نَزَّلْنَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ الإحسان مصدر الفعل «أحسن»، أي جاء بفعل حسن ويعني مراقبة الله في القول والعمل، وهو مقابل الإساءة ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(١).

﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾ عودة أخرى لروعة الألفاظ، للطف العبارة، للإعراض عن حديث لا جدوى منه، إنه يوسف عليه السلام الذي تعلمنا أن نرفع عن الدنّاءات، عن الكلام الذي لا يخدم قضيتنا الأولى والأساسية، رغم كل ما مربّه لكنه لم يتحدث مع صاحبي السجن عما فعله إخوته، عمن ساقه إلى السجن معها، لم يتحدث عن فواجع الأيام، رسالة إلى كل من ضاقت عليه الدنيا بهومها وغلبته، تحدث عن الله لا عن همومك، تحدث عن نعمه وفضائله لا عن الابتلاءات وأسبابها، تحدث عن الفرج لا الضيق، عن الخير لا الشر، عن رحمات الله لا نكبات الأيام.

﴿ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾ الفضل دائماً لله، لا للذكاء ولا الموهبة، لا تنسب الفضل لكفاحك وتعبك واجتهادك، إنما هو من عطاء الله، من فضل الله، من كرم الله، والذي لا يرى ما بين يديه من النعم فقد جحد بها.

﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ يسألانه عن تفسير رؤيائهما فيجيبهما عن وحدانية الله المستحق للعبادة دون سواه مما يعبد البشر، والذي يحمل همّ دعوة، وهمّ قضية، وهمّ رسالة يريد إبلاغها سيجد مدخلاً لرسالته في كل حديث، ﴿قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ﴾ فالطعام الذي يُساق إليكما هو رزق يسوقه الله إليكما.

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ليس أمراً جديداً أبتدعُهُ إنما هو هدي إلهي أتبعُهُ، ولست في هذا الدرب مستحدثاً إنما أنا تابع لمن سبقني بالسير فيه.

﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾ لا تزال تلك الخاطرة تتكرر معنا، يمتد التذكير بأفضال الله في أوصال السورة، دائماً ما تجده يُرجع الله كل فضل، عطاء الله في توفيقه له، في الربط على قلبه مع أمواج الفتن والمحن التي لازمته، في هدايته فلا يركن ولا يلجأ إلا لله، في نصره وتأييده، في اللطف به إذ آواه وقد هجره إخوته، أَمَنَهُ في خوفه، ثَبَّتَهُ في ابتلائه.

﴿ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ﴾ حتى العبادة التي تؤديها إنما توفيق من الله لك، وحين نعبد الله لا يجب أن تكون عبادتنا حركات تؤدي، فلن تجد أثر العبادة إلا إذا ارتبطت بها كل جوارحك وتفاعلت معها كل مشاعرك، فلا ترى فيها مشقة بل تجد في كل عبادة تؤديها روحاً تتعافى وقلباً يطمئن وقلقاً ينهزم.

﴿وَعَلَى النَّاسِ﴾ يجيب المضطر وإن كان كافراً بوجوده، يرزق المؤمن والكافر، يوفر مقومات الحياة للبر والفاجر، فالؤمن يتنفس والكافر يتنفس، أما أعظم فضل يجود الله به على عبد من عباده هو الإيمان به، العبودية له، ربما لأننا ورثنا الإسلام أباً عن جد لم يلفت انتباهنا يوماً هذا الفضل، لكنني أخبرك أن هذا الفضل -فضل العبودية لله- قد سألَه نوح عليه السلام لابنه، وإبراهيم عليه السلام لأبيه، ومحمد عليه السلام لعمه ولم ينله أي منهم، فأَيُّ فضل بعد الإيمان بالله؟ وأي عطاء يعطيه الله لعبده أكثر من أن يعرف الله ربه؟

﴿وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ في عشرين آية من القرآن جاءت (أكثر الناس) ثم جاء بعدها (لا يشكرون، لا يعلمون، لا يؤمنون...) بعض القضايا لا يهتم فيها العدد، لا يهتم أن تكون مثل البقية، الذي يصنع الفارق أن تكون على الدرب الصحيح ولو كنت وحدك.

قال تعالى: ﴿يَصْحَبِي السَّجَنُ ۖ أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ ۚ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝٣٩ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ ۚ إِلَّا أَسْمَاءَ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاءُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۚ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٠ يَصْحَبِي السَّجَنُ ۖ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَدِّبُ ۖ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ ۚ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ۝٤١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ۖ فَلَبِثَ فِي السَّجَنِ بِضْعَ سِنِينَ ۝٤٢﴾ [يوسف: ٣٩-٤٢]

﴿يَصْحَبِي السَّجَنُ﴾ لا تميز ولا تفاضل، إنما جمعنا فواجع الزمان بهذا المكان فكان اللطف والتودد وسعة الصدر وجمال اللفظ عنوان الحديث.

﴿يَصْحَبِي السَّجَنُ﴾ ما شعورهما وهما يستمعان لهذه الكلمات من يوسف عليه السلام؟ يتخذها صاحبين، الذي يحمل همّ دعوة لا تشغله تصنيفات البشر الطبقية، لا يتلفت لقضايا جانبية، لا يسرف في الحديث عن نعي الحظوظ، عن إخوته وما فعلوه، عن امرأة العزيز وكيدها به، لقد طرح كل هذا جانباً وانشغل بقضيته الأولى ﴿أَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ ۚ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ هذه هي قضيته التي من أجلها يصارع الشّرك بكل قواه .

﴿يَصْحَبِي السَّجَنُ﴾ صاحب القضية لا يمل من عرضها كلما أتيحت له الفرصة، وصاحب الدعوة يجد دائماً متسعاً لها، هكذا وجدنا يوسف عليه السلام وهو مملوك في القصر، وهو سجين خلف القضبان، وهو عزيز على كرسي الحكم .

﴿الوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ واحد لا شيء يماثله، قهار قهر كل الخلق بالموت، قال السعدي: " كل مخلوق فوقه مخلوق يقهره، ثم فوق ذلك القاهر قاهر أعلى منه، حتى ينتهي القهر للواحد القهار، فالقهر والتوحيد متلازمان متعينان لله وحده " (١).

﴿أَنْتُمْ وَعَابَاؤُكُمْ﴾ دعوات الرسل في كل الأزمنة إنما تسعى لتحرير عقول البشر من القيود التي تُكبّل حريتها وحققها في التفكير، إنها تسعى لقيام تغيير فكري ومعنوي يحرر الأفراد والأمم من الموروثات الفاسدة بغية قيام حضارة جديدة على تصور حقيقي لحرية الإنسان ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ عَابَاءَنَا أُولَٰئِكَ كَانُوا عَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ (١)

﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ قال أبو العالية في تفسيرها «أُسِّسَ الدين على الإخلاص لله وحده لا شريك له» (٢) الحكم بما أنزل الله، بما فرض الله، بما اختار من عبادات ومن أحكام تُنظم حركة الخلق، هذا معنى العبودية الحقّة، وبهذه العبودية تُكتسب الحرية، وبهذا الذل تُرتقى درجات العز، وبمقدار الخضوع تكون الرفعة، إذا أحسن المرء العبادة وأخلصها ترقّى في درجات الكمال الإنساني، وأصبح لحياته قيمة، وصار لعمله لذة، ولئن كان الغنى غنى النفس فإن الحرية حرية القلب كما أن الرق رق القلب، أما الاحتكام لغير ما اختار الله من أحكام فهو تنحية للعبودية لله، وإن لبس فاعله لباس الوعظ والتجديد.

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا﴾ نبي كريم يؤول الرؤيا ولم يقطع بحدوث تأويله، خاطرة إلى الذين يتصدرون لتفسير الرؤيا، لا تجزم بصحة ما تعتقد إنها هو ظن قد يصدق. ذكر الطبري في تفسيره أن قتادة كان يُفسّر الظن هنا الذي هو خلاف اليقين، قال قتادة: إنما عبارة الرؤيا بالظن، فيحَقُّ الله ما يشاء ويُبْطِل ما يشاء، وقال أبو جعفر: وهذا الذي قاله قتادة، من أن عبارة الرؤيا ظن، فإن ذلك كذلك من غير الأنبياء. فأما الأنبياء فغير جائز منها أن تخبر بخبر عن أمر أنه كائن ثم لا يكون.

﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يوصي صاحبه في السجن الذي كان تفسير رؤياه أنه سيكون ساقى الملك ألا ينسى ذكره عند الملك، لكن أي ذكر يُريد من صاحبه أن يذكره؟ دخوله السجن ظلماً؟ أم صدق تأويل رؤياه؟ كلاهما يقبله المعنى.

١ [المائدة: ١٠٤]

٢ تفسير الطبري - سورة يوسف - آية ٤٠

عن ابن إسحاق أن يوسف عليه السلام قال له « اذكر للملك الأعظم مظلمتي، وحبسي في غير شيء. قال: أفعل » (١)

﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ الاستفادة من الفرص بالقدر المتاح درس تعلمنا إياه يوسف عليه السلام، فسر الرؤيا ثم همس لصاحبه أن تحدث عني بخير إن أُتيحت لك فرصة. الأخذ بالأسباب لا ينافي التوكل، فالتوكل عمل القلب، والأخذ بالأسباب عمل الجوارح، فمن عطل الأخذ بالأسباب كان هناك لبس في توكله، ومن ترك التوكل واعتمد على الأسباب كان هناك لبس في إيمانه.

﴿فَلَيْتَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ خرج صاحبه، عاش حياته، نسي أو تناسى أيام محنته، بعض النفوس تغلبها الدنيا، تندفع كلها فلا تلتفت لما مضى، لا تلتفت لأشخاص كان لهم عليهم فضل، فكان ثمن النسيان سنين من حياة يوسف عليه السلام في ظلمات السجن، قصة تعلمنا كيف هو لطف الله وتدبيره، لم يذكر الرجل شيئاً عن يوسف عليه السلام بعدما خرج من السجن، وربما لو ذكر في غير حاجة الملك له ما كان ليهتم بالأمر، فساق الله الرؤيا للملك ليحتاج إلى من يؤلها.

﴿فَلَيْتَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ بعض الأمنيات نظل متمسكين بها تعجز يد اليأس أن تعبت بها حتى نراها رأي العين وإن طال انتظارنا، صاحب السجن خرجاً أولاً، واحد يُقتل والثاني ليخدم الملك وتأخر يوسف عليه السلام في السجن سنين ثم خرج عزيزاً.

﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ نأخذ بالأسباب لكننا لا نتعلق بها، إذا نزل بنا أمرٌ نرفع إلى الله لا إلى الناس.

﴿فَلَيْتَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ المؤمن يجتاز الصعاب بلطف الله لا بقوة تحمله، ففي كل مرة تتسع لنا الحياة إنما تتسع بحسن الظن بالله، نخذلنا المواقف والأشخاص ويساندنا لطف الله.

١ تفسير الطبري (١٣/١٦٩)

﴿ فَلَيْتَ فِي السِّجْنِ بِضَعِ سِنِينَ ﴾ يكفيك من نعيم الحياة أن يملأ اليقين قلبك بأن أقدار الله أصلح لك من أمنياتك، وأن عطاياه على قدر حُسن ظنك به، وأن الأمنيات العالقة في خبايا النفس يُدبّر الله أمرها بحكمة ، فإذا ما ارتوى القلب بهذا اليقين رأى أحداث حياته كلها خير.

قال تعالى ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضِرٍ وَأُخْرَى يَابِسَاتٍ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَفْتُونٍ فِي رُءْيَايَ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ ٤٣ ﴿ أَضَعْتُ أَحْلَمَ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَمِ بِعَلِيمِينَ ﴾ ٤٤ ﴿ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾ ٤٥ ﴿ [يوسف: ٤٣-٤٥]

مشهد جديد في القصة، مشهد مختلف تماماً ينتقل بيوسف عليه السلام الفرد العادي إلى المصلح الداعية، مشهد يرتقي بالأحداث لذروتها، من محن فردية إلى ابتلاء جماعي، من شخص مضى كل ما فات من عمره في جهاد وصبر على صنوف شتى من الابتلاءات ، إلى جهاد جديد وهو يحمل مصير أمة من الأمم، الداعية النبي الوزير الذي يحمل همّ أمة بكاملها، يحمل مسئوليتها ومستقبلها، يحمل أمنها وأمانها الذي يرتبط مباشرة ببقائها أو بفنائها.

﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى ﴾ مفاتيح الفرج لا تنقطع، نَجَّى الله موسى عليه السلام بعاطفة ألقاها في قلب زوجة فرعون فقالت ﴿ قَرَّتْ عَيْنِي لِي وَلَكَ ﴾ ^(١) ونَجَّى الله يوسف عليه السلام برؤيا ساقها للملك في نومه ﴿ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى ﴾ ، من آوى إلى ركن الله آواه، ومن سوى الله ناوى إليه؟

﴿ أَفْتُونِي فِي رُءْيَايَ إِنْ كُنْتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴾ حاشية الملك وصفوة المجتمع، ومع ذلك يستوثق من فهمهم للأمر ، العلم ليس بالمكانة ولا الوجاهة إنما هو فضل يَمُنُّ الله به على من يشاء ، فرؤيا الملك عجز الصفوة عن تأويلها، وأولها مظلوم في غياهب سجن .

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى﴾ جانب آخر من القصة جاء ليُعلمنا كيف تكون القيادة ، ليس وقت الرخاء فحسب إنما في وقت الشدة ، كيف يكون دأب القائد على أمة من الأمم في وقت جدها ومحنها؟ وكيف يكون الثبات وقت النوازل؟ ففي الرخاء كل الناس قادة، كل الناس يُحسنون التخطيط والإدارة ، كل الناس في الرخاء عظماء وسادة . قال الحسن البصري :استوى الناس في العافية، فإذا نزل البلاء تباينوا .

﴿قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ﴾ حال الله بينهم وبين مجرد التخمين، أغلق عليهم منافذ البصر والبصيرة، رغم أنهم مع جهلهم بتأويلها إن أولوا أي قول كان سيقبله الملك ، هكذا هي معية الله لعباده، يُرسل الرؤيا في ظلمات الليل للملك ويحول دون تأويلها عن أبصار الحاشية في وضوح النهار .

﴿قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ﴾ كل من يتصدر لأمر لا يُحسنه أول ما يخطر بباله هو التقليل منه، هذه ليست رؤيا بل أضغاث أحلام، إنها شيء لا قيمة له لتشغل حتى بتفسيره. ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالِمِينَ﴾ حين يتصدر الأمر من ليس له أهلاً تكون الهلكة، وحين نعتز بالعجز يأتي للشدة من هو لها أهل .

﴿وَأَذْكُرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ تذكّر بعد نسيانه، تذكّر حين استدعت الحاجة، تذكر مضطراً ولو بعد حين ، نسي حينما لم يكن في تذكّره فائدة ليوسف عليه السلام، وتذكّر حينما كان في تذكّره له عزة وتقدير ، هكذا يكون تدبير الله (يُدَبِّرُ الْأُمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ) فإذا ما استوعب القلب دلالات تدبير الله لأمره عاش ما بقي من حياته آمناً مطمئناً.

﴿وَأَذْكُرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ ليس في حينها، ولم يُعلّق يوسف عليه السلام خطط حياته على أمل أن يذكر أمره عند الملك، بل أمضى حياته داعياً ، مفوضاً أمره لله، فالأحداث التي لا دخل للمرء بها من الإيمان أن يفوض المرء أمرها لله، لا يُجهد فكره في البحث عن الأسباب ، قد تكشف الأيام بعض أحكام تدبير الله لها. إذا تغير مسار حياتك بأسباب لا دخل لك فيها فاعلم أنه تغيير يحمل خيراً، قد يتأخر لكنه آت.

﴿أَنَا أَنْتُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ فأرسلون، قالها بكل ثقة لما يعلم من شأن يوسف عليه السلام، هكذا يصنع الثبات على القيم والمبادئ، حتى الحديث عنه بظهر الغيب تملؤه الثقة. قال ابن كثير: "وكان يوسف عليه السلام قد اشتهر في السجن بالجود والأمانة، وصدق الحديث، وحسن السمات، وكثرة العبادة، ومعرفة التعبير، والإحسان إلى أهل السجن، وعيادة مرضاهم، والقيام بحقوقهم"

قال تعالى ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف: ٤٦-٤٩]

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ أيها الصديق لا أيها السجين، لا أيها المتهم، لا أيها الرجل، بل الصديق، صفة لم ينتزعا منها أو يفرضها عليهم، إنما جسدها فعلاً لا قولاً، لذا لا عجب أن ينطق بها ساقى خمر، إنه الصدق.

﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ﴾ يعلم ساقى الملك في أي قضية قد سُجن، ليس بحاجة إلى أن يستمع إلى قرائن براءة من يوسف عليه السلام، فمن كانت هذه خصاله فليس بحاجة إلى إلقاء قرائن براءته على كل عابر، إنما نطق طيب خصاله براءته، فراه ساقى الخمر صديقاً لأنه يعلم في أي قضية قد رُجَّ به في غيابات السجون

﴿أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ﴾ لم يُغير شيئاً في ألفاظ الرؤيا، لم يضيف لها بصمة إبداع خاصة، إنما أخذها من لسان الملك أوصلها إلى أذن يوسف عليه السلام كما هي. في بعض الحرص خير.

﴿لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ يعلمون تفسيرك للرؤيا، ويعلمون فضلك ومكانتك، كلاهما يستحق أن يعلمه الناس، وصاحب السجن يحكي بثقة لأنه جَرَّب يوسف عليه السلام، جربه في التعامل وفي تأويل الرؤى.

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا﴾ مباشرة يُعبّر الرؤيا، لم يدخل في تفاصيل جانبية، لم يعاتبه على السنوات التي مضت ونسي أمره فيها، إنه استسلام القلب والقلب لقضاء الله، فما جدوى اللوم والعتاب. الذي يرضى قلبه بقضاء ربه يؤنس الله وحشته، في بعض العتاب هدر للطاقات واستنزاف للمشاعر وفي التغاضي خير كثير .

قد تمر بالمرء مواقف تجعله يجبئ في داخله كثيرًا من كلمات العتاب، ثم إذا ما جاءت له فرصة إخراجها لم يجدها، ترفع النفس عن حديث لا جدوى منه، عن عتاب لا حاجة لنظرات الاستعطف بعده.

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا﴾ تزرعون كعادتكم، لن يتغير شيء في البداية، إنما التغير يأتي لاحقًا، والابتلاءات التي تأتي لأمة من الأمم لا تدهمها بغتة إنما تكون لها بعض الأمارات، ففي نزول البلاء بغتة إفساد للحياة، وما خلق الله الخلق ليفنيهم إنما كان استبقاء النفس ركنًا أصيلاً في كل شرائع الله.

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا﴾ حين تكون النازلة عامة فإن الاحتراز قبلها والتدبير وقتها مسئولية الدولة، الفرد إنما هو تابع لما يراه من يلي أمره، لذا كان تطبيق ما أوله يوسف عليه السلام يعتمد بالأساس على تطبيق الملك له، تقليل الاستهلاك العام رغم أن عامة الشعب لم يروا أي بادرة للقحط إنما يزرعون كعادتهم، خاطرة إلى كل مسئول عن رعية أن يأخذ بالاحتياط دائماً واستبقاء ما يحفظ للناس بقاءهم وقت النوازل إن داهمتهم.

﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ﴾ في الأزمات ليس على المرء أن يتصرف كما يتصرف في الرخاء، لابد من قيود للاستهلاك، للإنفاق، للتنقل والحركة، وعلى المرء أن يفهم أن الخير وقت الأزمة في الاتباع لا الابتداع .

﴿فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾ تنازلوا عن غرائز حُب الإنفاق والاستمتاع بكل ما بين أيديكم، اتركوا شيئاً تستقوون به على قادم الأيام، حين تُبْسَط لك الدنيا لا تنجرف خلف شهوة الإنفاق.

﴿فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ﴾ يخبرهم بهذا وهو الذي نشأ أيامه الأولى في البادية ولا معرفة له بالزراعة وشئونه، ثم في بيت العزيز ولا معرفة لصفوة المجتمع وأهل الحكم بتفاصيل الزراعة وأن بقاء البذور في سنبلها يُبقيها صالحة فترة أطول من استخراجها منها، لقد ذكره يوسف عليه السلام مبكرًا جدًا في تفاصيل الأحداث قبل أن يخرج وقبل أن يلي أمر الناس، وهل ما قاله لا يعرفه أهل مصر وهم أهل زراعة؟

لقد جاء تأويل الرؤيا بتفاصيل تُخبر مستمعها (الملك) أن من قالها ليس شخصًا عاديًا، ليس متمرسًا في أمور الزراعة فحسب، إنما أمور الإدارة والتخطيط والقيادة أيضًا، لذا سوف نرى ثمار هذه التفاصيل حين يطلب يوسف عليه السلام أن يكون عزيز مصر فيقابله الملك بقبول لا تردد فيه، بثقة لا شك فيها .

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعُ شِدَادٍ﴾ هكذا مباشرة، يريدون أن يستشعروا خطر الأمر وشدة، إنهم شركاء فيه، نعم أنتم الآن في رخاء إنما بعدها سنون شدة، الذي يريد الصلاح العام لا يعرف المجاملة ولا النفاق إنما يعتمد على الصراحة والصدق كي يصبح الكل في المسؤولية شركاء .

﴿يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ﴾ الذي ستقدمونه في الرخاء ستجنون ثماره في الشدة. إن الشدائد لن تخطئ أحدًا، وإن خير ما تلقى به الشدائد معرفة الله في الرخاء، ليس فيما ينصلح به أمر دنياك فحسب بل حتى في صلاح أمر دينك، قال رسول الله ﷺ (مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ اللَّهُ لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالْكَرْبِ، فَلْيَكْثِرِ الدُّعَاءَ فِي الرِّخَاءِ)^(١) .

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعُ شِدَادٍ﴾ سبع شداد لكنها مشمولة بلطف الله، فما جاءت الشدة إلا وقد سبقتها سنوات خير ورزق وفير، وما جاءت الشدة إلا وجاءتهم رؤيا الملك وتأويل يوسف عليه السلام .

(١) صحيح الجامع (٦٢٩٠) ورواه الترمذي والحاكم، وقال الحاكم: صحيح، وأقره الذهبي، وحسنه الألباني في صحيح الجامع.

﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ﴾ عام واحد يمحو الله به قسوة سبع سنين، هكذا هو عطاء الله.

﴿فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ تأتي المنح بعد المحن، ويأتي اليسر بعد العسر، ويأتي الفرج بعد بلوغ الشدة أقصى درجاتها، أيًا كان الضيق الذي يحيط بأسوار حياتك ستجد رحمت الله تتسلل إليك لتربط على قلبك فلا يجزع، تربط على قلبك فلا يقنط.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِي بِهِ؟ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ قَالَ مَا خَطْبُكِ إِذْ رَوَدْتَنِي يُوسُفَ عَنْ نَفْسِي قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْقَنْ حَصَّصَ الْحَقُّ أَنَا رَوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥٦﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٧﴾ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِي بِهِ؟ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٩﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾﴾ [يوسف: ٥٥-٥٩]

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِي بِهِ؟﴾ ربما جذب انتباهه دقة التأويل وغرابته، وربما أراد أن يستوثق من التأويل بنفسه فيسمعه مباشرة، وفي كلا الأمرين نرى انبهار الملك وهفة اللقاء بصاحب التأويل، العلم دائماً يرفع من شأن صاحبه، العلم دائماً يضع صاحبه في المكان والمكانة التي تليق به.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلْهُ﴾ قالها يوسف عليه السلام لرسول الملك حين جاءه ليخرجه، وقد قال أول الأمر لصاحبه بالسجن ﴿أَذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ﴾ لم يعد يتعجل الخروج فالشدائد تبدأ قوية الأثر في النفس لكنها تلين مع الوقت، حتى نظرنا للأمور يغيرها الزمان.

﴿قَالَ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ﴾ دعاه الملك إلى مجلسه فأبى قبل أن تثبت براءته، ليست كل الدعوات تُقبل ويستأنس بها، فالشدة مع الثبات خير من الرخاء مع التنازلات.

﴿ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ يقولها سجين لرسول ملك يحكم الدولة، لم يتعجل الخروج من السجن قبل أن تظهر براءته مما رُمي به، يريد أن يخرج بلا شائبة تنال منه، بلا نظرة لنفس ضعيفة تنتقص منه، يريد أن يخرج حرًا عزيزًا، لذا أبى الخروج حتى تُقَرَّ النسوة بما سمعن من امرأة العزيز، إنه يعفو ويسامح لكنه عزيز النفس يأبى خروجًا به نقیصة إنما يريد خروجًا كله عزة ورفعة .

﴿ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾ أثنى النبي ﷺ على شدة صبر يوسف عليه السلام وعدم تعجله الخروج من السجن بعدما جاءه رسول الملك فقال ﷺ « رَحِمَ اللَّهُ أَخِي يُوسُفَ لَوْ أَنَا أَنَايَ الرَّسُولُ بَعْدَ طُولِ الْحَبْسِ لَأَسْرَعْتُ الْإِجَابَةَ حِينَ قَالَ : ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ ^(١) »

﴿ فَسَأَلَهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ عفة الألفاظ لم تغب عن منطق، لم يذكر تفاصيل كيد امرأة العزيز له، لم يذكر كيد نسوة المدينة له، إنما ذكر ما يدفع الملك لتقصي الأمر برمته حين يسمع أن نسوة قطعن أيديهن، أتى بغريب الخبر ليحرك الفضول لديه في البحث والتقصي .

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتَنِّي يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ أخذ تفسير الرؤيا من نفس الملك كل مأخذ، لذا تابع أمر تقصي الحقيقة بنفسه، ولم يكلها لأي من أتباعه، ونرى هذا في لغة الحوار والحديث عن يوسف عليه السلام وهو لا يزال سجينًا ﴿ مَا خَطْبُكُنَّ ﴾ ماذا صنعتن بهذا الكريم العفيف؟ ﴿ إِذْ رَاوَدْتَنِّي يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ﴾ هكذا يقولها الملك مباشرة، ليس تلميحًا بل تصريحًا، وما كان ليقولها هكذا مباشرة إلا وقد استوثق قبلها من صدق براءته، من كيدهن به، من سوء استغلال للسلطة من العزيز الذي ألقاه في السجن ظلمًا ليرضى زوجته .

﴿قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ﴾ نسوة المدينة يتحدثن الآن عن عفته وطهره وبراءته، بعض النفوس لا يردعها سيف العقل والعدل، إنما يردعها سيف القوة والسلطان، ففي حضور الملك كل الأحاديث تغيرت، أصبحن يدافعن عمن مُكر به وألقي ظلمًا في السجن بضع سنين.

﴿قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ اَلْقَن حَصْحَصَ الْحَقُّ اَنَا رَاوِدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ﴾ حتى من بدأت بإشعال نار المكيدة تخلت عن كيدها ومكرها، تخلت ربما بوزاع الضمير وربما بوزاع السلطان وهيبة الحضور وأن لا جدوى لمزيد من الإنكار، كلاهما وارد، لذا لم تجد بدءًا من الاعتراف بخطئها، بظلمها له، ولا أدري إن كان بوزاع الضمير فأين كان طوال سنوات سجنه؟ بعض الحقائق يأبى الله إلا أن تظهر على أعين الناس لينصف بها مظلومًا قد دعا في ظلمات ليل طويل أمضاه في سجنه ظلمًا.

﴿وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ يا لروعة الوصف، ويا لشار العفة، إنه من الصادقين تُعلنها بكل وضوح، بلا تلميح أو تورية، تُعلنها على مسامع الملك وحاشية الملك ونسوة المدينة، إنه من الصادقين، وكأني بالملك قد هاله ما يسمعه، أي شخص هذا الذي تحمّل كل هذا الكيد والظلم وهو من هو في العلم والفضل؟

﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ لا بد للحقيقة أن تنكشف وإن طال زمان كتمانها، لقد استسلمت امرأة العزيز لذا لم تجد بدءًا من الاسترسال بالحديث عن الإقرار بالخطأ والتقصير، لقد استسلمت لما رأت علو شأن يوسف عليه السلام حتى وهو في ظلمات السجن ينتفض لنصرته ملك الدولة وحاشيته، أيقنت أنها لم تتهم شخصًا عاديًا إنما رجل جند الله لنصرته حتى الملك.

﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ من الذي يعلم؟ زوجها أم يوسف عليه السلام؟ كلاهما يقبله المعنى، قد تقصد زوجها الذي بحكم منصبه اطلع على تفاصيل تقصي الملك للحقيقة، وقد تقصد يوسف عليه السلام وقد غلبها صدق مشاعرها تجاهه فدفعها لأن تنصفه وتخطي نفسها أمام الملك.

﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ قال ابن تيمية: " فهذا كله كلام امرأة العزيز ويوسف عليه السلام إذ ذاك في السجن لم يحضر بعد إلى الملك ولا سمع كلامه ولا رآه ؛ ولكن لما ظهرت براءته في غيبته - كما قالت امرأة العزيز: ﴿ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ﴾ أي لم أخنه في حال مغيبه عني وإن كنت في حال شهوده راودته - فحينئذ ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْنِي بِهِ؟ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي﴾

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ إقرار تام بالخطأ، لا ادعاء بسلامة النفس من حظوظ الهوى والشهوة، فالنفوس التي تغلبها الشهوة لا تستقيم معها الحياة، سلطان الشهوة يأخذ بلجام عقل صاحبه إلى مزيد من الانحطاط في الخلق.

بهذه الكلمات انتهى مشهد امرأة العزيز في أحداث القصة التي رويت، أما قصتها فكاننا تستنتقنا لنخبر كل ظالم أن الله ليس بغافل عنه، ولنخبر كل عاص أن هناك دائماً فرصة للرجوع، للتغيير، للتطهر .

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْنِي بِهِ؟ أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي﴾ في البداية بعدما سمع تأويله للرؤيا قال ﴿أَتُؤْنِي بِهِ؟﴾ وبعدها عرف تفاصيل القصة وعلم فضله زاد عليها ﴿أَسْتَخْلِصُهُ لِنَفْسِي﴾ أستخلصه ليس لعلمه فقط، إنما لسمو أخلاقه، فسنوات العمر التي ضاعت في غيابات السجن لم تغير في رقي أخلاقه شيئاً، لا مكان لرغبة في انتقام، لا مكان لثأر ولا سخط ولا تدمير، بل فوق كل ذلك يُقدم الرأي والمشورة لإنقاذ المجتمع بكامله، حين يكون البناء النفسي سليماً من الحقائق تأتي الأفعال دائماً منزهة عن كل صور النقائص.

﴿فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ من غيابات الحب في صحراء قاحلة إلى قصر الملك في دولة ضاربة في أعماق التاريخ قوة وحضارة، مهما فقدت في الحياة فلا تفقد حُسن الظن بالله. فمما يُعين المرء على تجاوز صعاب الحياة هو التفكير في أنها إرادة الله، واختيار الله، وأقدار الله التي دائماً ما تأتي مشمولة باللطف، وأن الله إذا كلّفك كفلك، وإذا ابتلاك أعانك، ولن يُكلفك إلا قدر طاقتك.

﴿مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ إنك من اليوم لدينا مكين ذو مكانة ومنزلة ، وأمين على خزائن الأرض تكون تحت تصرفك .

﴿قَالَ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ قال الزمخشري في تفسيره: « وإنما قال ذلك ليتوصل إلى إمضاء أحكام الله تعالى وإقامة الحق وبسط العدل ، والتمكن مما لأجله بُعث الأنبياء إلى العباد ، ولعلمه أن أحداً غيره لا يقوم مقامه في ذلك ، فطلب التولية ابتغاء وجه الله لا لحب الملك والدنيا »^(١)

﴿إِنِّي حَفِيزٌ عَلِيمٌ﴾ حفيظ على المال، عليم بوجوه مصالحه، حفيظ أحفظ الحقوق وأرعاهما، عليم أحسن التصرف فيما تقتضيه المصلحة، ليس الأمانة فحسب، إنما أيضاً معرفة ودراية وخبرة في التصرف، خاطرة إلى كل صاحب عمل، الاختيار بالأمانة دون الخبرة ضياع للعمل، والاختيار بالخبرة دون الأمانة ضياع للحقوق، فالتوجيه القرآني هنا يقوم على ضابطين (الأمانة) كضابط أخلاقي، و(العلم) كضابط معرفي.

﴿إِنِّي حَفِيزٌ عَلِيمٌ﴾ ليس بالنسب وهو سليل بيت النبوة، ولا بالجمال وقد أوتي شطره، إنما بالأمانة والمعرفة، مساكين هم من يعتقدون أن المجد يرثه المرء كما يرث ثياب أبيه ، أو أنه قد يناله بالمظاهر الخادعة .

قال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ وَلَا جَزَاءَ إِلَّا خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ [يوسف: ٥٦-٥٧]

﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ﴾ انظر أين مكانها في تتابع الأحداث، في المنتصف بين الابتلاءات والعطاءات، وإن كانت عطاءات الله لم تنقطع، لكنها هنا مباشرة قوية.

﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ﴾ مكنا له بعد السجن أن يصير عزيز مصر، وحين نتابع العرض القرآني لتتابع الأحداث نجد أن القرآن يريد من الفرد المؤمن أن يرتقي إلى مستوى تحقيق العبودية الحققة لله، أن يرتقي إلى مستوى حُسن الظن بالله، أن يرتقي إلى مستوى تطويع أقواله وأفعاله إلى مراد الله. إلى ذاك المستوى الذي يكون مقياسك للأمور ثابتاً لا تغيره النوازل سواء اتَّفَقَتْ مع مرادك أم لا .

المشهد الرابع «مع إخوته من جديد»

قال تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ قَالَ أَتُنُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِّنْ أَيْكُمُ الْآلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ٥٩﴾ فَإِنْ لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ٦٠﴾ قَالُوا سُرُودٌ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ٦٢﴾

[يوسف: ٥٨-٦٢]

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ﴾ إخوته من جديد، بدأت القصة معهم وتُحْتَمُّ أحداثها معهم، قد يسلم المرء من مخاطر كبيرة يقابلها، وتقصمه يدُ كان من الأجدر أن يتقوى بها. ﴿فَعَرَفَهُمْ﴾ عرفهم بمجرد أن رأهم، إنهم إخوته وهو الغريب عن أهله، فالغريب يتمسك برصيده من الذكريات كما لو أن فيها بقاءه، وهؤلاء إخوته الذين أساءوا إليه في صغره، بعض المواقف لا تمحى من الذاكرة ولا تمحى صورة صانعيها.

﴿وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ لم يُظهر معرفته بهم، من سلامة الصدر أن يتصرف المرء بتجاهل ليبقي وذاً، ليفتح باباً للصالح، ليطوي صفحة الماضي، ليبقي على أواصر الأخوة رغم كل ما صنعوه، هكذا هي أخلاق الأنبياء لا مكان لحقد أو كراهية في قلوبهم. ﴿قَالَ أَتُنُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِّنْ أَيْكُمُ﴾ بعض العلاقات لا يضعفها الزمان، ولا يئدها الخذلان، عزيز مصر يرق قلبه، يحن للماضي، لإخوته، لأبيه، لموطنه، من أراد القرب لم يعدم الحيلة، ومن أراد البعد لن يعدم السبب.

﴿الْآلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوْفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ﴾ يتودد بلطف العبارة، يأتيهم من حيث يعلم أنه سيصلح معهم، بلادهم في ضيق من العيش، في زمان مجاعة، يُرْعِبُهُمْ في العودة إليه من جديد ﴿أُوْفِي الْكَيْلَ﴾ يعلم جيداً ما يشغلهم، ما يستميلهم.

﴿أَتُنُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِّنْ أَيْكُمُ﴾ يريد يوسف ﷺ أن يأنس بأخيه، رغم أن في فراقه لأبيه لوعة جديدة ليعقوب ﷺ، وكأن الابتلاء قد وصل إلى ذروته في حياة نبي الله يعقوب ﷺ ليأتي بعده الفرج من كل صوب.

﴿ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ، فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ شيء من الحزم بعد اللين، ومن الشدة بعد اللطف، يستخدم كل وسيلة يضمن بها عودتهم، إن أردتم كيلاً وفيراً فأقبلوا علي بأخيكم من أبيكم، أما إن تمنعتم فلا تقربوا؛ فلن تجدوا ما يسركم عند قدومكم.

﴿ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ، فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾ الحاجة تكسر النفس وتفقّد المرء عزة نفسه، ليس في الأشخاص وحسب إنما حتى في الأمم، من فقد قوته فقد قراره وسيادته. إذا أردت السلامة فاستغن عماً في أيدي الناس. قال حاتم الأصم - لما سئل: فيم السلامة من الناس؟ قال: «أن يكون شيئك لهم مبذولاً وتكون من شيئهم آيساً».

إن تعادلت حاجتك للناس وحاجتهم لك تساويتم كالمبتاعين (البائع والمشتري) ليس لأحدهما فضل على الآخر، وإن كانوا إليك أحوج خضعوا لك والعكس.

﴿ قَالُوا سَرُّوْهُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ أحسن إليهم ورغبهم كثيراً فجاء الرد ممتلئاً بالحماس، ووعد بأن يبذلوا قصارى جهدهم في الإتيان بأخيههم رغم علمهم بصعوبة ذلك؛ لذا قالوا ﴿ سَرُّوْهُ ﴾ يعلمون صعوبة هذا الطلب على أبيهم، ثم أظهروا حرصهم فقالوا ﴿ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ لفاعلون ما قلنا لك إنما سنفعله من مراودة أبينا عن أخينا ولنجتهدن في ذلك.

﴿ وَقَالَ لِفَتَيْنِهِ أَجْعَلُوا بِضَعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ اجعلوا أثمان الطعام التي أخذتموها منهم في رحالهم، وربما قصد بفعله هذا ضمان عودتهم، لعلمه أنها كانت سنة جذب وقحط فخشي ألا يكون لديهم مال يعودون به إليه لطلب الطعام، أو لعلمه أنهم إذا وجدوا في رحالهم ثمن طعام قد أخذوه تحرّجوا من إمساكه فيكون ذلك أدعى لهم إلى العودة إليه.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَيْهِمَ قَالُوا يَتَابَنَّا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَا نَكْتَلْ وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾ (٦٣) قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُتُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَلْعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَتَابَنَّا مَا نَبْغِي هَذِهِ بِضَلْعُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ [يوسف: ٦٣-٦٥]

﴿فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَيْهِمَ قَالُوا يَتَابَنَّا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ﴾ يُقَدِّمُونَ الضرر الذي لم يقع بعد ليستعطفوا قلبه على طلبهم قبل أن يطلبوه .

﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَا نَكْتَلْ﴾ الحديث الآن عن ابنه الثاني، قد سمع يعقوب عليه السلام هذا الطلب من قبل في حق يوسف عليه السلام ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا﴾ فأرسله ولم يعد ، وكأن السنوات قد طويت في ذاكرته حينما سمعه مرة ثانية، لذا كان الرد مباشرًا قويًا مليئًا بالذكريات مصحوبًا برائحة يوسف عليه السلام .

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُتُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾ صعب هو الفراق، يابى العقل والقلب نسيانه ، كأنها يستجدي المواقف والكلمات ليعيد تذكُّره من جديد .

﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَا نَكْتَلْ﴾ الغاية من اصطحاب أخيهما هي طلب الكيل، أحسن يوسف عليه السلام فهم غايتهم لذا رغبهم فيها مباشرة ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ﴾ ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَفِظُونَ﴾ الثقة لا تُمنَح هباءً ولا تُسلب هباءً، إنما تمنح بالمواقف وتُسلب بالخذلان؛ لذا حين يفقد المرء الثقة في شخص فإنها لا تعود أبدًا كما كانت وإن اجتهد

﴿قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُتُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾ يذكر من كان عزيزًا في أهله فضيعوه بظنونهم، والآن يطلبون الأخ الثاني، أبقى في العمر بقية لبكاء على فقد جديد؟ إنه يعاتب عتاب الأب الذي لا حيلة له، قد نرى في الحياة أبا يوصي ابنًا له بأخيه، لكن إن كان الخطر من الإخوة فكيف يكون حال الأب ؟

﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ﴾ إذا تابعت المصائب بالحياة ليكن بث الشكوى إلى الله، ليكن اليقين في معية الله، في أمان الله .

في المرة الأولى ﴿قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ﴾ استعرض مخاوفه على أسماعهم.

وفي الثانية ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَفِظًا﴾ الله من يحفظ، لن يحفظك المنصب ولا المال، لن يحفظك الاحتياط ولا الحرص ولا التدبير، نأخذ بالأسباب ويبقى في القلب يقين ألا حفظ يعادل حفظ الله.

﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ﴾ حين نتعامل مع المواقف بنظر اتنا الضيقة المحدودة نحصر رحمة الله في مرض برئنا منه، في عمل حصلنا عليه، في غائب عاد إلينا، نراها في صور مقيدة محدودة، لكن كل محاولتنا لحصر صورها دائماً ما تبوء بالفشل حين يأتي لطف الله من بعيد ليغمرنا بعدما انقطعت كل الأسباب. قد تضيق بنا سبل الحياة وتتحول طموحاتنا إلى أمنيات يصعب تحقيقها فإذا برحمة الله تنتشلنا من أعماق المصائب إلى سعة الفرج.

﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ﴾ ما حدث ليوسف عليه السلام قد مضى بلطف الله، ولو تكرر مع واحد من عامة الناس لكان حكمه الأول عنه أنه ضيق وشدة وبلاء لا مخرج منه، ولو استعرض حياته بعدما نجّاه الله من كل هذا حينها فقط سيعلم أن رحمة الله لا تُرى من زاوية محدودة ضيقة بل عندما نستعرض الصورة كاملة لنفهم حقيقة رحمة الله ولطفه الذي يشملنا .

﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ فتحوا متاعهم الذي حملوه من مصر فوجدوا ثمن الطعام الذي اكتالوه منه ، قد رُدَّ إليهم.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾ ماذا نطلب أكثر من هذا؟ هذه بضاعتنا ردت إلينا ! تطيباً منهم لنفسه بما صنّع بهم في ردّ بضاعتهم إليهم، في محاولة لإقناعه إرسال أخيه معهم.

﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ نطلب لأهلنا طعاماً فنشتره لهم، ونحفظ أخانا مما تخاف عليه . يعملون سبب رفضه فيحاولون جاهدين في إقناعه ألا يخشى عليه الفقد.

﴿وَنَزِدَادُ كَيْلٍ بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ كان لكل رجل منهم حمل بعير فقالوا: أرسل معنا أخانا نزداد حمل بعير زيادة على أحمالنا، فهي زيادة لا مؤنة فيها ولا مشقة.

قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّاءُ اتَّوهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾ وَقَالَ يَبْنَئِي لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ مِّنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ يوسف [٦٦-٦٩]

﴿قَالَ لَنْ أَرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ﴾ يطلب العهد والميثاق منهم بأن يحفظوا أخاهم، لعل العهد يردعهم إن حدثتهم أنفسهم من جديد، ومع كل مواقفهم يلتزم لهم العذر من جديد، ﴿إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ﴾ إلا أن يحدث أمر خارج عن إرادتكم ففي حينها لن يكون التقصير منكم .

﴿حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ اللَّهِ﴾ حينما نجرب على امرئ خيانة فإن من الفطنة ألا نأمن له إلا بشيء من الحرص، هكذا هي تجارب الحياة تعلمنا ألا نكرر نفس أخطائنا ونعود لنلوم أنفسنا .

﴿فَلَمَّاءُ اتَّوهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ لم يضمروا الشر لذا أعطوه العهود والمواثيق، فأخبرهم أن الله هو الشاهد المطلع على عهدهم ، ألا تكيدوا لأخيك بعد العهد والميثاق ﴿اللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ تكفينا شهادته علينا وحفظه لنا.

﴿وَقَالَ يَبْنَى لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ عاطفة الأب تغلب موافقهم النكراء، عاطفة الأب نراها في كل مشهد أقوى من تأثير خذلانهم ، لا تدخلوا من باب واحد، يأخذ بالأسباب حتى المنتهى، قد يكون خشية عليهم من الحسد، وقد يكون خوفاً من أن يتعطل أحدهم فيعلق البقية بجواره ويتأخرون في قضاء ما هم بشأنه ، وقد يكون حرصاً عليهم من الرصد، فلم يمر أمر اجتماعهم بالعزیز علی یعقوب عليه السلام مرور الكرام؟ أيقابل عزيز مصر كل وافد عليه؟ أيلتقي بكل من يأتي ليطلب الكيل؟ ربما استشعر بغموض في الأمر لذا نصحهم باتخاذ الحيلة والمبالغة في الحرص .

﴿وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أقدار الله لا يمنعها شيء، فالمقدّر كائن والحذر لا يمنع القدر، والناس قد انقسموا في فهمهم للتوكل بين طرفين ووسط، فأحد الطرفين عطل الأسباب محافظة على التوكل، والطرف الثاني عطل التوكل محافظة على الأسباب، والوسط علم أن حقيقة التوكل لا تتم إلا بالأسباب فأخذ بها لكنه لم يعلق نجاحه أو فشله عليها.

﴿وَمَا أَغْنَىٰ عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ فهو ينصح ويوجه ويعلم أن نصحه لهم من صدق التوكل على الله، إنه لن يمنع بنصحه شيئاً هو في قدر الله كائن، لكنه يعلم أن التوكل الصادق قلب يتعلق بالله وجوارح تأخذ بالأسباب، إننا بشر وما أكثر مخاوفنا رغم يقيننا القلبي أنه لا شيء كائن في ملك الله إلا بمراد الله، ومع ذلك نجزع بطبيعتنا البشرية ونلتمس الأمان ولو بكلمة تُسكن في قلوبنا راحة نفسية ولو مؤقتة.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ بعض الصعاب نتوقف عندها حيارى ، تغلق أماننا كل الأبواب ، نفقد كل أسباب النجاة، لكننا ننجو، ننجو بلطف من الله ليستقر في القلب يقين أن تفويض أمرك لله لا يمكن أن يضيع هباءً.

﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ مرَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه على جماعة من الناس لا عمل لهم فقال: من أنتم؟ قالوا: نحن المتوكلون. فقال: "بل أنتم المتكلمون، إنما المتوكل الذي يلقي حبة في الأرض، ويتوكل على الله". المتكلمون أي من يتكلمون على أموال الناس وعطائهم .

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾ جميل هو البر، لا أحد سيئ بالجملة، الخير بداخل كل نفس، الخطأ وارد، التقصير وارد، فالإنسان محل الجهل والضعف والنسيان.

في الحديث أن النبي ﷺ قال «إِنَّ الْمُؤْمِنَ خُلِقَ مُفْتَنًا، تَوَّابًا، نَسِيًّا، إِذَا ذُكِّرَ ذَكَرَ»^(١) قال المناوي: (مفتنًا) أي ممتحنًا يمتحنه الله بالبلاء والذنوب مرة بعد أخرى، (تَوَّابًا) نَسِيًّا، إِذَا ذُكِّرَ ذَكَرَ أي: يتوب ثم ينسى، فيعود، ثم يتذكر فيتوب، هكذا يُقال فَتَنَهُ يَفْتِنُهُ إِذَا امْتَحَنَهُ.

﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ للوالدين نظرة للأمور قد لا يفهمها الأبناء، وقد يصعب على الأب شرحها كما يراها، فمن جميل البر أن تقضي حاجة والديك إن كانت في استطاعتك حتى لو لم تفهم العلة منها .

﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ بعاطفة الأب ينصح، رغم كبر أعمارهم رغم أخطائهم المتكررة، رغم القسوة التي بدرت منهم، لكنه لم يكف عن النصح، لا يزال يسبق باللطف والكلمة الطيبة لعلها ترقق القلوب، خاطرة لكل أب أن لوقع الكلمة في قلب الابن أثرًا كبيرًا، حتى لو كان طاعنًا في السن.

﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُسُفَءَآوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ أوى أخاه دونهم، أوى أصغرهم، من لم يشترك في كيدهم، رسالة إلى كل حاسد، إلى كل حاقد، تُحْطِط وتُدبر ويُذهَب الله تدبيرك بتدبيره، يُذهَب الله كيدك بلطفه .

﴿إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ﴾ فلا تبتئس بسوء معاملتهم لك، ولا بمكرهم، باعتقادهم أن كل ما فعلوه ويفعلونه هو من البر بأبيهم. لا تبتئس بأوهام من يعتقد أنه على الصواب دائماً وكل من دونه على خطأ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلَمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾

يوسف [٧٠-٧٦]

﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ كلهم إخوته، لكنه جعلها في رحل بنيامين، وهو الأخ الشقيق الوحيد لـ يوسف عليه السلام، وأما بقية إخوته فهم إخوة لأب؛ أي إنهم إخوته من أبيه فقط. ولم يكن بنيامين معهم في تخطيطهم للكيد بيوسف عليه السلام في صغره، لذا جعل السقاية في رحله يريد أن يقيه معه.

﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ﴾ اتهم مباشر قبل أن يتحروا ويشتبوا صدقه، لذا جاء الجواب متأدباً ليس من صنف السؤال، لم يجيبوا (ماذا سرقنا) إنما أجابوا ﴿مَاذَا تَفْقَدُونَ﴾.

﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ﴾ غاية أي حوار هو تحقيق التفاهم بين الطرفين، فإذا غاب هذا التفاهم كان على أحد الطرفين أن يطلب توضيحاً أكثر، فالسؤال عادة من شأنه أن يزيل الغموض، ويسلط الضوء على الجانب الغامض في الحوار.

﴿قَالُوا نَفَقْدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلَمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ﴾ الصواع هو ما يكال به عمومًا، وهو إناء من فضة في قول الأكثرين، وقيل: من ذهب، كان الملك يشرب به وكان يُستعمل صوعًا للكيل، فقد كانوا يكيلون للناس به من قلة الطعام إذ ذاك. ثم نسبه إلى الملك لبيان أهميته ﴿صُوعَ الْمَلِكِ﴾ فهو ليس مجرد صواع عادي ولو كان عاديًا لأتينا بغيره.

﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ زعيم أي كفيل، أكفل لكم تحقيق هذا الوعد إنه من جاءنا بصواع الملك فله حمل بعير من الطعام، وأنا كفيل بذلك حتى أؤديه إليه. والقائل هنا هو المؤذن وليس يوسف عليه السلام، لكنه يتحدث نيابة عنه.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ كيف كان علمهم؟ قيل أنهم كانوا لا ينزلون على أحد ظلمًا، ولا يرعون زرع أحد، وأنهم جمعوا على أفواه إبلهم الأكمة لئلا تعيث في زروع الناس. وقيل أنهم ردوا البضاعة التي كانت في رحالهم؛ أي فمن ردّ ما وجد فكيف يكون سارقًا؟!

﴿مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾ كل معصية هي إفساد في الأرض، وبقدر انتشار المعاصي يكون انتشار الفساد، وقد ارتبط مصطلح الفساد بكلمة الأرض في معظم الآيات، فقد وردت كلمة الفساد بمشتقاتها خمسين مرة في القرآن، جاءت بمعنى الكفر واختلال العلاقة مع الله سبحانه في عشر آيات، بينما ورد الفساد في الأرض في أربعين آية كلها تحذر من سفك الدماء ونهب الأموال وإيذاء الغير بأي طريقة كانت.

﴿وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾ رغم النفسية المشحونة بالحسد والكراهية التي رأيناها في تصرفاتهم إلا أن شيئًا من تربية النبوة قد بقي بداخلهم، إنهم يترفعون عن السرقة كمعصية.

﴿قَالُوا جَزَؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَؤُهُ﴾ رتب يوسف عليه السلام الأمر ولم يبق إلا الحكم، إن وجدوا صواع الملك فإلى أي حكم يحتكمون؟ هنا كان تدبير الله للأمور أن ألهم يوسف عليه السلام أن يستنطقهم بالحكم قبل أن يبدأ بالتفتيش في رحالهم

فَقِيلَ لَهُمْ عَلَى شَكْلِ تَسْأُولٍ ﴿قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ﴾ وَالْقَوْمُ عَلَى ثِقَةٍ مِنْ أَمْرِهِمْ أَنَّهُمْ لَيْسُوا بِمَنْ يَسْرِقُ، فَقَالُوا إِنْ الْحُكْمُ عِنْدَنَا أَنْ جِزَاءُ السَّارِقِ الْإِسْتِرْقَاقُ، وَهَذَا مَعْنَاهُ أَنْ يَحْتَفِظَ يَوْسُفُ عليه السلام بِأَخِيهِ حِينَمَا يَجِدُ الصَّاعَ فِي رَحْلِهِ وَهَذَا الَّذِي أَسْمَاهُ اللَّهُ كَيْدًا فَقَالَ: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ أَيِ دَبْرِنَا لَهُ الْأَمْرَ لِيَجْرِيَ وَفَقْ مَا كَانَ يَتَمَنَّى، فَقَدْ كَانَ يَتَمَنَّى بَقَاءَ أَخِيهِ مَعَهُ دُونَ بَقِيَّةِ إِخْوَتِهِ.

﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وَعَاءِ أَخِيهِ﴾ بَعْضُ الْأُمُورِ لَا يَحْسُنُ مَعَهَا أَسْلُوبُ الْمَفَاجَأَةِ وَالصَّدْمَةِ وَإِنَّمَا يَحْسُنُ مَعَهَا التَّمْهِيدُ، يَعْلَمُ مُسَبِّقًا أَنَّ الصَّوَاعَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ لَكِنَّهُ أَرْجَاهُ وَبَدَأَ بِأَمْتَعَتِهِمْ هُمْ أَوَّلًا قَبْلَ مَتَاعِ أَخِيهِ، وَلَعَلَّ هَذَا هُوَ الَّذِي قَادَهُمْ لِلْقَوْلِ فِيمَا بَعْدَ ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أَخْ لَهُ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ أَخُوهُمْ فَهُمْ يَرُونَ أَنْفُسَهُمْ عُصْبَةً دُونَهُ، وَتَفْتِشُ مَتَاعَ عُصْبَتِهِمْ لَمْ يَفْضَ إِلَى شَيْءٍ، لَمْ يَجِدُوا الصَّوَاعَ فِي مَتَاعِهِمْ فَعَادَتْ نَظَرَتُهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمُ الْأَتَقَى وَالْأَصْلَحُ، وَهَذَا الَّذِي وَجَدْتُمْ مَتَاعَكُمْ عِنْدَهُ خَارِجَ عُصْبَتِنَا لَا يَتَمَنَّى لَهَا لَذَا قَالُوا ﴿فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ﴾

﴿كَدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ دِينَ الْمَلِكِ أَيِ طَاعَتِهِ، فَإِنَّمَا أَخَذَ أَخَاهُ عَلَى حُكْمِهِمْ فِي السَّرْقَةِ أَنْ مِنْ سَرَقَ يَصِيرُ عَبْدًا، فَالْإِسْتِرْقَاقُ جِزَاءُ السَّارِقِ فِي دِينِهِمْ، أَمَا فِي دِينِ مَلِكِ مِصْرَ فَكَانَ أَنْ يُغْرَمَ مِثْلِي مَا أَخَذَ، فَأَخَذَ أَخَاهُ فِي طَاعَةِ الْمَلِكِ وَفَقًّا لِحُكْمِهِمْ هُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ قَبْلَ أَنْ يُفْتَشَّ أَمْتَعَتُهُمْ إِذْ إِنَّهُ لَيْسَ فِي شَرِيعَةِ الْمَلِكِ أَنْ يُوْخَذَ السَّارِقُ بِسَرَقَتِهِ.

﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ هَكَذَا هُوَ تَدْبِيرُ اللَّهِ لِعَبْدِهِ، فَلَمْ يَتِمَكَّنْ يَوْسُفُ عليه السلام مِنْ حَبْسِ أَخِيهِ فِي حُكْمِ الْمَلِكِ لَوْلَا مَا كَدْنَا لَهُ بِلُطْفِنَا حَتَّى وَجَدَ السَّبِيلَ إِلَى ذَلِكَ فَكَانَ أَخَذَهُ لِأَخِيهِ مِنْ بَيْنِهِمْ لَيْسَ فِي ظَاهِرِهِ ظَلَمَ لَهُمْ إِذْ إِنَّهُمْ قَالُوا أَوَّلًا ﴿قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ﴾

﴿تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ تَشَاءُ﴾ يرفع درجات من يشاء بالعلم كما رفع درجة يوسف عليه السلام على إخوته.

دخل الحسن بن الفضل على أحد الخلفاء، وعنده كثير من أهل العلم، فأحبَّ الحسن أن يتكلَّم، فزجره، وقال: يا صبي تتكلَّم في هذا المقام؟ فقال: يا أمير المؤمنين، إن كنت صبيًّا، فلست بأصغر من هدهد سليمان عليه السلام، ولا أنت بأكبر من سليمان عليه السلام حين قال: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ مَحْطُ بِهِ﴾ (١) ثمَّ قال: ألم تر أنَّ الله فهمَّ الحُكْمَ سليمان عليه السلام، ولو كان الأمر بالكبر لكان داود عليه السلام أولى. ﴿فَفَهَّمَهَا سُلَيْمَنٌ وَكُلًّا ؕ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ (٢)

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ آية تكسر غرور البشر، تكسر كل زهو بالعلم، كل اجترأ قاد عالمًا في مجال من مجالات المعرفة أنه قد ألم بكل سوابره، وإنني أكتب هذه الكلمات وقد انتشر فيروس لا يرى بالعين المجردة فعطلَّ كل أوجه الحياة على وجه الأرض، وأيقن علماءها في كل صنوف المعرفة أنهم لم ينالوا من العلم شيئًا يذكر لتستحضر القلوب والعقول معنى قول الله تعالى ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾

﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ فوق كل عالم هناك من هو أعلم منه، حتى ينتهي ذلك إلى الله العليم فعلمه فوق كل أحد.

قال تعالى ﴿قَالُوا إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانٍ ۖ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ (٧٧) قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ۖ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ ۖ إِنَّا إِذَا ظَلَمُومٌ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا أَسْتَيْسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي ۖ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ يوسف [٧٧-٨٠]

١ النمل [٢٢]

٢ الأنبياء [٧٦]

﴿قَالُوا إِن يَسْرِقَ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ بعض المشاعر لا تُنسى، إنهم حتى هذه اللحظة يتذكرون يوسف عليه السلام ويحملون مشاعر الحقد نفسها التي قادتهم لحماقتهم وهو صغير، السنون لم تنسهم بغضهم له، لذا ما إن وجدوا فرصة يعبرون فيها عن كرههم له لم يترددوا في انتهازها، ما ليوسف عليه السلام ولهذا المشهد؟

﴿قَالُوا إِن يَسْرِقَ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ قالوها ولم يعلموا أنهم في حضرة يوسف عليه السلام، بعض الابتلاءات تأتي على شكل كلمات من أشخاص كنت تظن أن الأيام قومت اعوجاجهم وردتهم إلى رشدهم فإذا بك تُفاجأ أنها لم تزدهم إلا حدة وغلظة.

﴿قَالُوا إِن يَسْرِقَ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ أطلقوا الحكم سريعاً، لم يمنح أحدهم نفسه فرصة للتفكير، لإنصاف أخيه، لم يكلف أحد منهم نفسه تذكّر كيف ردت إليهم بضاعتهم أول مرة ولم يكونوا هم واضعيها؟ حين يكون سوء الظن غالباً يأبى العقل الإنصاف ولو بفكرة تجول في الخاطر .

﴿فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ ربما عاجلت الأيام صنيعهم به، لكن ها هي كلماتهم تدمي القلب فأبى يوسف عليه السلام حتى مجرد الرد، لذا اختار أن يكتمها ويردد: ﴿أَنْتُمْ سَرَّمْتُمْ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾

﴿فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ أسرها في وقتها ثم أراد الله لصنيعه الخلد فذكرها في كتابه لنعلم أن صنائع المعروف — وإن كانت بكتان وجع — عند الله لا تضيع .

﴿فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ أسرها في نفسه ولم يرد عليهم، اختار التغاضي لحفظ شيء من المودة في القلب ليرى ثماره بعد اللقاء، لم يقطع الود رغم كل القسوة التي عاملوه بها.

﴿فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ تغاضى نبي الله عن كلامهم ولم يرد عليه وهو يخصه، وأحدنا يأبى التغاضي عن حديث قد لا يخصه، يعتقد أن عليه أن يكون له رد على كل قول، رأي في كل مسألة، مكان في كل معضلة خلافة، بينما نبي الله يعلمنا أن قيمة المرء قد تكون فيما يترك لا فيما يأخذ، فيما يصمت عنه لا فيما يقوله.

﴿قَاسَرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ تغاضى عن العتاب لأنه لن يغير من واقع الأمر شيئاً، ولو كان في العتاب خير ما أسرها في نفسه .

﴿قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ إذا أدت ظنون الخلق فلا تشغل بالرد عليها، الله مطلع على قلبك ، يعلم سرائر نفسك، ردد في أعماق قلبك ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ وامنض في حياتك غير آبه بما يقولون.

﴿إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ﴾ الآن تذكرون وجع قلب الشيخ الكبير! همسة في أذن كل قاسٍ، ارفق فالقلوب ثثن، حتى قلوب الأنبياء قد ألمها الفراق، ألمتها الكلمة الجارحة، فكيف بقلوب من دونهم؟

﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ إنه وقار الإيمان يستأنس به كل من يراه أو يتعامل معه، فالقلوب قد جُبلت على الميل إلى من يرفق بها ويحسن إليها، فهؤلاء مع كل القسوة التي في قلوبهم ناحية أخيههم لم يروا منه إلا اللطف الذي أطمعهم في أن يطلبوا منه أن يتجاوز عن أخيههم فلا يأخذه .

﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَلَعًا عِنْدَهُ﴾ لم يقل من سرق صواع الملك، إنما تعفف وتأدب في اختيار الألفاظ حتى لا يؤدي سماع أخيه أن يقال عنه سارق على رؤوس الخلائق وهو ليس بسارق، ما أروع الأدب النبوي الذي يحفظ الكرامة حتى في اللفظ العابر.

﴿إِنَّا إِذَا لَظَلِمُونَ﴾ يُحَدِّثُهُم بِالْأَلْفَافِ التي من المفترض أنهم يفهمون دلالاتها، إنهم أبناء نبي كريم ويعلمون الظلم وعاقبته، لقد فعل كل شيء يخبرهم أنه يوسف دون أن ينطق بها، رغم ذلك لم يفكروا للحظة في أنه يوسف إلا حينما نطقها مباشرة.

﴿فَلَمَّا أَسْتَيْسُوا مِنْهُ﴾ ليس بأساً، إنما استيأس، مبالغة في انقطاع الأسباب التي تنجي أخاهم من مصير محتوم في نظرهم.

﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ خلصوا أي انفردوا عن غيرهم واعتزلوا الناس واجتمعوا في جلسة خاصة، نجياً أي متناجين متشاورين فيما يقولونه لأبيهم في شأن أخيهم.

﴿خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ اجتمعت عصبتهم مرة أخرى، ليروا ماذا يصنعون؟ ليس لنجاة أخيهم لكونه أخاهم، إنما فيما سيقولونه لأبيهم عن فقده، شيء يحار منه العقل، هذا البر المتناهي لأبيهم لم يشمل يوسف عليه السلام وأخاه ولو باللفظ؟ أيمن أن ترق القلوب في جانب وتقسو في آخر؟

﴿قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ﴾ هذا ما كان يشغلهم في المقام الأول، ماذا سيقولون لأبيهم؟

﴿وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَطْتُمْ فِي يُوسُفَ﴾ الآن جاء ذكر يوسف عليه السلام في حديثهم لما تشابهت الأحداث، أحداث فقد الإخوة لا أسباب الفقد، وربما هذا ما أوجع الأخ الكبير، المرة الأولى كنا صغاراً، استسلمنا لشهوة النفس باستئثار وجه أبنينا دون يوسف وأخيه، أما الآن فبأي وجه سنقابل أبانا وقد فرطنا في أخ آخر؟

﴿فَلَنْ أُنَبِّحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ حَكَمَ الأخ الأكبر على نفسه، أن ارجعوا لأبيكم فقصوا عليه ما حدث، أما أنا فلا أقوى على العودة للنظر في وجهه حين يعرف هذا الخبر، لعل هذه الرقة بأبيه وصدق البر به هي التي خلدت مقولته في هذا الموقف دون بقية الأخوة، فمثل هذه الأمور بالطبع كان لكل منهم قول ورأي، لكن القرآن قد خلد قول هذا دون غيره لنعلم أن ما عند الله لا يضيع وإن كانت جملة عابرة تقصد بها وجه الله فسوف تُجزى عليها.

قال تعالى: ﴿ارْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمَنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسَلِّ الْأَقْرَبَةَ أَتَىٰ كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَدُوقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا سَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَأَبِیضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ يوسف [٨١-٨٤]

﴿ارْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾ ارجعوا فأخبروه بما حدث دون زيادة أو نقصان.

﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا﴾ من السلامة ألا يخوض المرء فيما لا يعرف أسبابه، أن ينقل ما رأى حين يُطلب منه لا يتفضل به، ألا يترك العنان للسانه ليُحمّل الكلمات فوق معانيها، والمواقف فوق مدلولاتها .

﴿إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾ لله دُرُّ قلب يعقوب عليه السلام! نبي كريم ويسمع هذا الاتهام في ابنه الذي يحبه ويأنس به.

﴿إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾ لا تزال ألفاظهم تحمل غلظة لا تفارقها في أغلب أحاديثهم، فحين كانت لهم حاجة في إرساله معهم قالوا: ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانًا نَكْتَلُ﴾ وحين وجدوا فرصة النيل منه لمكانته في قلب أبيه قالوا ﴿إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ﴾ أفي الخير أخونا وفي الشر ابنك؟ حين تجد مراتب الناس تختلف في التصنيف وفقاً للمصلحة فاعلم أنها أحكام ليست عادلة، صادرة من قلوب تتلون .

﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا﴾ مزيد من الأدلة على صدقهم، لأنهم يعلمون أنه لن يصدقهم ثانية، الثقة التي تهتز يصعب بناؤها من جديد.

﴿وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾ الآن صادقون ، بعدما عادوا بدون أخيهم الآخر بنيامين سردوا قرائن صدقهم وختموها بقولهم ﴿وَإِنَّا لَصَدِيقُونَ﴾ لكن حين عادوا دون يوسف عليه السلام قالوا لأبيهم ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ الكذب يخون صاحبه في تعبيرات وجهه، في ألفاظه، الكاذب تكشفه جوارحه مهما حاول إخفاء الحقيقة .

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ نحكم على الناس من مواقفهم السابقة، لذا يصعب علينا تصديق من جربنا كذبه، كيف للمرء أن يشق فيمن جرَّب خذلانه؟

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ ليس كل ما تميل إليه أنفسنا حقيقة، ففي هذه المرة قد صدقوا لكن تجاربهم مع أبيهم حالت دون أن يُصدّقهم فأرجع غياب ابنه لمكيدة جديدة كادوها له، رصيد الذكريات يغلبنا أحياناً، تجاربنا السابقة تقود بعض أحكامنا.

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ يقولها ثانية ، يفقد ابنه الثاني ويقولها بصبر المؤمن المحتسب، (فصبر جميل) صبر دون قلق، صبر بلا جزع ، فالجزع لن يغير من الواقع شيئاً لكنه يزيد المرء همّاً في دنياه .

كان رجل يطوف حول الكعبة وهو يقول: يا رب هل أنت راض عني؟ وكان يطوف وراءه الإمام الشافعي، فقال له: يا هذا، هل أنت راضٍ عن الله حتى يرضى عنك؟ فقال له الرجل: يا سبحان الله! كيف أرضى عنه وأنا أتمنى رضاه؟ قال الشافعي: إذا كان سرورك بالنعمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله.

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ من علامات الصبر الجميل أن تسعى فتنجح فتحمد الله، تُبتلى فتصبر فتحمد الله، تغلبك الأيام تارة وتغلبها أخرى ولا يخرج منك إلا طيب القول وجميل الذكر ، حين يستسلم القلب والقالب لمن بيده مآلات الأمر تطيب لك الحياة. حياتنا ليست بحاجة إلى معجزة لتستقيم، إذا استقام القلب استقامت الحياة.

﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ كثير من الناس لا يفهم من الرزق إلا المال ولكن الرزق أوسع من ذلك، قال ابن الجوزي: «ورزق الله قد يكون بتيسير الصبر على البلاء».

﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ يقولها بقلب المؤمن الذي يحسن الظن بالله، حتى وإن انقطعت الأسباب، وإن دار الزمان دورته، وإن ضعف الرجاء ، لا زال متعلقاً بأمل العودة بعد الغياب، اللقاء بعد الفراق، يوسف الذي فارقه منذ طفولته وأخوه الذي فارقه في شبابه .

﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ منهج راسخ في عقيدة كل مؤمن، كل أحلامك العالقة، كل طموحاتك التي تسعى نحوها، كل أمانيك التي تراود خيلتك، إلى كل ما يحتاج منك سعيًا ، ابذل ما في وسعك ثم ردد في يقين ﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ إذا اشتد البلاء اقترب الفرج، وإذا ازداد الألم ازداد اليقين في عطاء الله وفضله ﴿عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ أدعية الأنبياء تجدها دائمًا لا سقف لها، يُحسنون الظن بعطاء الله فلا ينظرون للواقع ولا يتعلقون بالأسباب، إنما يطلبون ما هو في عُرف الناس مستحيل ولا يبالون بظنون الناس ، فوجد سليمان عليه السلام ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾^(١) وذكريا عليه السلام ﴿وَكَاَنَتْ أُمَّرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَّدُنْكَ وَلِيًّا﴾^(٢)

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ بعض المشاعر تحتاج منا أن نتولى ، أن نبتعد قليلًا، أن تفيض دموعنا في انكسار بين يدي الله لا على أعين الخلائق.

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ تولى بوجهه وقلبه وكل جوارحه، تولى بعدما تجددت جراح قلبه، الفقد القديم (يوسف) والفقد الجديد (بنيامين).

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ تولى لئلا يروا دموع عينه، لئلا يسمعوا أنين قلبه، لئلا يروا لحظة انكسار النفس ، صعب هو الفراق، إنه أوجاع لا تنتهي، جراح لا تبرأ، إنه شرخ في جدار القلب كلما جدَّ جديد سال الدم من الجرح القديم.

﴿وَتَوَلَّى عَنْهُمْ﴾ عن أبنائه وأحفاده، فكيف بالغريب والعابر، إذا صادفت في حياتك من يتولى فلا تلمه، فقد يكون مثقلًا يؤثر الخلوة على نشر أوجاعه !

﴿وَقَالَ يَتَأَسَّفُ عَلَىٰ يُوسُفَ﴾ يوسف من جديد، عطر قلب أبيه، تجدد الحزن فتذكره من جديد، أحد عشر ابنًا غيره لم يعوضوا غيابيه، يا للآباء وعطفهم، ويا للأبناء وقسوتهم .

١ ص [٣٥]
٢ مريم [٥]

﴿وَقَالَ يَتَاسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ ما أرحم الله، يصف لنا حال يعقوب عليه السلام بعد فقد ابنه لنعلم أن أحزاننا، همومنا، مصاعب الحياة التي تعترضنا يعلمها الله، لنعلم أن عطاء الله قد يتأخر ليصطفى من قلوب العباد أنقاها فيقربها ويختارها.

﴿وَقَالَ يَتَاسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ إذا ضاقت بك سبل الحياة فتذكر يعقوب عليه السلام وبكاءه، كيف كان رجاءه ودعاؤه، كيف كان حُسن ظنه الذي لم يشك في عودة يوسف عليه السلام بعد سنين لا تُعد .

﴿وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ كظيم أي مهموم من شدة الحزن، اجتهد في إخفائه لكن أبت عيناه إلا أن تخبر بحاله، ليست كل الأوجاع تُكتم فبعضها يئن منها الجسد كله حتى تظهر أعراضها على الجوارح .

﴿وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ ابيضت عينا الأب، أما الأبناء فالأمور عندهم قد تختلف، فراق الأبناء قد لا تقوى عليه قلوب الآباء، فرفقاً بقلوبهم، فما تستره القلوب قد تكشفه العيون .

﴿وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ الأوجاع الدفينة بالقلوب لها الله وحده، لذا هتف يعقوب عليه السلام بما يُعبر عن أوجاع قلبه ﴿وَقَالَ يَتَاسَفَى عَلَى يُوسُفَ﴾ ففي بعض البُوح راحة للقلوب، إذا اشتد كرب فلا تكتمه، بل تولّ عن الناس ثم عبّر عنه ، فراحة القلب معقودة بنطق اللسان.

﴿وَأَبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ أتدري لمن حدث هذا؟ لرسول ابن رسول ابن رسول ، حزن القلب رغم الإيمان الذي يسكنه، رغم اليقين وحسن الظن بالله، إننا بشر ومهما تحلينا بالقوة والصلابة فإن عاصفة الألم تُدمر جدران قلوبنا، ولا سبيل إلا أن نتقوى عليها بما تقوى به يعقوب عليه السلام على فراق أحبته ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ .

﴿وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ الحزن لا يُجيد الاختباء، قد يلمحه الأعمى في نبرات صوتك .

قال تعالى ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوُا تَذَكَّرُ يُونُسَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَبْتَنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُونُسَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْتِئُسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ يوسف [٨٥-٨٧]

﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوُا تَذَكَّرُ يُونُسَ﴾ هل ظل يوسف ﷺ عالقاً في أذهانهم كما ظل في قلب أبيه؟ كانوا سبب ألمه وها هم الآن يلومونه على وجعه.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوُا تَذَكَّرُ يُونُسَ﴾ سمعوا أنين أوجاعه رغم أنه قد تولى عنهم، بعض الأوجاع تغلب كل محاولتنا لكتابتها .

﴿حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ منذ بداية القصة وكلما جاء الحديث عن إخوة يوسف ﷺ تقابلنا حدة الألفاظ في كل مرة، لك أن تتخيل أن هذه ألفاظ أبناء يعيرون على أبيهم تذكّره فقد أبناؤه، كيف يكون شعور أب يسمع هذا الكلام من أبناؤه؟ أهذا عتاب؟ أيعاتب المرء بألفاظ فيها حدة وغلظة؟ أما كان الأجدر بهم ألا ينطقوا؟ أن يتركوا الشيخ المكلوم في حزنه ونجواه، أهو بحاجة إلى ألفاظ مثل هذه؟ إن لم تكن ألفاظك سنداً لمبتلى فلا تنطقها، فالسكوت خير من حديث يؤلم .

لَا تَنْهَرَنَّ غَرِيباً حَالَ غُرْبَتِهِ الدَّهْرُ يَنْهَرُهُ بِالذَّلِّ وَالْحَيْنِ

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ أشكو حاجتي وحزني وهمي إلى الله وحده، يا الله، أي لطف هذا الذي هدّأ من حدة الأوجاع؟ أي يقين هذا الذي سكن القلب فبرّد حرارة الشوق ولهفة اللقاء من جديد؟ أشكو لله لا للخلائق، أجا لله لا للخلائق، أبث آلامي لله لا للخلائق، الله هو الجهة والقصد.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ بشي وحزني، ليست أوجاعاً عادية، إنما هي شديدة قد تمكنت من القلب فألمته، فالحزن ما يقوى المرء على تحمله وكتانه لكنه إذا زاد ولم يقو على كتانه صار بئاً، فيعقوب عليه السلام يخبرهم أنه يشكو الحزن الخفيف والههم الثقيل لله وحده لا لغيره .

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ كم في البلى من عطايا تردنا إلى الله، تأخذ بمجامع قلوبنا لمعرفة الطريق إليه، لا تزال تلك الخاطرة تقتحم حديثنا منذ بداية القصة.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ يطرق أهم أبواب قلبك لأمر ضاقت به نفسك، يهتف قلبك سائلاً الله الفرج، فيُرسل الله لك لطفاً خفياً فتسمع آية بالصدفة كأنها تُرَبّت على كتفك، تسمع خاطرة كأنها تتحدث عنك، تقرأ عبارة كأنها تُرشدك للطريق، ترى مهموماً لا يُعادل همك فيه شيئاً فتستصغر ما أهمك، يسوق الله لك لطفاً خفياً يُعالج ضيق قلبك فتحل عليه سكينه لتُكمل يومك وقد بدل الله الحال غير الحال، فقط لأن القلب هتف في صمت يسأل الله النجاة .

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ مما يث الطمأنينة في القلب اليقين بعلم الله بحالنا، بهمومنا التي نواربها عن الناس ونبشها لله ثقة و يقيناً، الأفعال والأقوال والنوايا التي أُسيء فهمنا فيها يطلع الله على حقيقتها في قلوبنا.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ إلى الله لا إلى الخلائق، فهو العليم بما نُخفي، بما نحمل بداخلنا من أوجاع، القدير على ما نعجز، المدبّر حين تملكنَا الحيرة، فإذا ما تولاك الله سخر لك كل شيء ، ويسر لك كل أمر حتى ذاك الذي كنت تعتقد أنه مستحيل .

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ كل ملجأ غير الله واهن، فلا شيء يطمئن القلب بقدر التعلق بالله، واستشعار وجوده، وأنه يهب لك من الأرزاق ما يليق بك، ويمنع عنك من الأرزاق ما في وجوده ضررك، يعلم صدق نواياك فيكافئك عليها، لا شيء يعينك على فواجع الحياة إلا يقين في قلبك بلطف الله وعوضه.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ آية تُرَبِّت على كتف كل مُبْتَلَى أن الله ليس بغافل عنك، أن الله يعلم كم تتحمل من مشاق، أن الله يعلم أمنياتك التي ترجو، وعثراتك التي تحول، وأحزانك التي تؤرق يومك، وحده يعلم مخاوفك ويدبر لك الخير، فإذا ما آنس قلبك معية الله غدا مع أولئك الذين إذا ما أعطوا شكروا، وإذا ما أُبتلوا صبروا صبراً جميلاً حتى يظن من يراهم أنهم بلا ابتلاء فاستوى حالهم في السراء والضراء، لا يتأفون ولا يعيبون على الأيام والدهر، يكفيهم أن الله يعلم حالهم فيغنيهم عن سواه.

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ قد تراودك الأفكار أنك لن تدرك شيئاً مما تتمنى، تضيق عليك الدنيا بوسعها، ثم ينزل الفرج وتفتح أبواب ما كنت تظن يوماً أنها ستفتح، تتوالى البشارات بعد سنوات من الضيق والشدة، وذلك لأن الله لن يضيع جهدك، لن ينسى تعبك، لن يترك تلك الليالي القاسية بلا أجر، يُعوض صبرك، اركن إلى الله، فلا أحد غير الله يجبر كسر القلوب في فواجع الأيام.

لا تَشْكُ لِلنَّاسِ جُرْحًا أَنْتَ صَاحِبُهُ	لا يُؤْمُ الْجَرَحُ إِلَّا مَنْ بِهِ أَلَمٌ
شَكْوَاكَ لِلنَّاسِ يَا ابْنَ النَّاسِ مَنْقُصَةٌ	وَمَنْ مِنَ النَّاسِ صَاحِبِ مَا بِهِ سَقَمٌ؟
فَالهَمُّ كَالسَّيْلِ وَالْأَحْزَانُ زَاخِرَةٌ	خُمُرُ الدَّلَائِلِ مَهْمَا أَهْلُهَا كَتَمُوا
فَإِنْ شَكَوْتَ لِمَنْ طَابَ الزَّمَانُ لَهُ	عَيْنَاكَ تَغْلِي وَمَنْ تَشْكُو لَهُ صَنَمٌ
وَإِذَا شَكَوْتَ لِمَنْ شَكْوَاكَ تُسْعِدُهُ	أَصْفَتْ جُرْحًا لِحَرْحِكَ إِسْمُهُ النَّدَمُ ^(١)

﴿قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ الأحران التي تُصيب القلب لم تكن يوماً شيئاً يدعو للتباهي فتملاً كل أحاديثنا، ننشر أحزاننا أمام كل عين تقابلنا، فالناس لن تهتم لشأنك، لأحزانك، فقط بث أحزانك لله وحده؛ فهو الكفيل برفعها، أما أذان الناس فيصيبها الملل من كثرة الشكوى والتأفف.

﴿يَنْبَيِّ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ كأنها يتذكر رؤيا يوسف عليه السلام العالقة في قلب الزمان ولم يرها حقيقة بعد، فلا يزال للقصة بقية لتُحكى وهكذا هي قلوب المؤمنين لا تطرقها يد اليأس ولا تُدنسها رائحة القنوط .

﴿يَنْبَيِّ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ ليس أخوه فقط الذي سُجن منذ قريب، بل من يوسف عليه السلام أيضاً الذي فقد منذ سنوات طويلة، يبث فيهم الأمل، يزرع فيهم حُسن الظن، يعالج ما أفسدته الأيام في قلوبهم، حتى يوسف اطلبوه في بحثكم مع أخيه.

﴿يَنْبَيِّ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ سمعوا الجملة ولم يُعقِّبوا عليها، ألم يقولوا من قبل (أكله الذئب)؟ كيف لهم أن يتحسسوا وجوده إن كانوا صادقين؟ بعض الكذب ييأس صاحبه من الدفاع عنه فيستسلم للإقرار به .

﴿يَنْبَيِّ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ لم يذكر شيئاً عن الابن الأكبر الذي حكم على نفسه بالبقاء ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِىَ إِنِّى أَوْيَحُّكُمْ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ وذلك لأن بقاءه كان اختيارياً يستطيع العودة في أي وقت شاء، أما يوسف عليه السلام وأخوه ففراقهما كان اجبارياً.

﴿يَنْبَيِّ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ لا يزال يذكر يوسف عليه السلام على مسامح من ضيعوه، هل من ضيعه منذ زمن بعيد سيبحث عنه الآن؟ لم يفقد الأمل في إصلاح قلوبهم، فوضعهم على درب اليقين بحسن الظن بالله، وعلى درب التوبة لتجاوز أخطاء الماضي.

﴿يَبْنِيْ اَذْهَبُوْا فَتَحَسَّسُوْا مِنْ يُوسُفَ وَآخِيْهِ﴾ في كل ضائقة تصيبك الجأ إلى الله بكل قواك، بقلبك وجوارحك، أعلن ضعفك وعجزك بين يديه ، لا تلتفت لقلّة حيلتك، لضعف إمكانياتك، لعجز الأسباب، بل التفت لله الذي ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾^(١)

﴿يَبْنِيْ اَذْهَبُوْا فَتَحَسَّسُوْا مِنْ يُوسُفَ وَآخِيْهِ﴾ حين تضع أهدافاً في حياتك لا تنظر لها بقدرتك المحدودة بل بقدره الله على تحقيقها، فهذا يعقوب عليه السلام حتى مع توفر أسباب القنوط من طول غياب ابنه واستحالة الفرج - في مقادير البشر - ظل بالقلب يقين بالله لا تزغزه الظنون ولا يلوّثه القنوط.

﴿وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَّوْحِ اللَّهِ﴾ يلقيها على مسامعهم في وقت تبدو كل أسباب النجاة مستحيلة، فيوسف عليه السلام قد غاب منذ زمن ومع ذلك يُحدثهم بيقين المؤمن الواثق في عطاء الله أن اطلبوه مع أخيه ولا تفقدوا الأمل. بعض الأوجاع بداخلنا تظل مشتعلة لا يهدئ من حرارتها إلا حُسن الظن بالله.

﴿وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَّوْحِ اللَّهِ﴾ مهما اشتدت بك الصعاب إياك أن تقنط، كلما غلبتك أوجاعك ضع يدك فوق قلبك وردد (اللهم إني أحاول فلا تفلت يدي) فما دمت تحاول لن يضيع الله جهدك، لن يتركك لنفسك.

أتى البرد على زرع عجوز في البادية فأخرجت رأسها من الخباء ونظرت إلى الزرع وقد احترق فرفعت رأسها إلى السماء وقالت : «اصنع ما شئتَ فإنّ رزقي عليك».

﴿وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَّوْحِ اللَّهِ﴾ ما يسكن في قلبك من يقين بمعية الله ولطفه هو أقوى عون على نوائب الدهر وتقلبات الأيام ، فالقلب الذي يُحسن الظن بربه لا تهزمه الشدائد ولا يسكنه القلق ولا تعرف الحيرة له طريقاً.

قال تعالى ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَتَآيَأُهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزْجَةٍ فَأَوَفَّ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقَ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ (٨٨) قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ يُّوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ قَالُوا ﴿ إِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٩٠) يوسف [٨٨-٩٠]

بلغت المحنة ذروتها، على الأب، على الإخوة، على الأهل، فيأذن الله لها بالزوال بعدما فوّض يعقوب عليه السلام الأمر كله لله، ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحْزَنِي إِلَى اللَّهِ ﴾ ما هي إلا أيام وجاءت بشرى بالفرج .

﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَتَآيَأُهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا الضُّرُّ ﴾ ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، كما ضاق عليهم صدر أبيهم من أفعالهم، هكذا هو شؤم المعصية، شؤم يظل يطارد فاعلها ما لم يتب.

﴿ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزْجَةٍ فَأَوَفَّ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقَ عَلَيْنَا ﴾ بضاعة كاسدة لا تستحق أن تُقبل، لكنهم توسموا فيه الخير فصار حوه أن يتصدق عليهم لأنهم يعلمون أن ما بين أيديهم أقل مما سوف يأخذونه .

﴿ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزْجَةٍ فَأَوَفَّ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقَ عَلَيْنَا ﴾ جاءوا ببضاعة، تحدثوا عن البيع والشراء، رغبوه في التصدق عليهم، فماذا بشأن أخيه الذي أخذ؟ لم يتحدثوا عنه، إنما استعطفوه بما آل إليه حالهم من الجوع والقحط ليضمنوا الكيل، أما أخوهم فلا حاجة لهم في الحديث عنه .

﴿ فَأَوَفَّ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقَ عَلَيْنَا ﴾ الصدقة هي ما يُعطى للفقير على وجه التقرب إلى الله ، وليس على سبيل المكرمة ، فهم يعلنون على مسامع يوسف عليه السلام بؤس الحال وضيق العيش، يطلبون منه الإحسان إليهم ، الأنفس إذا ما عاندت الحق أذهبا الباطل، وإذا ما عاندت الخير كسرها الشر، قال ابن الجوزي واصفًا حالهم " من تأمل ذلَّ إخوة يوسف؛ عرف شؤم الزلل " .

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ هكذا مباشرة، يخبرهم بالحقيقة، يحدثون عزيز مصر، ويحدثهم عن يوسف، حقًا للمشاعر أن تضطرب، إنهم في حضرة عزيز مصر، كأني بأحاديث النفس تخالجهم، أهو يوسف؟ كأني بمشاعر الندم تعلو وجوههم، لست أدري ما الذي قاد يوسف عليه السلام لأن يعلنها هكذا مباشرة صريحة، أرقّ لحالهم؟ ربما لم يحتمل طلبهم أن يتصدق عليهم، ربما أحس أن ضيق العيش قد طال أباه الشيخ الكبير فلم يزد عليهم، يا لقلوب الأنبياء، مهما عصرتهم الهموم لا نجد في أفعالهم إلا ما يقتدى به، في جملة واحدة أخبرهم بنهاية القصة، بالفصل الأخير من تفاصيلها، الذي أخفيتموه في ماضي الزمان حفظه الله عنده وجعل من تفاصيله عبرة، الذي أخفيتموه لم يخفَ على الله، ألقيتم صغيرًا في بئر عميق في صحراء قاحلة فوضعه الله فوق رؤوسكم .

﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ ليس يوسف عليه السلام وحده من طالته يد الأذى منكم، بل طالت أخاه الأصغر كذلك، ربما قصّ عليه سوءًا أصابه منهم، وربما عزاه إلى تصديقهم في حقه السرقة وقولتهم عن يوسف عليه السلام آنذاك ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ .

﴿إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ ما أجملها أخلاق الأنبياء، يعاتب بلطف، ثم يُقدم لهم العذر لثلاث تضيق عليهم الأرض التي يقفون عليها في حضرته .

﴿قَالُوا أَيْنَ نَكَ لَأَنْتَ يُونُسُ﴾ من وقع المفاجأة يسألون، أنت حقًا يوسف؟ إنه يوسف الذي تركوه صغيرًا في ظلمات البئر، نجاه الله وأعزه حتى صار عزيز مصر، نعم يوسف الذي ادّعيتم ظلمًا أن الذئب قد أكله ها أنتم في حضرته، كيف السبيل إلى خروج يحفظ لهم شيئًا من ماء الوجه أمام يوسف عليه السلام، أمام أبيهم، ثم أمام أنفسهم؟

﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾ أنا يوسف، هكذا بكل تواضع، بكل هدوء، ينطق اسمه بلا لقب يسبقه، بلا صوت يعلو، إنما أدب الأنبياء في التعبير، لا حظوظ للنفس، لا حظوظ للدنيا، إنما يجتهد في كل مقام أن يؤدب النفس فوق أدبها .

﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾ وهذا أخي، يخصه بالذكر رغم أنهم كلهم إخوة، إنه شريك له في حظه من معاملتهم السيئة، مكرهم السيء، والأخوة ليست مجرد كلمة تنطق إنما هي أفعال تبرهنها، من بين كل إخوته يخصه بها أما البقية فقد أساءوا إلى معانيها، إلى حقوقها .

﴿قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي﴾ وهذا أخي، سألوه عن نفسه فألصق أخاه به، لم تزد سنوات البعد إلا رقة، ولم يزد المنصب إلا تواضعًا .

﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ في كل حديث نراه يرد الفضل لله، لا فضل السعي، لا فضل الذكاء، لا فضل الاجتهاد، لا فضل الصبر، إنما فضل الله، وعطاء الله.

﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ مضت كل الصعاب، طوى يوسف عليه السلام صفحة الماضي، عفا وصفح، إنما في الحياة ننجو بلطف الله لنا لا بتدبيرنا وتخطيطنا، فلا أحد منا يعرف طريقة مثالية يتجاوز بها صعاب الحياة. إنها تمضي بلطف الله .

﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ ألقوه في البئر وظنوا أنهم قد أنهموا مستقبله، فاستخدمهم الله لبنائه. تدبير البشر يعجز عن منع شيء قدره الله لك، لذا حين تمر بابتلاء لا تظن نفسك تحت وطأة الظروف، أو تحت تدبير البشر، إنما علق قلبك بالله يدبر لك كل أمرك، ويبني لك مستقبلك على أنقاض أوجاعك الحالية.

﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ يعرض لهم قضية التقوى ليس بكلمات مجردة إنما يصحبها واقع قد عاش تفاصيله وكانوا هم جزءاً منه، ليروا عاقبة التقوى، ليروا عاقبة اللطف، ليروا صورة حية من معية الله لعبده ألقوه في غيابات الحب طفلاً صغيراً فاجتبه الله حتى صار نبياً مرسلًا وعزيزاً آمراً.

﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ ليس تقوى فحسب إنما تقوى يُجْمَلُهَا الصبر، يُجْمَلُهَا يقين القلب أن ما كان مقدراً لك سيأتيك ولو كان بين جبلين، وما لم يكن مقدراً لك لن يأتيك ولو كان بين جنبيك، وما كان مقسوماً لك سيأتيك رغم ضعفك، وما لم يكن لك لن تناله رغم قوتك، وما من خير قد كُتِبَ لك إلا ويعرف طريقه إليك. في الحديث أن النبي ﷺ قال «لو أن ابن آدم هَرَبَ من رزقه كما يهرب من الموت، لأدركه رزقه كما يُدركه الموت»^(١).

﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ التقوى هاهنا قبل الصبر، وفي آيات أخرى جاء الصبر قبل التقوى، لأن صنوف الابتلاءات التي مرت بيوسف عليه السلام كانت متعددة، بعضها قد يمر بأي أحد كصنيع إخوته به، وبعضها لا يتعرض لها كل امرئ كابتلاء غواية امرأة العزيز، فصبره هاهنا لم يكن مما يألفه الناس إنما هو صبر تجمل بالتقوى حين اختار السجن مظلوماً على الحرية التي قد تلقي المعصية في طريقه كل آن، لذا جاءت التقوى قبل الصبر لأنها هي التي جمّلت الصبر، هي التي طيبت الصبر على نفسه فلا تجد سخطا ولا تدمراً إنما تجد رضا وتوكلاً واستسلاماً لقضاء الله حتى قضى الله أمره وخرج من سجنه عزيزاً.

﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ العاقبة هنا، كل ما ورد في السورة نجده هاهنا، من يتق يجد ثمار تقواه، من يصبر ينل ثمار صبره، يعلنها على أسماعهم، ذاك الصغير الذي ألقيموه في البئر ولم تلتفتوا له قد صبر فكان عاقبة الصبر أن تفضل الله عليه بوافر العطاء.

فلتتش حياتك قرير العين، مطمئن القلب، مُحسن الظن بالله، واثقاً أن كل أقدار الله لك خير، وأنه لا أحد يستطيع أن يغلق باباً فتحه الله لك.

قال تعالى ﴿قَالُوا تَأَلَّه لَقَدْ ءَاثَرَكُ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ ﴿٩٢﴾ أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾ يوسف [٩٣-٩١]

﴿قَالُوا تَأَلَّه لَقَدْ ءَاثَرَكُ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ لا زالت لديهم طاقة للجدال، لكنه جدال قد اعتلاه شيء من خزي النفس، وأي خزي بعدما رأوا مَنْ ألقوه بأيديهم في غيابات بئر في صحراء قاحلة قد صار عزيزاً مُمكنًا مُطاعاً جاءوا يتوسلون إليه أن يتصدق عليهم بالطعام.

﴿قَالُوا تَأَلَّه لَقَدْ ءَاثَرَكُ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بعد سنوات طويلة فهموا أن عطايا الله لن يمنعها كيد كائد ولا حسد حاسد، لذا أعلنوا باستسلام تام إقرارهم بفضله عليهم، وأنه فضل الله الذي اختاره دونهم فأعطاه النبوة والحُكم.

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ عفو مطلق وصفح جميل، لا تأجيل ولا تسويق، لا لوم ولا عتاب، لا توبيخ ولا تعريض، عفو شامل يطلقه يوسف على أسماهم، عفا عن كيدهم به وهو طفل، عفا عن سنوات بُعده عن أبيه، عفا عن سنوات الغربة التي لاقى فيها ما لاقى من ظلم في غيابات السجون، عفا ولم يعقب على سوء صنيعهم، لذا استحضر النبي ﷺ موقفه هذا يوم فتح مكة وقد اجتمع كفار قريش الذين لطالما آذوه وحاربوه فقال لهم "فَإِنِّي أَقُولُ كَمَا قَالَ أَخِي يُوسُفُ: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّحِيمِينَ﴾ (١).

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ ليس كل غضب يستحق أن نجعله خصامًا، الخصام يرهقنا، يكلفنا كثيرًا من الجهد، من الطاقة المبذولة في غير مكانها، من أوقات تضيع في التفكير بلا جدوى، التسامح يجعلنا نمضي بقية الطريق بقلب خفيف. سامح حتى وإن لم تُرد أن تكمل معهم بقية الطريق.

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ كأي بنبي الله يستعرض القصة من بدايتها وكل ما مر به، وقد هان في نظره كل ابتلاء، فمن وجد طريقه إلى الله وجد كل شيء، من وجد طريقه إلى الله لا يرى في الحياة ما يُقلقه. لا خسارة تعدل خسارة عبد تركه الله لنفسه ورفع عنه ستره .

﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ لن تجد شيئاً في شخصية المرء يعدل كونه شخصاً رحيماً، ليس رحيماً مع من يُحب غليظاً مع الآخرين إنما رحيماً مع الكل بلا استثناءات، امنح الود في أوانه لكل طارق فربما من قصدك معلق على كلمة منك ترمم ضعفاً قد اجتاحه، ليكون لك مكيال واحد تدير به تعاملك مع الآخرين، مكيال الحق والوضوح أما التلون فإنه يتقص منك لا يُكملك.

﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ لم يتجاوز فحسب بل عاجلاً يدعو الله أن يتجاوز عنهم، هكذا جملة واحدة قلها فنزلت على قلوبهم برداً، رفعت عنهم الاحساس الذي ملأ قلوبهم في لحظتها بالذل والانكسار، بالشعور بالخزي، بوخز الضمير، بالعجز عن الرد حينما دارت دائرة الزمان، جملة واحدة كانت كافية لإذابة كل إحساس بالخزي قد ارتسم على وجوههم في حينها، جملة واحدة قد يدخرونها لكل أوقاتهم السيئة إذا ما تذكروا ما فعلوا وما آلت إليه الأحداث، قد تكسرنا المواقف وتُجبرنا كلمة طيبة .

﴿يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ لم يتجاوز فحسب بل أتمها بالدعاء لهم، مع مرور العمر أيقنت أن جزءاً كبيراً من السعادة مختزن في العطاء، عطاء الإنفاق بالمال وعطاء المشاعر بكلمة طيبة، بابتسامة، بحفظ ود، بعرفان بجميل، فلا شيء يعدل لحظة طمأنينة تُسعد بها قلبك، وقد قيل « إن العطاء ليس مالاً فقط، وإنما نحفظ ماءً الوجه، ونُطيبُ الخواطر، ونُراعي الكرامات، فإن إراقة ماء وجه إنسان كإراقة دمه » .

﴿أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا﴾ حينما أرادوا أن يقنعوا أباهم أن الذئب قد أكله جاءوا بقميصه، وحينما أراد يوسف عليه السلام أن يُبشر أباه اختار القميص أيضاً، ليكون القميص الذي أدخل عليه أهم سبباً في إدخال السرور عليه .

﴿فَالْقُوَّةُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا﴾ الله قادر على شفائه بلا سبب، بلا قميص، بلا إلقاء، لكن حتى مع المعجزات يرافقها شيء من البذل، من السعي، لن يتحقق شيء في حياتك ما لم تبذل جهدًا في تحقيقه.

﴿يَأْتِ بَصِيرًا﴾ سوف يأتي لكنه أبى أن يأتي إليه بظلمة العين وإن أشرق القلب، فاختر أن يخطو خطواته مبصر العينين مع بصيرة القلب.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تَفَتِدُونَ ﴿٩٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ فَلَمَّا ﴿٩٥﴾ أَن جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالِ أَلَمْ أَقُلْ لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ قَالُوا ﴿٩٦﴾ يَتَّبِعُنَا أَنْتَ وَبَنَاتُنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾ يوسف [٩٤-٩٨]

﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ نور النبوة يفوح عبثًا من قميص يوسف عليه السلام في مصر لتستقبله جوارح يعقوب عليه السلام في الشام، حين يُحدثك أحد عما يستحيل حدوثه عقلاً حدثه عن قدرة الله وتدبيره.

﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ لأجد ليس مجرد خاطرة طرأت، ليس مجرد رائحة عابرة حملتها الرياح، ليس مجرد عطر قد فاح فشمه دونهم، إنما بكل يقين يخبرهم أنه قد أدرك رائحة يوسف عليه السلام لا غيره.

﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ في كل خُطْب يهزمك استنشاق ريح الفرج من بعيد، فالذي رد غائبًا لأبيه بعد سنوات وسنوات سيرد عليك ضالتك وإن كانت نفسك التي بين جنبيك.

﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ يسوق الله قبل البشائر علامات تطمئن بها القلوب من بعد حيرتها، وتأنس بها من بعد قلقها. لو أن بينك وبين أمانيك قدر شعرة، لن تبلغها مادامت حكمة الله في كفك عنها، ولو أن بينك وبين أمانيك بُعد السماء عن الأرض وشاء الله أن تبلغها لبلغتها رغم استحالة نيلها.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيرِ﴾ ^(١) إن كان الإخوة في مصر لم يأتوا بعد فمن قال له ذلك؟ ربما بعض الإخوة قد بقي وبعضهم قد سافر، ربما بعض أبنائهم وربما بعض أهل بلده، وأياً كان القائل فإنه يمثل صنفاً من البشر يحكم على أمور الحياة بنظرة مادية، فيوسف عليه السلام الذي فقد من زمان أنى له أن يعود!

أما يعقوب عليه السلام فقلبه مطمئن بلطف الله فلا حظوظ للحسابات المادية ولا حظوظ للعقل والمنطق، إرادة الله دائماً غالبة، يهيئ الأسباب لعباده ليرزقهم، وقد يرزقهم بلا أسباب.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيرِ﴾ ^(٢) حين تسمع كلمة تؤلمك وتغضب لنفسك تذكر أن هذا نبي كريم وشيخ كبير وها هو ذا يسمع ألفاظاً غاية في الحدة فيأبى أن يرد عليهم، أن يجادلهم، أن يرد الكلمة بالكلمة ويستنزف طاقته في أحاديث لا جدوى منها. بعض الصمت خير.

﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيرِ﴾ ^(٣) حتى القريبون منك قد يُسيئون إليك، قد لا يفهمون ألمك، قد تُتعبك نظراتهم الساخرة، أو كلماتهم الحادة الغليظة، ويبقى الله وحده من يؤنس وحدة قلبك، من يلطف بك حين ترهقك المتاعب، فأودع همومك رباً كفيلاً بها.

﴿فَلَمَّا آتَا جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ ^(٤) البشير من أولاده، من كانوا سبب فقدانه، جاءوا يحملون البشري لأبيهم أن يوسف عليه السلام هو عزيز مصر، لا شر بالكلية، فالذي كذب أولاً بأن الذئب قد أكل أخاه ها هو ذا يحمل قميصه ليبشر أباه أنه لا يزال حياً وقد غدا عزيز مصر، جاء بقميص البشري من حمل قميص الدم الكذب، ففي الأثر أن يهوذا بن يعقوب قال: أنا ذهبتُ بالقميص، ملطخاً بالدم إلى يعقوب فأخبرته أن يوسف أكله الذئب، وأنا أذهب اليوم بالقميص وأخبره أنه حيٌّ فأفرحه كما أحزنه. ^(٥) فهو كان البشير.

﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ جاءت بشرى الفرج لتتوج رحلة الصبر، ويسعد القلب، فلا حزن يدوم، ولا ابتلاء يدوم، ولا معاناة تستمر.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يخاطبهم خطاب الواثق بعتاء الله الموقن بلطف الله، في كل مقام كان يُذكّرهم بيوسف عليه السلام، لأنه يعلم أن رؤياه لم تتحقق بعد، فكان على يقين أن الله سيردّ له ابنه، ويجمع بينهما بعد فرقة.

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ إقرار بالذنب، وطلب للمغفرة، لم يأتوا بها صريحة حياءً من أبيهم فأعرضوا عن طلب المغفرة عما أجزموا في حقه مباشرة وعمموا الطلب باستغفاره لهم من كل ذنوبهم.

﴿إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ إقرار آخر بالخطأ الذي لم يصدر عن جهل إنما بعمد وقصد، فالخاطيء هو الذي يتعمد الخطأ ويقترف الذنب متعمداً ﴿وَأَسْتَغْفِرِي لَذَنبِكُ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ﴾ أما المخطيء هو الذي لا يتعمد فعل الخطأ ويفعل الذنب جهلاً ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ ^(١)

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ حين طلبوها من يوسف عليه السلام سمعوها مباشرة ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ وحين طلبوها من أبيهم أرجأها ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ قال ابن عباس: آخر دعاءه إلى السحر، أي وقت السحر وهو وقت يُجاب فيه الدعاء.

والذي يبدو لي - والعلم عند الله - أنه إرجاء عتاب، عتاب الأب الذي من المفترض أن يتقوى على مصاعب الحياة بأبنائه بعدما كبروا فإذا بهم سبب شقائه ومصدر أوجاعه، إنه عتاب الأب الذي سامح حتى النهاية، لم يعب، لم يوبخ، لم ينهر، بل رضي وصبر، ألا يحق لهذا الأب أن يعاتبهم على شيء مما صنعوه به؟

أما يوسف عليه السلام فقد عفا في وقتها فنظرة الأخ لأخيه غير الأب الذي يرى في ابنه سنداً يتكى عليه في شيخوخته .

﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ يا للطف الله بإخوة يوسف عليه السلام، استغفر لهم نبيان، أبوهم وأخوهم.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ١١﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَأْتِبَتِ هَذَا تَاوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ يوسف [٩٩-١٠٠]

﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾ تُرى كيف كان اللقاء بعد الفراق؟ الوصل بعد الغياب، كيف كانت النظرات؟ كيف كانت نظرات الابن لأبيه بعد سنوات غياب لاقى فيها ما لاقى من ابتلاءات عصفت بسكينة الحياة؟ كيف كانت نظرات يعقوب عليه السلام ليوسف؟ ذاك الذي لم يره مُد كان طفلاً صغيراً، يراه الآن رجلاً كبيراً ونبيّاً كريماً وسيداً عزيزاً متصرفاً في شئون دولة، أيكي على سنوات الفراق، أم ييكي من لطف الله به، أم ييكي من فرحه بعطايا الله لابنه؟

آيات مفعمة بالمشاعر، آيات بحاجة إلى أن تترك خيلتك لترسم تفاصيل اللقاء، تعابير الوجوه، القبض على الأيدي، أحضان الشوق من غائب لغائب، آيات تستنطق مشاعرنا كي نستشعر معية الله في كل آنٍ، ألا نعيب على الأقدار، أن نرضى بقلوبنا وإن جهلنا علة حدوث الأشياء.

﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ تجاوز عن الحديث عن واقعة البئر لئلا يُكدر صفو اللقاء على أبيه وإخوته فأبى أن يذكرهم به، رغم أن البئر كان أشد خطراً من السجن، ففي البئر انقطعت كل أسباب الرزق الظاهرة بخلاف السجن الذي فيه طعام وإيواء.

﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ﴾ حين ينتقل المرء من ابتلاء إلى رخاء عليه ألا ينسى فضل الله عليه، إحسان الله عليه، لطف الله به ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي﴾ رغم أن دخوله السجن كان بطلب منه انقضاء الفتنة ﴿قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ﴾^(١) لكن خروجه منه كان برؤيا ساقها الله للملك في ظلمات الليل لتكون سببا في خروجه طيب الذكر بريئا عفيفا ثم عزيزا لمصر، فكل هذا العطاء من إحسان الله به ، قد تخونك بعض اختياراتك في الحياة ويبقى لطف الله لا يخذلك أبداً.

﴿مَنْ بَعْدَ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ تكملة التلطف والتودد، فيُرجع ما حدث من إخوته إلى نزع الشيطان لا إلى كيد الإخوة، لم يتحدث عن ظلمهم له، عن كيدهم به، إنما جعل نفسه وهم سواء ﴿بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ والشيطان هو من أفسد بينهم، أدب نبوي ألا تخرج إنساناً قد أقر بخطئه ، لا تُجمله، لا تتكلم كلمة تجعل أخاك يجمّر وجهه خجلاً.

في الأثر: « لا تحمروا الوجوه» أي لا تُثقل على أحد بالكلام حتى يحمر وجهه خجلاً.

﴿مَنْ بَعْدَ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾ لعلنا نذكر حديث أبيه الأول معه عن نزع الشيطان، لم يكن حديثاً عادياً بل تربية غرسها في قلبه فشَبَّ عليها، فما يُحفر في قلب الصغير تعجز يد الزمان عن محو آثاره. ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾

﴿وَقَالَ يَتَابَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ قد تختار لنفسك طريقاً، ثم تتحول أحداث حياتك إلى طريق آخر رغماً عنك، لسببٍ ما لا تعلمه، في حينها لا تسخط، لا تتوقف عن السير، سوف تعلم في نهاية الطريق أن ما اختاره الله لك خير مما اخترت لنفسك.

﴿وَقَالَ يَتَابَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِنْ قَبْلُ﴾ تغاضى عما يُعَكِّرُ صفو لقائه بأبيه وإخوته، تغاضى عما ينغص عليهم فرحة اللقاء بعد الفرقة، فلم يذكر شيئاً مما صدر من أفعالهم معه، إنما ذكر الرؤيا الحسنة التي قصها على آذان أبيه وهو صغير، يحمل الذكريات الطيبة وينشرها، ويتغاضى عن الذكريات السيئة ويكتمها لتمضي الحياة.

﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ جعلها، إنها خاضعة لإرادة الله، لتدبير الله، لمشئته الله الذي هيأ لها الأسباب حتى تحققت.

﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ ساق إليه الرؤيا، وعلمه تفسيرها، وحققها له في حياته، هذا هو عطاء الله. فالعوض الذي يأتي من الله مهما تأخر يأتي مُذهلاً يجبر كل كسر قبله.

﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ كل دعاء علق في قلبك وردده لسانك لا تتعجل إجابته ولا تقنط من رده، سيأتي اليوم الذي تلامس فيه أحلامك واقعاً تحياه فطمئن مبتسماً، تُحدث نفسك أن قد جعلها ربي حقاً، لتذرف الدمع فرحاً بعطاء الله، فما منع الله عنك شيئاً تراه عظيماً إلا أعطاك ما هو أعظم منه، وما فقدت شيئاً لم تتوقع خسارته إلا رزقك الله ما لم تتوقع امتلاكه.

﴿قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا﴾ هناك أشياء نحتاجها وأشياء نتمناها وبين الاحتياج والأمنية يُدبر الله لنا ما يناسبنا، فما قذف الله في قلبك أمانة لكي يجعلك تتحسر إنما يؤجلها إلى حين، حتى إذا ما جاءت بعد صبر وعناء ومشقة استشعرت قدرها فحافظت عليها، ولو جاءت بلا عناء لرحلت هباء.

﴿إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ﴾ لطيف في الأمر كله، ما يعلم المرء علته وما يجهل، بعدما رأينا نهاية الأحداث أيقنا أن كيد الإخوة والإلقاء في البئر لطف، وكيد النسوة والإلقاء في السجن لطف، وأنه لولا الابتلاءات ما صار عزيزاً، هكذا هي أقدار الله كلها لطف، منها ما نعلمه في حينه ومنها ما نعلمه بعد حين ومنها ما قد نفارق الحياة ولا نعلمه.

﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ نبي كريم ذو نسب كريم ، ويدعو أن يُتوفَّى على الإسلام، حين تكثر من الطاعات أكثر من اتهام نفسك بالتقصير لئلا يسكنها العُجب فتهلك.

﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ توفني مسلمًا بالقلب قبل القلب، إسلامًا في القول و الفعل والسلوك قبل المظهر ، وألحقني بال صالحين الذين سبقوني إليك فنالوا أجر صلاحهم .

﴿تَوَفَّنِي مُسْلِمًا﴾ مسلمًا، ليس شرطًا كي تنال حُسن الخاتمة أن تموت ساجدًا، أو تموت وفي يديك مصحف، فالنبي ﷺ مات على فراشه، وأبو بكر مات على فراشه، وخالد بن الوليد الذي قضى حياته مجاهدًا مات على فراشه، حُسن الخاتمة أن تموت مُسلمًا مستسلمًا لأمر الله ، أن تموت بلا مظلمة يطلبك بها أحد، أن تموت ولا حاجة لك في الدنيا إلا رغبة في مزيد من الطاعة .

وإذا البشائرُ لم تحن أوقاتها	فليحكمة عند الإله تأخرت
سيُسوقها في حينها فاصبر لها	حتى وإن ضاقت عليك وأقفرَتْ
تجري دموع اليأس منك وربما	عند الصباح ترى البشائرُ أنورَتْ
فغداً سيجري دمع عينك فرحةً	وترى السحائب بالأماني أمطرَتْ
وترى ظُروف الأمس صارت بلسماً	وهي التي أعيَتْك حين تعسَّرت
وتقول سبحان الذي رفعَ البلا	من بعد أن فُقد الرجاء تيسرت



موسى عليه السلام مع الخضر

قصة موسى عليه السلام مع الخضر جاءت لتجيب على كثير من الأسئلة التي تتردد في عقولنا ولا نجد لها جوابًا شافيًا، أو تلك التي نعجز عن طرحها علانية كي لا نفهم بشكل خاطئ، جاءت لتشرح لنا بأسلوب عملي كيف هي أقدار الله؟

● كيف يكون الأمر في ظاهره شرًا محضًا وفي داخله خير كثير؟

● كيف يكون الابتلاء الذي يؤلنا مصدر سعادتنا؟

● كيف يكون المرض الذي يعتصرنا خيرًا لنا؟

● كيف يكون الأسى والحزن الذي في ظاهره ضراء هو في حقيقته سراء؟

● كيف نغير نظرتنا للحكم على الأشياء التي نراها، على المواقف التي نمر بها والأحداث التي نتفاعل معها؟

هي قصة جاءت لتشرح لنا إذا ما أردنا أن نحكم على الأشياء فلا نضع حدود فهمنا لها كحد مطلق، قد يكون خلفها معرفة أكبر من أفهامنا، قد يكون فيها حكمة لم تتكشف لنا بعد، قد يكون الخير الذي تحمله لم يأت وقته بعد.

هي قصة جاءت لترسم لنا صورتين لأغلب ما نراه في حياتنا:

● الصورة الأولى: ما يظهر لنا ونتفاعل معه.

● والصورة الثانية: ما يخفى عنا وقد تكشفه لنا الأيام وقد لا نفهمه.

فالصورة الأولى ترسم لنا أقدار الله الظاهرة، سفينة يُتلفها الخضر، غلام يقتله، وجدار بينه. أما الصورة الثانية فترسم لنا تدبير الله الخفي عنا، الجزء الذي لا يظهر لنا في حينه، التدبير الإلهي الذي يفوق قدرة تخيلنا، لنجد أن خرق السفينة كان سببًا لثلا يأخذها الملك غضبًا فبقيت لأصحابها ولو لم تُحرق لما بقيت، وقتل الغلام كان سببًا لثلا يرهق والديه المحسنين، ربما يكونا تألما في حينها كثيرا ولكن ألمهما لفساده في كبره أشد، بناء الجدار في قرية أبت أن تضيفهما لثلا يضيع كنز اليتيمين، فإذا ما سقط الجدار وظهر الكنز أخذه هؤلاء اللئام الذين أبوا أن يقدموا للضيف طعامًا أو شرابًا أتراهم يراعون الله في مال يتيمين؟! الصورة الكاملة قد لا تتكشف لنا في أغلب المواقف التي نقابلها، نأخذ بظاهر الحال ونحكم على أساسه، فإذا كنا من ركاب السفينة لعبنا على الخضر تصرفه، وقد تكون أم الغلام قد بكته بكاء لم ينقطع وربما ماتت وهي ناقمة على قاتل ابنها الصغير.

فإذا ما فهمت دلالات هذه القصة فهمت كثيرًا مما تراه في حياتك ومما يث في قلبك حيرة، فهمت كثيرًا مما تعرضت له وآلم قلبك في حينه ثم مع الأيام عرفت أنها آلام جلبت بعدها خيرًا ولولاها ما رأيناها، فهمت كيف يسير قدر الله؟ فهمت أن كل شيء يأتي في توقيته الذي يراه الله مناسبًا، وأن ما قدّر الله له البدء سيبدأ بأدنى مجهود منك، وما قدّر الله له الانتهاء سينتهي، فهمت أن في بعض الأمور التي تعلق بها نفسك مفسدة ولو حرمك الله منها في مبدأ الأمر لظننت أن الله قد حرمك خيرًا كثيرًا فتبقى حتى تركها وأنت موقن أن الخير كله في تركها لا في بقائها، فهمت أن كل أقدار الله خير وإن لم تعلم الحكمة من ورائها، فإذا ما استقر في نفسك هذا اليقين سلم القلب أمره لمن بيده تدبير الأمر، ورضي بتدبيره فتهذا القلوب من حيرتها، ليصبر المبتلى، ليتعلق القلب بآجل وعد الله، ليستعين المؤمن بلطف الله الخفي فيتصبر به على فواجع الأيام، لينطق اللسان بظن القلب ﴿لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾^(١)

والقصة في سورة الكهف، وهي سورة مكية نزلت والفئة المؤمنة تُبتلى وتُفتن في دينها ويطالبهم النبي ﷺ بالصبر، فتأتي الآيات لتربي في نفوس المؤمنين النظر إلى مآلات الأمور، إلى آجل الأمر لا عاجله، إلى نصر آت لكن وقته لم يحن بعد، ولو جاء في ضعفهم ما تمسكوا به ولا قاموا بأمره، فلا يتعجلون نصر الله لهم، ولا يستبطنون أخذ الله بالعقاب لمن ظلمهم، إنما يثبتون على إيمانهم رغم ما يجدون من تعذيب المشركين لهم، وأن يُحسنوا الظن بالله، فجاءت قصة موسى ﷺ مع الخضر لتتعلق قلوبهم بآجل وعد الله، لتعلم قلوبهم بأن ما مُنع عنهم الآن سيُدرّكهم بعد حين، أنهم كغلامي المدينة اليتيمين لو وجدا الكنز في صغرهما ما انتفعا به، فلو انتصروا في جولة على قريش في بداية الدعوة ما كانوا ليقوموا بتوابعها، فربما استأصلتهم كلهم قتلاً والدعوة في بدايتها لم تقو على الصمود بعد، لذا قبل أن يسوق الله قصة موسى ﷺ مع الخضر قال سبحانه ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابُ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلًا﴾^(٢) ﴿٥٨﴾ فأمر الله يحدث بقدر، وأمر الله آت لا محالة، وأمر الله لا راد له، وأمر الله لا مفر منه، إن الله لا يعجل بعجلة أحد من الناس، فكل شيء عنده بقدر .

١ الطلاق [١]

٢ الكهف [٥٨]

وسبب تسمية الخضر بهذا الاسم قد ذكره النبي ﷺ فقال «إِنَّمَا سُمِّيَ الْخَضِرَ أَنَّهُ جَلَسَ عَلَى فَرْوَةٍ بَيْضَاءَ، فَإِذَا هِيَ تَهْتَزُّ مِنْ خَلْفِهِ خَضِرَاءَ» (١) الفروة البيضاء هي الأرض اليابسة إذا جلس على أرض قاحلة نبت فيها الزرع، وقيل أنها الهشيم من نبات الأرض، إذا جلس عليه اخضرَّ بعد يسسه، وهي مُعجزة أجراها الله على يديه، وقد قيل أنه ولي من الأولياء وقيل أنه نبي من الأنبياء، ولعل الأظهر أنه نبي، ففي ختام قصته مع موسى عليه السلام أخبره أن ما فعله لم يكن من رغبة شخصية أو اجتهد منه في تأويل الأحداث التي وقعت إنما أمر من الله له بفعله ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ أما مناسبة القصة ففي صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال : قَامَ مُوسَى خَطِيبًا فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقِيلَ لَهُ: أَيُّ النَّاسِ أَعْلَمُ؟ قَالَ: أَنَا، فَعَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِ إِذْ لَمْ يَرُدَّ الْعِلْمَ إِلَيْهِ، وَأَوْحَى إِلَيْهِ: بَلَى عَبْدٌ مِنْ عِبَادِي بِمَجْمَعِ الْبَحْرَيْنِ، هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ، قَالَ: أَيُّ رَبِّ، كَيْفَ السَّيْلُ إِلَيْهِ؟ قَالَ: تَأْخُذُ حُوتًا فِي مِكْتَلٍ، فَحَيْثُمَا فَقَدْتَ الْحَوْتَ فَاتَّبِعْهُ.... (٢)

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَتْلِهِ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ۖ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ۖ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِقَتْلُهُ إِتَيْنَا عَدَاءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ۖ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخَرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ ۖ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ۖ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ فَارْتَدَّا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ۖ﴾ الكهف [٦٠-٦٤]

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَتْلِهِ﴾ الفتى هو يوشع بن نون نبي من أنبياء بني إسرائيل، بعث في بني إسرائيل بعد موت موسى عليه السلام فقام بأمرهم، وكان رفيق موسى عليه السلام في رحلته حتى لقي الخضر. في الحديث أن موسى عليه السلام قال لفتاه : لا أَكْلُفُكَ إِلَّا أَنْ تُخْبِرَنِي بِحَيْثُ يَفَارِقُكَ الْحَوْتُ، قال: مَا كَلَّفْتُ كَثِيرًا. (٣)

﴿لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ أي لا أزال سائرًا في أمري هذا حتى يقضى ولن يثني عليّ شيء وإن طال أمره علي وإن لحقتني منه المشقة.

- | | |
|---|----------------|
| ١ | البخاري (٣٤٠٢) |
| ٢ | البخاري [٤٧٢٧] |
| ٣ | البخاري (٤٧٢٦) |

﴿أَوْ أَمْضَى حُقْبًا﴾ أي: زَمَانًا وَدَهْرًا، وكل متعلق بغاية ينشدها تهون عليه الصعاب التي يلقاها في طريقه حتى إن كانت الصعاب هذه تأخذ من عمره لا من طاقته فحسب، فالذي لديه غاية ينشدها لا يضيع عمره هباءً.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا﴾ المكان الذي يلتقي فيه البحرين فيصيران بحرًا واحدًا، وقد يكون هذا المكان عند مجمع خليجي العقبة والسويس بأرض سيناء، ومجمع البحرين أن يجتمعا في بحر واحد لا أن يلتقيا كما بين البحر والمحيط، فهذا التقاء لا اجتماع . (والعلم عند الله)

﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ كانت العلامة الوحيدة لمكان الالتقاء بالخضر هي أن تُرد الحياة للحوت وحتى تظهر تلك العلامة فلن يتوقف موسى عليه السلام عن السير .

﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ كان الحوت مع يوشع، وهو الذي نسيه، فأضيف النسيان إليهما للصحبة التي جمعتهم، فإذا ما اجتمع قوم في سفر كان شأن أحدهما شأن الجميع

﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ مضيا في طريقهما حتى أدركا صخرة استراح عندها نبي الله ، فأخذته سنة من النوم، وما إن استيقظ حتى واصل رحلته، مما جعل فتاه ينسى أن يخبره بأن الحوت قد دبت فيه الحياة وخرج من المكتل إلى البحر، وكانت هذه هي الآية التي أخبر بها نبي الله موسى عليه السلام فكان الحوت دليلاً على موضع الخضر. في الحديث: فانطلق وانطلق معه فتاه وهو يوشع بن نون، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوت في المكتل، فخرج منه فسقط في البحر ﴿فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾ ، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء، فصار عليه مثل الطاق، فلم يستيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقيّة يومهما وليلتهم^(١)

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ نسي الفتى أن يخبر نبي الله بأمر الحوت فمضى موسى عليه السلام في طريقه لأن الآية التي يقصدها يعتقد أنها لم تحدث بعد فسارا نهارهما وليلهما حتى أصبحا.

١ رواه البخاري (٤٧٢٥) واللفظ له، ومسلم (٢٣٨٠). مِكْتَل: أي: قُفَّةٌ كَبِيرَةٌ / الطاق: أي: النَّفَقِ

﴿ قَالَ لِفَتَاهُ إِنَّا عَدَاءُكَ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾ من شدة تعلقه بالأمر سار يوماً بليلة متصلين ثم تذكر الطعام بعدما مسه التعب. في الحديث : «وَلَمْ يَجِدْ مُوسَى مَسًّا مِنَ النَّصَبِ حَتَّى جَاوَزَ الْمَكَانَ الَّذِي أُمِرَ بِهِ.» لم يصبه التعب إلا بعدما جاوز المكان الذي يقصده . دائما انتبه لرسائل الله إليك في كل موقف .

﴿ قَالَ لِفَتَاهُ إِنَّا عَدَاءُكَ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾ بالجمع لا الأفراد، هكذا هو أدب النبوة، فالمشقة لم تقع عليه وحده إنما أصابت غلامه معه، هكذا يكون تقدير جهد الآخرين، لا انتقاص أعمالهم، فقد يكون لوقع الكلمة الطيبة على النفس ما يزول به كل تعب وجده.

﴿ قَالَ لِفَتَاهُ إِنَّا عَدَاءُكَ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾ تلطف لا حدود له، يشاركه في كل شيء حتى في التعبير عما بداخله، قد ينجل الفتى في التعبير عن تعبهِ فإذا بنبي الله يشاركه الإحساس، كما يشاركه الطعام، القيادة لم تكن يوماً زجراً وأمرًا ونهياً وحياة جافة معدومة الإحساس، القيادة مشاركة ، القيادة إنسانية ، القيادة أخلاق .

﴿ قَالَ لِفَتَاهُ إِنَّا عَدَاءُكَ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾ ليس التوكل أن يخوض المرء غمار طريق لا يعرف مسالكه ولا يحمل معه زاداً يكفيه، ظناً منه أنه يُحسن التوكل على ربه، إنما اتخذ الزاد في الأسفار هو عين التوكل، فهذا موسى عليه السلام نبي الله وكرامته من أهل الأرض قد اتخذ الزاد مع معرفته بربه .

﴿ لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴾ جميل هو أدب الأنبياء، جميلة هي بساطتهم، عبّر عما شعر به من تعب بالفاظ غاية في البساطة والرقّة، لا ضجر ، لا تأفف، لا إرهاقاً للنفس فوق طاقتها، نبي من أولي العزم ويُعبّر عن تعبهِ حينما أصابه التعب، يعبر عن شعوره بالجوع حينما شعر به ، التكلف يُغيّر من طبع المرء، لذا في كل قصص الأنبياء نجد البساطة عنوان معاملاتهم، رأيناها في قصة يوسف عليه السلام حاضرة ظاهرة قوية، ونراها في أغلب مواقف قصة موسى عليه السلام النبي القوي، لا يرى حرجاً أن يُعبّر عما بداخله ولو كان رغبة بسيطة في الراحة بعد التعب أو الطعام بعد الجوع .

﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ لقد لقينا من سفرنا هذا عناءً وتعباً، عبّر عما شعر به، إخبار بالحال لا شكوى، ولم يجد النّصب في جميع سفره حتى جاوز الموضع الذي يريده؛ ليتذكر الحوت ويرجع إلى مطلبه.

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ﴾ القائل هنا الفتى يوشع بن نون، يقصد الصخرة التي نام تحتها موسى عليه السلام وتحرك الحوت واتخذ له طريقاً في البحر، وقد كان ينوي إخبار نبي الله بعدما يستيقظ لكنه نسي، ومضيا يكملان الطريق، فلما أراد نبي الله الراحة تذكّر الفتى أمر الحوت فأخبره أنه علينا أن نقصد الصخرة التي كنا عندها فهناك كانت الآية التي تُريدها .

﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾ في رحلتها هذه كانت ركيزتها الأساسية هي الحوت، فالمكان الذي يقصدانه علامته أن يفقد الحوت، ومع ذلك لما فقد الفتى الحوت نسي أن يخبر نبي الله فذكر الخطأ وأعقبه بتقديم العذر.

إذا ما أخبرك أحد يوماً أنه نسي أمراً لا تلمه، فقد يكون في نسيانه حكمة لا تعلمها وتكشفها لك الأيام، وإذا ما اعتذر لك أحد عن تقصير فاصفح واعف فها هو ذا نبي الله يعلم أنه فقد العلامة التي يريدها وسوف يعود إلى الخلف مسيرة يوم كامل، ولم يلمه أو يعاتبه إنما عفا وصفح وتجاوز، ومضيا في طريقها نحو الغاية التي يقصدانها، فليس هذا مقام عتاب .

﴿فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ﴾ في ظاهره مشقة وفي باطنه رحمة، ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ هكذا يتعامل المؤمن مع أقدار الله، قد يتليك الله بأمر ويسوق لك بعده خيراً لا تتوقعه .

﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ قد يكون من قول الفتى وهو يقص الخبر لموسى عليه السلام، فيصف له ما حدث للحوت حينما دبت فيه الروح وسلك طريقه نحو البحر بشيء فيه دهشة وتعجب، وقد يكون إخباراً من الله - تعالى - لتعجب موسى عليه السلام حينما سمع وصف الفتى للحوت حينما دبت فيه الحياة، أو تعجب موسى عليه السلام من نسيان الفتى إخباره بما رأى رغم ما فيه من الإعجاز الذي يظل عالقاً بالذهن لا يُنسى .

﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغُ﴾ القائل هنا موسى عليه السلام يخبر فتاه أن ذلك ما كنا نريده منذ البداية، أن نفقد الحوت حتى نعرف المكان الذي نجد فيه العبد الصالح الذي أقصده برحلتى هذه .
 ﴿فَازْنَدَا عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾ رجعا يتبعان آثار مشيهما حتى انتهيا إلى الصخرة التي فقد الحوت عندها، لم يفكر في طريق مختصر ، لم يفكر في وسيلة أسرع ، بل تتبع آثار مشيه ليصل إلى نفس المكان الذي فقد فيه، بعض الأمور لا تعالجها إلا البساطة، فقد يكون في التفكير الزائد تعقيد زائد .

قال تعالى ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا﴾ ٥٥ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عَلَّمْتَ رَسُولًا ٦٦ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ٦٧ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِط بِهِ خُبْرًا ٦٨ قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ٦٩ قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ٧٠ ﴿الكهف [٦٥-٧٠]﴾

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا﴾ في الحديث : فَلَمَّا انْتَهَيَا إِلَى الصَّخْرَةِ، إِذْهُمَا بَرَجُلٍ مُّسَجًى بِشُوبٍ، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ مُوسَى، قَالَ: وَأَنْتَى بِأَرْضِكَ السَّلَامُ! فَقَالَ: أَنَا مُوسَى، قَالَ: مُوسَى بَنِي إِسْرَائِيلَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: هَلْ أَتَبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عَلَّمْتَ رَسُولًا؟ (١)

عاد موسى عليه السلام يتبع آثار مشيه حتى وصل إلى الصخرة التي فقد عندها الحوت فوجد رجلاً مغطى بشوب فألقى موسى عليه السلام فتعجب الخضر حينما سمع التحية وهو في بلد لا تعرف هذه التحية، ولم يكن يعرف أنه نبي الله بعد، هذا الذي علم بشأن السفينة والغلام والجدار لم يعلم بشأن نبي الله قبل أن يُخبره، إنه لا يعلم الغيب إنما علم ما آتاه الله علمه، فمعرفة مقيمة بما آتاه الله من علم.

﴿ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِمَّا لَدُنَّا عِلْمًا﴾ الرحمة أولاً وبعدها العلم، وكأن العلم لا يؤتي ثمرته إذا جاء من قلب قاسٍ، الرحمة هي التي تيسر للعالم التعامل مع الناس، هي التي تكسر الحواجز ليقبلوا عليه ، قد يحوي عقل العالم علماً هائلاً لكنه لا يستطيع أن يفيد به الخلق؛ لأنه وضع أسواراً من الغلظة بينه وبين الناس.

﴿ءَاتَيْنَاهُ﴾ ﴿وَعَلَّمْنَاهُ﴾ إذا ما أنعم الله عليك بموهبة فلا تستخدمها في معصية فإنك لم تؤتها بفطنتك إنما هي من عطاء الله، إذا ما تميزت في مجال ما فلا تنسب الفضل لاجتهادك وحده، لتعبك وحده، لذكائك وموهبتك وإبداعك وحده، فإنك لم تؤت كل هذا بكفاحك إنما بعطاء الله لك وإنما أنت مُستخدم له قائم عليه، وإن لم تحسن القيام به فإن سلبه منك أمر يسير، وكم من قصة قرأنا عنها وسمعنا بها عن تحول النعم إلى نقم حينما تمادى المرء واغتر بما في يديه من نعم الله، من عطاء الله، من لطف الله فاعتقد واهماً أنه أهل لها وغدا كقارون في إنكار فضل الله عليه ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾^(١)

﴿ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ آية مخاطب النفس ألا تغتر، أن تكتسي بالتواضع، أن يتنعم المرء بما آتاه الله من نعم تنعمًا لا تجبر فيه، لا تكبر فيه، لا غرور فيه، لا ظلم فيه، فمن أعطى قادر على السلب.

﴿قَالَ لَهُ مُوسَىٰ﴾ ابتداء موسى عليه السلام الطلب لأنه الذي يحتاج أن يتعلم، ولتطيب نفس الخضر ليقبل، ولن تجد طالب علم تحلى بالتواضع إلا ويسر الله له من يعلمه أكثر مما كان يأمل.

﴿هَلْ أَتَيْتُكَ﴾ الذي يطلب أن يصير تابعًا هو نبي من أولي العزم، لم يأت للخضر سائلًا، لم يأت للخضر ممتحنًا له في علمه، بل خلع ثوب الدنيا كله، وجاءه طالب علم يرجو أن يصير له تابعًا، وهو من هو في الإمامة والفضل والمنزلة، وهو من هو في العلم والفهم والمعرفة.

﴿هَلْ أَتَيْتُكَ﴾ الذي يريد العلم لن يناله من ساعة قضاها ممسكًا بكتاب، لن يناله من جلسة أمام عالم، لن يناله من نقاش عابر مع مختص في مجال ما، الذي يريد العلم يناله بالجهد والتعب والسعي، يناله بالالتزام والصحبة والوقت الذي يبذله في سبيل طلب العلم.

﴿عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ هو علم اختصه الله به، فالعلم الذي أوتيهِ الخضر ليس كعلم النبوة الذي أوتيهِ موسى عليه السلام، إنما هو علم خصه الله به كعلمه بشأن الملك الذي ينتظر السفينة فإن كانت صالحة أخذها، وبشأن الغلام إن كبر صار عاقاً أرهق والديه، وبشأن الجدار الذي تحته كنز ليتيمين، فكل ذلك علم غيبي لا يطلع عليه الناس ولم يعلمه موسى عليه السلام وهو نبي من أولي العزم.

﴿عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ في الحديث (قال له الخضر: يا موسى، إِنَّكَ عَلَىٰ عِلْمٍ مِّنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَكَ اللَّهُ لَا أَعْلَمُهُ، وَأَنَا عَلَىٰ عِلْمٍ مِّنْ عِلْمِ اللَّهِ عَلَّمَنِيهِ اللَّهُ لَا تَعْلَمُهُ) ^(١)

﴿عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ قال السعدي في تفسيره: كان قد أُعطي من العلم ما لم يُعط موسى عليه السلام، وإن كان موسى عليه السلام أعلم منه بأكثر الأشياء، وخصوصاً في العلوم الإيمانية والأصولية؛ لأنه من أولي العزم من المرسلين، الذين فضّلهم الله على سائر الخلق بالعلم والعمل.

﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ قبل أن يرى شيئاً من طبيعة هذا العلم يُخبره أنه فوق طاقة تحمله، فوق طاقة صبره حتى يفهم أسبابه.

﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ أخبره أولاً أنه لن يصبر، وأتبعها ثانياً بالتماس العذر له، فقد ترى أمراً لا تفهم دوافعه فتصرف على نحو ما تفهم في حدود معرفتك.

﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ قد يتصدر المرء لأمر لا طاقة له به وحينما تغلبه أمواج الحدث لا يلجأ للمشورة وطلب الرأي إنما يتصرف وفق فهمه وحده، في حينها تكون الهلكة، وقد يتصدر المرء لطلب العلم فتجده يدب بقدميه خطوة في كل وادٍ ولا يمكنه في مجال ويعتقد أن هذا أجمع للمعرفة.

١ رواه البخاري (٤٧٢٧) واللفظ له، ورواه مسلم (٢٣٨٠).

﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ يخبر العبد الصالح نبيًا من أولي العزم أنه يخشى ألا تكون له طاقة على تحمل ما لم يعرفه، ورغم ذلك مضى نبي الله في الأمر وتعلّم ممن هو أقل منه في الفضل والمكانة، فلا أحد أكبر من أن يتعلم، ولا أحد أقل من أن يكون لديه شيء يُعلّمه. إذا ما سعى المرء لحصد قشور المعرفة لن يدرك التميز، فالتميز يأتي بالصبر على مشقة طلب العلم وذلك بالتخصص أولاً ليعرف به أسرار العلم وضوابطه.

﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا﴾ خص الصبر بالذكر وكان العلم قرين الصبر، وذلك لأن المتعجل لا يحصل على معرفة، يريد جني الثمار قبل أوان الحصاد، فتكون ثماره أقل نضجًا، وأقل فائدة.

﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ تعددت المشاهد التي قصها الله علينا من حياة نبي الله موسى عليه السلام، وفي كل مشهد فيها نرى جانبًا جديدًا من شخصيته، حتى لا يظن ظان أن الشدة دأبه الدائم، رأيناه في حديث المرأتين عند البئر شخصًا محبًا للخير أيًا كان الحال الذي هو عليه، ورأيناه القوي في الحق في جانب آخر من شخصيته كما في حديثه مع فرعون: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَفْرَعُونَ مَثْبُورًا﴾ ^(١) ونراه هنا شغوفًا بطلب العلم لأقصى درجة، يعرض على الخضر كل ما يُرغبه في قبول صحبتته، يتمسك بهذه الصحبة حتى أبعد حد، يعزم على التحلي بالصبر والطاعة فإذا ما استحضرت شخصية موسى عليه السلام في كل موقف وجدت جانبًا جديدًا أكثر إشراقًا، ففي أمور الدنيا حلیم رحيم، وفي الحق قوي شديد، وفي طلب العلم حريص متواضع، فسبحان الذي اختص موسى عليه السلام بفضله ووهبه كل هذه الصفات.

﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ مبدأ الأمر يستعين بالله على تحمل ما لم يقو على فهمه ﴿سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ وثانيًا يخبره أنه سيجتهد قدر استطاعته

أن يكون خير صاحب يُطيع ولا يعصي، يُقبل ولا يُدبر، ﴿وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ يبذل المرء السعي قاصدًا رضا الله ويسأله القوة في التحمل والتوفيق في النتائج .

﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا﴾ يستعين بالله في أمره كله، يُقدّم حسن الظن ، يتفائل ، يثق في معية الله، يستبشر خيرًا بهذه الصحبة، يفعل كل هذا وهو النبي المؤيد بوحى السماء، ويجتهد في إرضاء عبد صالح دونه في المنزلة. هكذا هم صادقوا النوايا يترفعون عن طلب الدنيا ويلتمسون النجاة في كل آن .

﴿قَالَ فَإِنْ أَتَبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ قَبِلَ الخضر صحبة موسى عليه السلام لكنه اشترط عليه ألا يتعجل السؤال عن أي شيء حتى يخبره بنفسه .

﴿قَالَ فَإِنْ أَتَبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ رسالة إلى كل من دأبه الاعتراض على كل أمر لم يحط به خبرًا، إلى من يحمل رأيا في كل قضية تُعرض عليه، إلى من يحمل حلاً لكل مشكلة وإن لم يكن مُلمًا بتفاصيلها، لا تتعجلوا مصادرة كل رأي يخالف رأيكم، لا تتعجلوا الحكم على أمر لم تستوثقوا من خبره، فقد تسألون وتُجابون بما يكشف لكم ما جهلتم، وقد يخفى عليكم أمر يعلمه من هو دونكم منزلة وفضلاً ومكانة .

قال تعالى ﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾﴾ الكهف [٧٣-٧١]

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ﴾ انطلقا سويا يمشيان على الساحل فمرت سفينة فأشار إليها الخضر فعرفه ركاب السفينة فحملهما معهم بلا أجر .

في الحديث : فَانْطَلَقَا يَمْشِيَانِ عَلَى سَاحِلِ الْبَحْرِ لَيْسَ لَهُمَا سَفِينَةٌ ، فَمَرَّتْ بِهِمَا سَفِينَةٌ فَكَلَّمُوهُمُ أَنْ يَحْمِلُوهُمَا ، فَعَرَفَ الْخَضِرُ ، فَحَمَلُوهُمَا بِغَيْرِ نَوْلٍ (١)

وقبل أن يبدأ الخضر في أول موقف مع موسى عليه السلام أراد أن يلفت انتباهه إلى أن ما سيراه ليس من قبيل علمه، إنما هو فيض من عطاء الله له .

في الحديث : **فَجَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ عَلَى حَرْفِ السَّفِينَةِ ، فَتَقَرَّ نَقْرَةً أَوْ نَقْرَتَيْنِ فِي الْبَحْرِ . فَقَالَ الْخَضِرُ يَا مُوسَى ، مَا نَقَصَ عِلْمِي وَعِلْمُكَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ إِلَّا كَنَقْرَةِ هَذَا الْعُصْفُورِ فِي الْبَحْرِ . (١)**

وهذا مثال لتقريب الأذهان أي أن علم كل الخلائق بالنسبة لعلم الله مثل ما أخذ هذا العصفور من البحر .

﴿ **حَرَقَهَا** ﴾ عمَدَ إلى لوح من ألواح السفينة فاقتلعه منها وألقى به في البحر، لم يخبر موسى عليه السلام مسبقاً أنه سيفعل ذلك، وكان قد اشترط عليه ألا يُعَقَّبَ على ما سوف يراه حتى يخبره بخبره، لكن موسى عليه السلام ما إن رأى ضرراً وقع على أناس لا ذنب لهم، بل إنهم من نبل أخلاقهم قد حملوهم معهم في سفينتهم بلا أجر إكراماً للخضر أيكون هذا هو الجزاء؟! فلم يحتمل الصبر .

في الحديث: فقال له موسى: **قَوْمٌ حَمَلُونَا بِغَيْرِ نَوْلٍ، عَمَدْتَ إِلَى سَفِينَتِهِمْ فَحَرَقْتَهَا لَتُغْرِقَ أَهْلُهَا؟! (٢)**

﴿ **قَالَ أَحَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا** ﴾ نفس دائمة التفكير في غيرها، تغضب للحق، كان على السفينة مثلهم ولم يشر إلى نفسه مطلقاً، لم يقل لتغرقنا بل ﴿ **لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا** ﴾ غَيْرْتُهُ على الحق كانت أقوى من التزامه بشرطه الذي اشترط على نفسه .

﴿ **لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا** ﴾ لقد أتيت أمراً عظيماً، وهكذا كل نفس مؤمنة تأبى أي شكل من أشكال المنكر ولا ترضى به .

﴿ **قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا** ﴾ ذكَّره بالشرط الذي بينهما، ألم أخبرك أن لا طاقة لك على اتباعي؟ وأنتك لن تصبر على السؤال لما سترى من أفعال في ظاهرها منكر لأنك لا تعلم ما وراءها وهذا مما اختصني الله به؟

١ البخاري (١٢٢)

٢ مسلم (٢٣٨٠)

وأعجب ما في دروس الخضر هذه أنها كلها عملية، لم يجلس به في مكان ويُخبره بعضًا مما اختصه الله بعلمه، بل اعتمد على الواقع الحي ليكون أبلغ أثرًا في نفس نبي الله. كما اعتمد دائمًا على المفاجأة لم يُمهّد للأمر، بل يقوم بالفعل ونشاهد ردة فعل نبي الله في كل مرة أشد من التي تسبقها، ولم يندفع الخضر لشرح مبررات فعله إلا حينما اشترط موسى ﷺ على نفسه بعد المرة الثانية إن كررها ألا يصحبه ثانية .

﴿ قَالَ لَا تَأْخِذْني بِمَا نَسِيتُ ﴾ بالنسبة لظاهر الأمر فنبي الله يدافع عن حق وينكر منكرًا واضحًا أمامه، لكنه تذكّر ما أخبره به أولاً أن ما سوف يراه قد لا يطيق الصبر عليه ، فقدّم اعتذاره أولاً قبل أن يكمل الطريق سويًا .

﴿ قَالَ لَا تَأْخِذْني بِمَا نَسِيتُ ﴾ الناسي غير مؤاخذ بنسيانه، في الحديث أن النبي ﷺ قال « كَانَتْ الْأَوَّلَى مِنْ مُوسَى نَسِيَانًا » (١).

﴿ قَالَ لَا تَأْخِذْني بِمَا نَسِيتُ ﴾ لم يجد حرجًا في الاعتراف بخطئه إذ أخلّ بالشرط الذي بينهما وهو ألا يسأل، والاعتذار لم يكن يومًا مجرد كلمة تُقال إنما إقرار بتقصير ما وأن على المرء معالجته .

﴿ وَلَا تُزْهِقْني مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴾ أرهقه أي حمّله على ما لا يطيق، يريد منه ألا يضيق عليه الأمر في صحبتته إياه، وألا يؤاخذ بنسيان شرطه عليه، وألا يكلفه مشقة في تعلمه منه، وأن يعامله باليسر لا بالعسر .

قال تعالى ﴿ فَأَنْظِلْهَا حَتَّى إِذَا لَقِيََا غُلَمًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتُمْ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا نُكْرًا * ﴿٧٦﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ ﴿٧٥﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴾ ﴿٧٦﴾ [الكهف ٧٦-٧٦]

﴿ فَأَنْظِلْهَا ﴾ تجاوز نبي الله الموقف الأول ومضيا سويًا في طريقهما ولم ير نبي الله الجزء الباقي من القصة الذي يشرح له تبعات تصرف الخضر، ذاك الذي أخبر به آخرًا، لقد رأى نبي الله وجهًا واحدًا من الموقف ولم ير الوجه الآخر فكان

حُكْمُهُ الأول على مقدار ما رأى، ولو رأى الصورة كاملة لتغيرت نظرتَه للأمور في وقتها، ولما عَقَّب على تصرف الخضر في باقي المواقف، وهذا الذي أشرنا إليه في بداية القصة حينما تستعرض مشاهدنا الثلاثة تأمل حكم نبي الله على كل مشهد حينما رأى جزءاً من الموقف، وتخيل حكمه وردة فعله بعدما عرف الجزء الغيبي من القصة في كل مشهد! وهكذا علينا أن ننظر لأكثر ما نعجز عن فهمه مما يحدث من ابتلاءات في حياتنا، فقد يكون الجزء الغيبي الذي يكملها كله خير، ولو علمناه في وقته ما جرعت قلوبنا في أول القصة.

﴿حَتَّىٰ إِذَا لَقِيََا غُلَامًا فَقَتَلَهُ﴾ هكذا بلا مقدمات، بلا أي تهديد لموسى عليه السلام، رأى غلاماً فقام بقتله.

﴿قَالَ أَقْتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾ رد الفعل الذي يملؤه الحمية للحق، دائماً ما يكون حاضراً في كل موقف لكنه في المرة الثانية أشد، أقتل نفساً بريئة بغير ما اقترفت من إثم تستحق به القتل؟ فلم يقتل الغلام أحداً حتى تقتله.

وهذا الموقف تحديداً قد نال من نبي الله أشد من الموقف الأول، فإنه ردّ ولم يعتذر بالنسيان لأنه لم يكن قد نسي إنما رد إنكاراً للفعل ذاته، وكأنما استحضر قصته الأولى مع القبطي الذي لم يقصد به الأذى وظل بقية حياته نادماً مستغفراً عليها حتى في حديث الشفاعة أنه قال: (وَإِنِّي قَتَلْتُ نَفْسًا لَمْ أَوْمَرْ بِقَتْلِهَا، نَفْسِي نَفْسِي)^(١).

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ أي جئت بعمل منكر ظاهر النكران. في الموقف الأول عقب بأنه ﴿شَيْئًا إِمْرًا﴾ وفي قتل الغلام عقب بأنه ﴿شَيْئًا نُكْرًا﴾ فالأول إفساد لكنه لا يعادل القتل، فإنما أتلّف جزءاً من السفينة بالقدر الذي يُحدث فيها عيباً يُزهدّها في عين الملك، فهو في ظاهره إفساد لكنه لم يترتب عليه إهلاك فعلي بأهلها، فهو ذريعة إفساد، أما في الموقف الثاني فهو إفساد قد وقع، فهو قد رأى طفلاً يُقتل بلا ذنب فعقب أن هذا فعل منكر، فالسفينة لم تغرق وإن حدث لها الإفساد أما هنا فالقتل قد وقع بالفعل؛ فالإنكار فيه أشد.

١ البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤)

﴿ قَالَ أَمْ أَقُلَ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ ذكره ثانية بالشرط الذي بينهما وزاد ﴿ لَكَ ﴾ ففي الأولى ﴿ قَالَ أَمْ أَقُلَ إِنَّكَ ﴾ وفي الثانية ﴿ قَالَ أَمْ أَقُلَ لَكَ إِنَّكَ ﴾ ففي الأولى كان التقصير الأول فذكره بالاتفاق، فلما تكرر رد الفعل ثانية ذكره ثانية تذكير المعاتب على ترك ما اتفقا عليه للمرة الثانية، وقد فهم نبي الله هذا فأعذره إن هو عقب عليه ثلاثة ألا يصاحبه .

﴿ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَدِّقْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴾ علم أنه أخل بوصية الخضر حينما عقب على أفعاله مرة بعد مرة، ورغم الحرص على الصحبة إلا أن للمروءة دوراً يجب ألا يغيب، فلما أحس أنه أثقل عليه أعطاه العذر بالفراق إن كرر تعقبيه على ما يراه. في الحديث أن النبي ﷺ عقب على قول موسى عليه السلام فقال: (رحمة الله علينا وعلى موسى، لولا أنه عَجَلَ لرأى العَجَب، ولكنه أخذته من صاحبه ذمامة، قَالَ: ﴿ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَدِّقْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴾ ولو صَبَرَ لرأى العَجَب !!))^(١)

﴿ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَدِّقْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴾ لم يطلب الخضر الفراق لكن حياء موسى عليه السلام منعه من أن يكون ثقیلاً عليه فوضع بنداً جديداً في الاتفاق بينهما إن هو عقب على ما يفعله الخضر أن يفترقا.

قال تعالى ﴿ فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوا لَهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ۖ ﴾ [الكهف ٧٧، ٧٨]

﴿ فَانْطَلَقَا ﴾ كلما قرأت هذا اللفظ استشعرت كأنما أنتظر حدثاً جديداً، لفظاً تشعر بالحماسة كلما نطقته.

﴿ حَتَّى إِذَا أَتَا أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ أتيا بلدة طلبا من أهلها طعاماً على سبيل الضيافة، فامتنعوا عن ضيافتها، ويبدو أن توجههما إليها كان عن قصد ﴿ أَتَا ﴾ أتياها لا غيرها، ليس مرّاً بقرية أو وصلاً قرية إنما أتياها فكانت هي وجهتهما ومقصدتهما.

١ رواه مسلم (٢٣٨٠). ذمامة أي: حياء وإشفاق

﴿حَتَّى إِذَا أَتَى أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ غالب طباع أهل القرى الجود خاصة مع الضيف، لكن هذه القرية على غير العادة خالفت طباع أهل القرى، فإذا ما كانت قرية بكاملها بهذا الحال من اللؤم فإن انكشاف أمر الكنز لا يمكن أن يُبقي للغلامين اليتيمين شيئاً. فكان تدبير الله أن يسوق إليها موسى عليه السلام والخضر ليقبلا الجدار فيطول به الزمان حتى يكبر الغلامان ويستخرجا كنزهما.

﴿فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَى أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ ذكر ربنا أولاً أنها قرية، وفي الخاتمة ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ ^(١) ذكر أن الغلامين في المدينة، والحديث عن الفرق بين لفظ القرية والمدينة في القرآن طويل واجتهد فيه خلق كثير، وربما كانا يعيشان في مدينة مجاورة للقرية وبقي بيت أبيهما في القرية ليعودا إليه بعدما يكبران.

وقد ذكر ابن عثيمين: "أن القرية ليست هي البلد الصغير كما يظن كثير من الناس، بل القرية تكون مدينة، لأن أصل القرية معناه مأخوذ من القرى، وهو التجمع فإن الناس يجتمعون فيها. فإذا كانت بلدة كبيرة سميت في عُرف الناس مدينة، وإن كانت دون ذلك سميت في عُرف الناس قرية. فالتفريق بين القرية والمدينة ما هو إلا اصطلاح عرفي فقط" ^(٢)

﴿أَسْتَطْعَمَ أَهْلَهَا﴾ طلبا طعاماً لهما، والطلب لم يكن من بعض أهل القرية بل من كل أهلها، فلم يجدوا سوى الإعراض عنهما، قال أبو حيان في تفسيره: «وجيء بلفظ أَهْلَهَا لِيُعْمَ بِجَمِيعِهِمْ، وَأَنَّهُمْ يَتَّبِعُونَهُمْ وَاحِدًا وَاحِدًا بِالْإِسْطِطْعَامِ، وَلَوْ كَانَ التَّرْكِيبُ (اسْتَطْعَمَهُمْ) لَكَانَ عَائِدًا عَلَى الْبَعْضِ».

﴿فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّقُوهُمَا﴾ نبي من أولي العزم، ورجل من أهل الصلاح والتقوى، ولم يُقدِّرها الناس، ليس كل الناس أهل فضل، فتقدير الناس أو انتقاصهم لا يُغير حقيقة معدنك شيئاً، مدح الناس وذمهم لا يُغير في حقيقة جوهرك شيئاً، افعل ما تؤمن بصوابه ولا عليك بمن يقبل ومن يرفض، افعل ما تراه صحيحاً ولا عليك بمن يمدح ومن يقدح، الناس لم يجتمعوا على عبودية الله أتراهم يجتمعون على أمر من أمور دنياهم؟!

١ الكهف [٨٢]

٢ تفسير سورة يس لابن عثيمين (ص ٧٢).

﴿فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا﴾ فماذا كان بعدهما؟ ﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ﴾ الذين يدعون أن الأصل في المعاملات المعاملة بالمثل هم واهمون، الكل يعامل بمعدنه، بحقيقته هو، بأخلاقه هو، بمبادئه هو، لا عليه بمن أساء ومن أحسن، لا عليه بمن ذم ومن مدح، إن هو عامل كل قبيح بمثله جمع من القبح ما تفرق فيهم .

﴿فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا﴾ حينما تقرأ ﴿فَأَبَوْا﴾ تشعر أنه لم يكن رفضًا عارضًا إنما رفض اللئيم إذا ما طلب منه جود فيتمنع كأنها روحه التي ستخرج لا طعام يُقدمه لغريب .

﴿فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا﴾ لا يبحث الإنسان عن قيمته في أعين الناس، فقد تكون أعينهم كأهل هذه القرية، فإذا ما صادفت سوء خلق فلا تجزع نفسك، ولا تتأفف؛ فنبي كريم وعبد صالح طلبا طعامًا فلم يجدوا في قرية بأكملها رجلًا كريمًا، وإن سألت أمثالهم أغرقوك بعشرات الأسباب التي يوهمون أنفسهم بصحتها لراحة ضمائرهم إن كانت لديهم .

﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ﴾ أي قرب ودنا من السقوط، كما تقول العرب: داري تنظر إلى دار فلان إذا كانت تقابلها .

﴿فَأَقَامَهُ﴾ هَدَمَهُ وبناءه من جديد ليبقى زمنًا أطول للغاية التي يعلمها الخضر ولم يعلمها موسى عليه السلام بعد .

﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ رأى نبي الله ما فعله أهل القرية بهما، ومع ذلك وجد الخضر بيني جدارًا كاد أن يسقط، فعلق بصيغة اللوم التي تتضمن سؤالاً على فعله هذا دون أن يطلب أجرًا يشترى به طعامًا .

﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ﴾ أسلوب رقيق يحمل عرضًا لطيفًا كان أقل حدة من التعقيب على المواقف التي سبقت، لكنه لم يستطع أن يمنع نفسه من السؤال ولو بشكل ضمني كما في هذا التعقيب .

﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ حين وضعنا اتفاقاً بينهما التزمنا به سوياً، حتى في الفراق، لم يقل الخضر هذا نبي الله وأبقي صحبته وكأننا أدرك ألا طاقة لموسى عليه السلام بتحمل ما لم يُحِط به خبراً، فالتزم بما اشترط موسى عليه السلام على نفسه فلما اعترض للمرة الثالثة حدث الفراق وانتهت الصحبة .

﴿سَأُنَبِّئُكَ﴾ حين جاء وقت الفراق لم يتركه للظنون والتخمينات، لم يتركه بلا إيضاح، بل اختار أن يعلل له كل ما أشكل عليه حتى يرحل مطمئناً .

﴿بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ سأجيب عن كل تساؤلاتك قبل أن يمضي كل منا في طريقه .

﴿بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ إذا ما اكتنف الغموض تصرفاً ما فأنره بضوء الحقيقة، ولا تترك الأمر للظنون فإنها تأخذ الإنسان إلى أودية الشر وقلما سلّم منها بشر .

قال تعالى ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ ﴿٧٩﴾ الكهف [٧٩]

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ مساكين ويملكون سفينة، نعم يملكونها لكن عائدها لا يكفيهم، وما أكثر المساكين في زماننا ويظن الناس بهم الظنون، فقد يملك المسكين ما لا لكنه لا يبلغ كفايته، لذا رغم أنه يعمل ورغم أنه يملك سهماً في سفينة ظل مسكيناً، فلا نغتر بالظاهر ونتقصى أحوال من ضاق بهم العيش ويتعففون عن القول أو الطلب ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَاقًا﴾ ^(١)

﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أحدث فيها عيباً ظاهراً لئلا يستحسنها الملك فيأخذها ظلماً .

﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ رغم أنه لم يفعل ذلك إلا بعلم علمه الله إياه لكنه نسب العيب لنفسه ﴿فَأَرَدْتُ﴾ .

﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ وراءهم هنا معناها (أمامهم) أي أنهم سيلاقون ملكًا ظالمًا لا يدع سفينة صالحة إلا أخذها بغير حق.

﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ أتدري من الذي يظلم؟ من الذي يأخذ المال غصبًا؟ ليس قاطع طريق، ليسوا لصوصًا يتربصون بهم، إنما من يقوم على أمرهم، من عليه حمايتهم هو سبب شقائهم، من عليه حفظ أموالهم هو من يأخذها ظلمًا، حاكم ظالم في زمان غابر لا نعلم عنه شيئًا لكن من قُبِحَ ظلمه وسوء صنعه ذكره الله في كتابه بصفة يبغضها كل مؤمن سوي ليقبَحَ الظلم في أعيننا حتى ولو كان الظلم بسيطًا، ولو كان حق الغير سفينة صغيرة يعمل عليها مساكين يرتزقون منها.

﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ الآن اختلفت الصورة أمام نبي الله موسى عليه السلام، الآن حينما رأى الصورة مكتملة تغيرت نظرتة، تغير حكمه، تغير تقديره للأمور، الآن نفهم أن ثورتنا الداخلية على بلاء وقع بنا قد لا تكون مبررة، قد نكون بحاجة إلى يقين يهذبها، إلى إيمان يربطنا بتدبير الله، إلى حُسن ظن في لُطف الله.

قال تعالى ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ ٨٠ ﴿فَارْدَنَّا أَنْ يُبَدِّلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ ٨١ ﴿الكهف [٨٠، ٨١]﴾

﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ﴾ قال قتادة: «قد فرح به أبواه حين وُلِدَ، وَحَزْنَا عليه حين قتل، ولو بقي كان فيه هلاكهما، فليرض امرؤ بقضاء الله، فإن قضاء الله للمؤمن فيما يكره خير له من قضائه فيما يحب» (١).

﴿فَخَشِينَا أَنْ يُرْهَقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ هذا مما اختصه الله بعلمه، فوالدا الغلام أهل صلاح وبر وتقوى، والغلام في علم الله ليس كأبويه فمن لطف الله بالوالدين أن يحزننا على فقده صغيرًا خير من أن يحملهما على الكفر كبيرًا أو يشقيا بطغيانه.

في الحديث (أَنْ يَحْمِلَهَا حُبُّهُ عَلَى أَنْ يُتَابِعَاهُ عَلَى دِينِهِ)^(١)

﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ﴾ آية ترمم ضعف القلوب التي حزنت من فقد شيء، ليس كل فقد خسارة، ليس كل فقد يستحق الحزن، فما يدريك لعل الله قد أراد أن يبدل لك ما فقدت بخير آت ولولا الفقد ما جاء .

﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رَحْمًا﴾ يموت الصغير الآن فيحزنان، ثم يعوضهما الله بخير منه صلاحًا في الدين والدنيا فتقر أعينهما به .

في الحديث (هما به أرحمُ منهما بالأول الذي قُتل خَضِرُ)^(٢)

قال تعالى ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ ﴿٨٢﴾ الكهف

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ نرى هنا لطف الله، تدبير الله، غلامان يتيمان لا حول لهما ولا قوة، يرسل الله لسانها نبيا كريما وعبدا صالحا ليقم جدارا يحفظ لهما كنزهما حتى يكبرا، عطاء الله قد لا تدركه في حينه، لكنه حينما يأتي يغمر القلب بالرضا، فالغلامان قد يكونان يلهوان كما يلهو الاطفال والخضر يقيم لهما الجدار ليحفظ لهما مالهما .

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ﴾ يروي لنا ربنا قصة من غابر الزمان، يسجل في كتابه خبر يتيمين مات عائلتهما فسخر الله موسى عليه السلام والخضر ليحفظا أمر كنزهما، أترأه يخفى عليه حالك، يعجزه تدبير أمرك ! النفوس المطمئنة تأنس لتدبير الله، لا يشغلها استحالة الأسباب حينما تعلم أن من أوجدها قادر على تغييرها .

﴿وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا﴾ قيل أنه كنز من ذهب وفضة، وقيل أنه كان لوحا من ذهب مكتوبا فيه علم ووصايا ، والمعروف من كلام العرب أن الكنز اسم لما يكنز من مال .

١ رواه البخاري (٤٧٢٦) .

٢ رواه البخاري (٤٧٢٦) .

﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ كان صالحًا لكنه مات، فحفظ الله أبنائه بصلاحه، الصلاح نجاة في الدنيا والآخرة، نجاة للنفس والذرية، نجاة في الحياة وبعد الممات .

﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ حُفِظَ المال بصلاح أبيهما، وأما هما فكانا يتيمين لم يبلغا بعد، فحفظا وحُفِظَ مالهما بصلاح أبيهما، وهذا من الثواب المعجل للمؤمن، فالمؤمن يثاب عاجلاً وأجلاً، فمن الثواب المعجل أن يحفظ الله تعالى ذريته به، ومن الثواب المعجل الثناء الحسن، والرؤيا الصادقة يراها المؤمن أو تُرى له .

﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ كان صالحًا وكان له كنز قد خبأه لأبنائه، الصلاح لا يتعارض وحسن التدبير في المعيشة، الصلاح لا يتعارض وادخار بعض المال للأبناء، الصلاح لا يتعارض والتفكير في تأمين مستقبل الأبناء بالقدر الذي تيسر ولو كان قليلاً، الذي يتعارض مع كل هذا أن يؤمّن المرء حياة أبنائه من سعي بلا صلاح، من مال قد اختلط بحرام، فالله لا يحفظ الأبناء بكسب الآباء إنما بصلاحهم .

﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ كان صالحًا في بلدة شاع فيها البخل واكتسى أهلها باللؤم لكنه حافظ على صلاحه في بيئة خصبة للانحطاط الخلقي، ليعلم كل معتذر بفساد من حوله أن البيئة مهما بلغت من فساد فإنها تعجز عن صرفك عن الهداية إن اتخذتها سبيلاً، فمن يرد الصلاح يعنه الله عليه ولو كان في بيئة متشعبة بالفساد .

﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ يحفظ الله الأبناء بصلاح الآباء لا بكسبهم، لا أن يقصروا اهتماماتهم على تأمين معيشة هائلة وحياة راغدة ولا يهتمون ببنائهم الإيماني، بسلامة عقيدتهم، بطيب كسبهم في الحياة. التربية المبتورة تضر لا تفيد، اصنعوا لأبنائكم همًا يليق بهم ، علموهم أن الخير في أن يكون الشخص سويًا في أخلاقه وفي عقيدته قبل أن تفكروا في بناء منزل له أو وظيفة يعمل بها ، فلا حاجة للمجتمع بمنصب مرموق يجلس فيه شخص غير سوي ، ولا حاجة لابنتك في زوج سيئ الخلق يفسد عليها حياتها فتجني ثمار فقر والديها في الفقه والعقيدة.

سرق شاب فأمر القاضي بقطع يده فصرخ الشاب وقال: اقطعوا يد أُمِّي لأنني وأنا صغير سرقت بيضة فتهلل وجهها وضحكت لي.

﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾ في فترة من الفترات كلما خرجت من المسجد في صلاة الفجر رأيت امرأة ملتحفة بالسواد تجلس بالقرب من المسجد بعد صلاة الفجر كل يوم، وفي يوم رأيتها تستقبل ابنها الصغير وهو خارج من المسجد وباهتمام بالغ تسأله (هل حمدت الله أن وفقك لحضور الجماعة؟) تُحضر ابنها الصغير كل يوم لصلاة الفجر لئلا تنقل عليه في الكبر فيرى في النوم عنها خيرًا، عدت أفكر كيف لأُم في زماننا هذا أن تصنع هذه المهمة في قلب صغيرها ولم يقطعني عن التفكير إلا كلمات قرأتها في نفس اليوم كأنها رسالة تؤصل الفكرة وترد على تساؤلي فقرأت «النساء مصانع الرجال، البخاري ربه أمه، الشافعي ربه أمه، أحمد بن حنبل ربه أمه، محمد الفاتح ربه أمه، الحافظ بن حجر ربه أخته، وابن تيمية كانت أمه تُسمى تيمية وكانت واعظة فُنسب إليها وعُرف بها».

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ أن يكبرا ويعرفا قيمة المال فيحسنان التصرف فيه، فإن سقط الجدار وهما صغيرين هلك المال في قرية أبت أن تُطعم ضيفين أتراهم يتعففون عن أكل مال يتيمن؟!

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ لم يأت العطاء في صغرهما لأنه إن أتى أضر ولم ينفع، وهكذا بعض الأمور في حياتنا قد نتألم لتأخرها ثم تأتي ونحن أكثر استعدادا لها، أكثر قبولاً لها، ولو جاءت في البداية ربما إن لم تضر ما كانت لتنفع .

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ ليس الآن، لأنها ليسا مؤهلين للعطاء، أبقاه الله لأن في بقاءه مدفوناً بباطن الأرض نفعاً عن إخراجهِ فوق ظهرها. قد يخبيء الله عنك خيراً لكنه لا يمنعه، فقط يؤخره إلى حين ثم يأتي وأنت أكثر استعداداً له .

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا﴾ حين كان الفعل في ظاهره عيباً نسبه لنفسه ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ ولما كان خيراً وفيضاً من عطاء الله رده الله ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾

﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا﴾ لم يدم الشقاء عليهما بل رزقهما الله فرجاً أزال به كل قسوة لقيها.


﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ كل الابتلاء الذي مر على هؤلاء كان في حقيقته رحمة، فكم من ذنب قد غُفِرَ بصبرٍ على البلاء، كم من ستر أنزله الله بصبر على البلاء، كم من عافية ساقها الله بعد صبر على البلاء، كم من رزق ساقه الله بعد صبر على البلاء، لا تجزع وتنتظر العطاء فالأنفس الساخطة على كل قضاء لن تنأ يوماً بخير الصبر بعد البلاء. الصبر هو القبول بأن الأمور يمكن أن تتحقق بترتيب يختلف عن الذي تظنه في عقلك.

﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ رحمة تُطمئن القلوب فلا تجزع بعد مصيبة ولا تغتر بعد عطاء رحمة تلين القلوب فلا تقسو، ما ألطف الله بعباده! يسوق إلينا قصصاً يؤدبنا به، يُرِيّ في نفوسنا كيف نأنس لركن الله، يسوق إلينا قصصاً من واقع حياتنا ليرينا كيف يدبر أمر عباده، كيف أنه لا يخفى عليه شيء ولا يعجزه شيء، كيف أن ما نجعل عِلته يحمل لنا خيراً مؤجلاً لو ظهر في وقته ما حقق غايته فيؤخره إلى حين.

﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ ليس تصرفاً شخصياً بل هو من أمر الله لي، وفي هذا إشارة إلى أنه كان نبياً .

﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ قال عز وجل هنا: ﴿تَسْطِعْ﴾ بحذف التاء، بينما قال في الآية الأولى ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ بإثبات التاء؛ فأثبت التاء في فعل ﴿تَسْطِعْ﴾ ليتناسب وثقل الهم النفسى عند موسى عليه السلام بعدما شاهد ثلاثة أفعال مثيرة للحريرة، وحذف التاء في ﴿تَسْطِعْ﴾ في المرة الثانية أدى إلى تخفيف الفعل، وهو يناسب التخفيف في مشاعر موسى عليه السلام، وزوال الهم بعدما علم دافع كل فعل.

قال ابن كثير « قابل الأثقل بالأثقل، والأخف بالأخف »^(١)



قارون مع نبي الله موسى عليه السلام

رأينا في قصة موسى عليه السلام صوراً مختلفة من التجبر على الخلق الذي جاوز الحد فغدا طغياناً ، فرأينا صورة من طغيان السلطة متمثلة في شخصية فرعون ونرى هنا طغيان المال في شخصية قارون، والأسماء لا تشكل فارقاً فما جاءت إلا كرمز يقبل الاستشهاد به لنرى كل طاغية بمال هو قارون زمانه، ولعل الدرس الأبرز في قصة قارون أن نعلم أن الله يُعطي الدنيا من يُحب ومن يكره، يُعطي من يحب اختباراً ويُعطي من يكره اختباراً، فالعطاء ليس تفضيلاً، إنما ابتلاء، يرزق الله العبد ليرى ما هو صانع، فنجد من يغتر ويتجبر ونجد من يشكر ويتصدق، هنا تأتي المفاضلة، مفاضلة النتائج لا العطاء في حد ذاته، فالمال يهبه الله البر والفاجر، المؤمن والكافر، فلا العطاء عنوان رضا ولا المنع عنوان سخط، فقد يملك المال عفيف نفس فيؤدي حقه، وقد يملكه خبيث نفس فينسبه لنفسه، لسعيه، لكفاحه في الحياة، ولا حق للناس فيه. في الحديث أن النبي ﷺ قال: (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُعْطِي الدُّنْيَا مَنْ يُحِبُّ وَمَنْ لَا يُحِبُّ وَلَا يُعْطِي الدِّينَ إِلَّا مَنْ أَحَبَّ فَمَنْ أَعْطَاهُ اللَّهُ الدِّينَ فَقَدْ أَحَبَّهُ) ^(١)

وقارون لم يكن من أهل مصر إنما كان من بني إسرائيل، وقيل إن له قرابة من موسى عليه السلام وأنه عمه أو ابن عمه، وكان قد آمن به، لكنه إيمان ظاهري لا حقيقي، فحين جاء الوقت الذي عليه أن يترجم هذا الإيمان بالفعل لا بالقول اتخذ طريقاً مخالفاً، طريق الاغترار بما بين يديه من الكنوز وكل من حوله ينتظرون عطاءه. آتاه الله ثروة عظيمة فاغتر بها وأنكر فضل الله عليه فنسبها لعلمه وكسبه، وقد ساق الله إلينا بعض خبره في القرآن كما ساق إلينا بعض خبر فرعون، ثم ساق إلينا خواتيم قصتهم، فلم ينفع فرعون جنوده ولم ينفع قارون كنوزه، ولم تشفع له قرابته من موسى عليه السلام حين وقع عليه العذاب.

قال تعالى ﴿ إِنَّ قَرْوَنَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَعَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُتُوبِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۚ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۚ وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۚ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ القصص [٧٦، ٧٧]

﴿ إِنَّ قَرْوَنَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ ﴾ قال ابن عباس وغيره إنه ابن عم موسى، فهو من بني إسرائيل وقد ناصب موسى عليه السلام العداوة حسداً منه عليه، وكان من ملاء فرعون ينتصر له، فبعض المفسرين قد ذكروا أن فرعون جعل قارون رئيساً على بني إسرائيل في مصر، فجمع ثروة عظيمة .

﴿ إِنَّ قَرْوَنَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ ﴾ كان من قومه ولم ينصره، لم يؤيده، لم يدعمه، واهمون من يعتقدون بانتفاءات العصبية، فموسى عليه السلام خذله قارون وهو من قومه، ونصره رجل من قوم فرعون حينما جاءه ناصحاً ﴿ فَأَخْرَجَ إِلَىٰكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ . قال ابن عاشور : (في إضافة " قوم " إلى " موسى " من الإيحاء إلى أن لقارون اتصالاً خاصاً بموسى فهو اتصال القرابة) .

وقد رأينا في سيرة النبي ﷺ أن عمه أبا لهب كان غنياً، وقد اتخذ ماله وسيلة لمحاربة النبي ﷺ والدعوة، وكان قومه أشد الناس عداوة له وأيده أناس من يشرب لا تصله بهم أرحام ولا قرابات، فخذلان أقارب الرسل لدعوتهم ومحاربتهم ليس بالجديد .

وظَلَمُ ذَوِي الْقُرْبَىٰ أَشَدُّ مَضَاضَةً عَلَى الْمَرْءِ مِنْ وَقَعِ الْحُسَامِ الْمُهَنْدِ ﴿ فَبَعَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾ البغي هو مجاوزة الحد، ولم تأت صورة لهذا البغي لنفهم أنه بغي متعدد ليس بصورة واحدة فقد بغى بآله قولاً وفعلاً .

﴿ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُتُوبِ ﴾ آتيناه، إنه عطاء من الله، والله يعطي البر والفاجر، يختبر بالفقر ويختبر بالغنى، ليصبر الفقير ويشكر الغني، هذه هي الصورة التي يريدنا الله من عباده، فإذا ما جاءوا بها فازوا، وإذا ما ناقضوها خسروا، وقد تجد فقيراً متكبراً، وقد تجد غنياً لا يشبع، تحول طلب المال عنده لنهم فلا يؤدي حقه ولا يشكر ربه ولا يشغله إلا الزيادة، فكل زمان قارونه، وذلك لضعف النفس في التعامل مع الابتلاء، فالفقر ابتلاء والغنى أيضاً ابتلاء .

﴿وَأَتَيْنَهُ مِنَ الْكَؤُوزِ﴾ في الغالب لا يكتنز الإنسان إلا ما فاض عن حاجته، فلاكتناز يأتي بعد الرفاهية، أما الذي يكتنز مع حاجته فذاك شح يقتص من قوته ويدخر بخلا .

﴿مَا إِنْ مَفَاتِحُهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾ ليس مفتاحًا واحدًا إنما مفاتيح لأنها خزائن متعددة، وذلك لوفرة المال وكثرته، فالمفاتيح كانت لكثرتها وثقلها يئن من حملها الجماعة من الرجال .

وحين نقرأ هذا الوصف ترسم في مخيلتنا مفاتيح ضخمة يستعصي على الرجال حملها، لكن هذا زمان غابر لا ننقل تفاصيله المادية لواقعنا المعاصر ونقيس بها، بل نعود بها لزمانها فكان في حملها مشقة لأهل زمانه ربما لكثرتها، ربما لثقل وزنها إن كانت من معدن، المهم أن هذا المعنى يوضح لنا حجم الثروة التي أوتيها قارون ولم يحسن استغلالها إنما أساء التصرف فيها فكانت وبالا عليه.

﴿مَا إِنْ مَفَاتِحُهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ﴾ كان هذا الثراء في زمان فرعون ولم يتعرض له رغم أنه من بني إسرائيل الذين اتخذهم أعداء له ، وذلك لأن الأفكار تلاقت، فغاية اكتناز المال في يد قلة من الناس تجعل البقية منشغلين بأسباب رزقهم فقط، فينصرفون عن خوض البحث عن حاجات أعلى من قوت اليوم، عن التفكير في المعتقدات والانتساءات، عن الحق والباطل، لن نجد من يهتم بقراءة كتاب وهو منغمس في البحث عن قوت يومه، فالناس لا يفكرون في حاجاتهم العليا إلا بعدما يطمئنون لتوفر حاجاتهم الأساسية من مقومات الحياة، لذا حين نقرأ قصة قارون نرى نموذجًا من طغيان السلطة متمثلًا في فرعون الذي صنع نموذجًا من طغيان المال متمثلًا في قارون .

﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ قال له بعض عقلاء قومه نصحاء له لا تغتر بما لديك، لا تبطر بما آتاك الله من مال، فالله لا يحب أن يؤتي عبده نعمة يتكبر بها على الخلق ولا يؤدي شكرها فتكون أداة للإفساد ، وعونًا على الإذلال، وفتنة يُضِل بها خلق كثير.

﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ ليس المقصود بالفرح السرور وطيب النفس، فذلك محمود غير مذموم، إنما فرح الاغترار بالنفس والزهو بها والتكبر على الخلق، فرح الثروة التي يذل بها رقاب الفقراء، التي يتجبر بها على الخلق، هذا هو المنهي عنه، أن تكون نعم الله وسيلة للإفساد لا للإصلاح.

﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ كل نجاح وصلت إليه، كل إنجاز حققته، اجعل مرجعه لفضل الله، عود قلبك على التواضع لحظة الإنجاز لئلا يسكنه العُجب، اكسر غرور النفس بالسجود، اكسر قسوة القلب بالإنفاق، اكسر شهوة حب الذات بالصبر على مخالطة الناس وتقديم العون لهم قدر استطاعتك، افعل الخير وحدّث قلبك أنك تبتغي الدار الآخرة.

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ أن تكون عينك على الآخرة، أن يكون عملك مرتبطاً بالآخرة، أن يكون همك متجهاً للآخرة، أن تربط القول والفعل والسلوك بالآخرة، أن تستثمر عطاء الله للفوز بالآخرة، أنعم عليك بالمال فوجه همتك للخير، تصدق وأحسن للناس ليس للناس ولا لإرضائهم إنما يكون القصد لله، أن يكون القلب متعلقاً بوعد الله.

﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ فالتعلق بالآخرة ليس معناه الانصراف عن الدنيا، ليس الصلاح أن تعتزل الناس إنما أن تخاطهم، وتحمل أذاهم، وتعين ضعيفهم، وتطعم فقيرهم، وتأخذ بأيديهم للخير، لست مطالباً أن تُنفق كل ما في يديك مساعدة للناس بل خذ حظك من الدنيا لكن لا تجعل هذا الحظ يصرف همتك عن الغاية التي تستحق، فعند الآخرة ﴿وَابْتَغِ﴾ لأنها الأساس، وعند الدنيا ﴿وَلَا تَنسَ﴾ لأنها وقية.

﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ لم يكن عندك فأعطاك الله، فكما أحسن الله إليك يريد منك أن تحسن إلى الناس، ولا تزول نعمة عن عبد يؤدي حقها بالشكر والإحسان. من أعطاه الله نعمة ولم يسعد بها فلأنه لم يؤدّ شكرها.

﴿وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ بأن تجعل ما أتاك الله إفساداً لا إصلاحاً، فلا فقير أعنت ولا لشأنه تركت، إنما تجبرت عليه بسطوة مالك، فلا عونك قدمته له ولا شرك كفيته عنه.

وهذه النصائح الخمسة التي قدموها له لخصت أغلب قضايانا المعاصرة، ففي الأولى ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ﴾ لا تفرح بما أنت فيه من النعيم فرحاً يطغيك، ويجعلك تذكر النعمة وتنسى المنعم.

وفي الثانية ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ توجه إلى الراكنين إلى الدنيا المتعلقة قلوبهم بها أنها ليست الغاية والقصد، إنما هي فترة عابرة ثم إلى حياة أخرى تجني فيها ثمار ما زرعت فازرع خيراً تحصد خيراً.

والثالثة ﴿وَلَا تَسْ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ مخاطب الذين يعرضون عن الدنيا أن القصد ليس الإعراض وليس التمتع بطيبات الحياة إنما القصد ألا يتعلق القلب بها، ألا تكون مبلغ غايته ولا مصرف همته، تمتع بالطيب الحلال ولتكن عينك على الغاية التي تستحق، لذا كان من دعاء عمر «اللهم إنا لا نستطيع إلا أن نفرح بما زينته لنا، اللهم إني أسألك أن أنفقه في حقه»

والرابعة ﴿وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ مخاطب كل ذي نعمة أنها من عطاء الله، فلا تجعل عطاء الله عوناً على حرمان حق العباد فيه .

والخامسة ﴿وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ ألا يكون المال عوناً على الإفساد في الأرض والإساءة إلى الخلق .

قال تعالى ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِن الْفُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ دُؤُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ ٧٨ فخرج على قومه في زينته قال الذين يريدون الحيوة الدنيا يلبت لنا مثل ما أوتي قرون إنهم لذو حظ عظيم ٧٩ وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لئن ءامنت وعمل صليحاً ولا

يُلَقَّهَآ إِلَّا الصَّدِيقُونَ ﴿٨٠﴾ القصص [٧٨-٨٠]

﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ كل ما لدي من نعم هي من كسب يدي، هي من ثمار عملي، هي نتيجة كفاحي، هي من جهد السنوات، هكذا نسمع حتى الآن، فلسان قارون قد امتد عبر الزمان، هذا المنطق الذي يردده كل قارون، إذا ما سمع نصيحة استكبر أن ينصحه من هو أقل منه مالا ومكانة، وكأن لسامع النصيحة شرطاً أن تتساوى الرؤوس، ورد قارون يُعبر عن منطق مادي متأصل في نفوس كثير من الناس، الذي أوتي من بعد منع، الذي اغتنى من بعد فقر، تجده تأففه من العطاء تأففاً داخلياً ليس خارجياً فحسب، تجده يتأفف من المساعدة، يتأفف من سماع شكوى فقير، يتأفف من نصيحة تُرغبه في الإنفاق، إنه تأفف القلب عن الخير لأن للمال سطوة على القلب إذا ما تمكنت منه قسّته .

﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ حين يحمد المرء ربه ينبغي ألا يكون لفظاً مجرداً إنما إيمان قلبي بأن العطاء من الله، تنباهي بالمال ويغفل القلب أن الرزاق هو الله، تنباهي بما تملكه أيدينا وننسبه إلى أنفسنا وننسى أنه من عطاء الله، ننكر صنيع قارون ونخوننا ألفاظنا كل يوم بمثل صنائعه ، نبغض كل قارون وقد نخوننا بعض أفعالنا باستعلائه وغروره .

المؤمن حين يكسر غرور نفسه فهو لا يتواضع ، بل يُقر بصنع الله والشكر له .
حملَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه قربة على عنقه، فقيل له في ذلك فقال: إن نفسي أعجبتني فأردت أن أذلها .

﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ الإنسان بطبعه يُحب الحديث عن نفسه، عن نجاحاته، عن إخفاقاته كيف تجاوزها، عن المحن كيف صنعت منه شخصاً أكثر نضجاً وأقوى تحملاً وأشد صبراً، كل هذا ليس مذموماً إنما المذموم أن يغتر الإنسان بذاته، بنجاحاته، أن ينسى أن كل هذا من فضل الله عليه، من عطاء الله له الذي لولا عونهُ ما تجاوز كل هذا وما حقق شيئاً مما كان يصبو إليه، لا تعتقد أنك تنجو بفضل ذكاء ولا حسن تدبير منك، بل إنه تيسير الله لك ولو تركك لنفسك لأهلكتك .

دخل أعرابيٌّ على هارون الرشيد فقال: «يا أمير المؤمنين! ثبَّت الله عليك النعم التي أنت فيها بإدامة شكرها، وحقَّق لك النعم التي ترجوها بحسن الظن به ودوام طاعته، وعَرَّفك النعم التي أنت فيها ولا تعرفها لشكرها». فأعجب الرشيد كلامه وقال: ما أحسن تقسيمه.

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ وقارون إنما يمثل منهجًا قد أصَّله فرعون من قبل، منهج الاغترار بالذات، ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَتَقَوَّمُ آلِيَّ لِي مَلِكٌ مِّصْرَ وَهَذِهِ آلَانَهُرُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ (١)

﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ ولا يُعَلِّم مصدر هذا الثراء الفاحش لقارون، أهو من انتفاعه بجوار فرعون، أم هو رزق سيق له كابتلاء واختبار. قال ابن كثير "وأما من زعم أن المراد من ذلك أنه كان يعرف صنعة الكيمياء، أو أنه كان يحفظ الاسم الأعظم، فاستعمله في جمع الأموال، فليس بصحيح، لأن الكيمياء تخيل وصبغة، لا تحيل الحقائق، ولا تشابه صنعة الخالق، والاسم الأعظم لا يصعد الدعاء به من كافر به، وقارون كان كافرًا في الباطن، منافقًا في الظاهر، ثم لا يصح جوابه لهم بهذا على هذا التقدير، ولا يبقى بين الكلامين تلازم". (٢)

﴿أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ يخاطبنا الله لنربط العبرة بواقعهنا، يخاطبنا الله لنتنبه أن الغاية ليست سرًّا عابرًا لقصة مضى زمانها إنما تأصيل لمنهج الله في التعامل مع كل متكبر أيًا كان زمانه، أيًا كانت قوته، أيًا كان سلطانه، إنها لنا، لكل نفس مالت للدنيا شيئًا، لكل قلب كاد أن يعوج، لكل عقل أعجب بفطنته. الذي أهلك الأولين بظلمهم قادر على أخذ الآخرين بغيهم، والذي خسف بقارون قادر على سلب النعم بعد عطائها.

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ من هنا تأتي الضغائن، من هنا تزرع الأحقاد في النفوس، حُب التفاخر، حُب التباهي، أعطاه الله المال فلم يُحسن إلى الناس به، ثم لم يكف أذاه عن الناس فجعل ماله إذلاً لأهلهم، ثم هاهو ذا يتفاخر به على فقرائهم، فإذا اجتمعوا خرج عليهم بكامل زينته، كأنما يستعرض ما لديه على أعينهم، وهو أعلم الناس بفقرهم واحتياجهم .

﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ﴾ بعض الناس يأسرها التباهي، تضع أقدامها في كل وادٍ يزيدهم في أعين الناس إجلالاً، قضيتهم تقدير الناس وغايتهم ثناء الناس، أخرجوا الله من كل حساباتهم . كتب عمر بن عبد العزيز إلى أحد عماله يستنكر صنيعه وأفعاله قائلاً: «غربي مجالستك العلماء وعمامتك السوداء وإرخاؤها من وراء ظهرك» .

﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُرُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ هذا جواب الصنف الأول من الناس، الذين تحذعهم المظاهر، الذين تأخذهم النفس لكل وادٍ فيه هلاكها، يرون ما هو فيه من الثراء وما هو عليه من التجبر والطغيان ويمنون أنفسهم بمثل حاله، المظاهر تحذع، العيون التي تنبهر بما عند الغير تعجز عن التدقيق فيما لديها من نعم .

﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُرُونُ﴾ إذا ما رأيت صاحب نعمة فلا تدقق فيما عنده فإنك لا تدري أهى خير يُجْزَى عليه أم شر يُؤْخَذُ به .

﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُرُونُ﴾ أهل الدنيا يُفْتَنُونَ بكل بريق يأخذ بأعينهم، لا تعنيهم القيم، لا ينشغلون بالمبادئ، لا يعتقدن بصلاحها وجدواها، إذا ما حَدَّثْتَهُمْ عنها أَعْرَضُوا وربما سَخَرُوا، فإذا ما تعرضنا لمثل هذا المشهد في زماننا هذا استجد أنصار هذا الجواب هم أكثر الناس، وسوف تجد مبررات قد لا تجد الوقت لسماعها من كثرتها، إنهم مبدعون في إقناع أنفسهم بصواب نظرهم المادية، إنهم مقتنعون بأن الحياة مع المبدأ لا تجدي نفعاً، والفريق الثاني الذي زكى الله جوابه دائماً ما تجدهم القلة، التي تنتصر للقيم على المادة، تنتصر للجوهر على المظهر .

﴿يَلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَرْوُنُ إِنَّهُرُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ طالبو الدنيا يلهثون خلف أي بريق ولو كان خداعاً، والمرء لا يأمن الحكم على نفسه إلا حينما تُبتلى ، ففي الرخاء كل الناس أئمة وقدوات، فإذا ما نزل البلاء تمايزوا .

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ الفريق الآخر الذي لم يفتنه ما رأى من زينة وتفاخر ، الذي رأى قارون على حقيقته أنه طاغية طغى بهاله وتجبر على الخلق، قاموا ناصحين لقارون أولاً ثم هم أولاء ناصحون لأصحاب الدنيا ، لمن أخذتهم المظاهر ، قاموا في ميدان الحياة يصححون إعوجاجه، لم يركنوا إلى صوامعهم، لم يتأففوا من مخالطة فقراء الرأي والعلم، بل قاموا بوجهون، ينصحون، يُصححون المفاهيم، يُظهرون الحقائق.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ﴾ لم يخبرنا ربنا بحديث من نبي الله لقارون، إنما ساق لنا أحاديث بعض ممن نصحوه، ولما جاءت نصيحتهم من قلب يملؤه الإيمان خلدها الله في كتابه، وربما يكونون قد قالوها في مشهد بسيط في حديث جانبي بجوار المشهد الأبرز الذي خرج فيه قارون بكامل زينته يستعرض ثروته على أعينهم تباهياً وتفاخراً عليهم، لكن الله قد خلد الحديث الجانبي بكل تفاصيله وأعرض عن المشهد الأساسي فلم يشر لأي من تفاصيله، وكذا كل موقف صادق، كل كلمة صادقة، كل نصيحة صادقة، كل أمر بمعروف صادق، كل نهي عن منكر صادق، قد يصدر من قائله وتمضي به الحياة وينساه لا يذكره لكنه عند الله موقف ذو شأن يحفظه الله ويجازي به.

وقد حدث مثل هذا مع بعض الصحابة في موقف كان في نظرهم عابراً بسيطاً لكنه كان صادقاً فشاء الله أن يخبر نبيه به. خرج النبي ﷺ عَلَى حَلْقَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: مَا أَجَلَسَكُمْ؟ قَالُوا: جَلَسْنَا نَذْكُرُ اللَّهَ وَنَحْمَدُهُ عَلَى مَا هَدَانَا لِلْإِسْلَامِ، وَمَنْ بِهِ عَلَيْنَا، قَالَ: اللَّهُ مَا أَجَلَسَكُمْ إِلَّا ذَاكَ؟ قَالُوا: وَاللَّهِ مَا أَجَلَسْنَا إِلَّا ذَاكَ، قَالَ: أَمَا إِنِّي

لَمْ أَسْتَحْلِفْكُمْ تُهْمَةً لَكُمْ، وَلَكِنَّهُ أَتَانِي جِبْرِيلُ فَأَخْبَرَنِي، أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبَاهِي بِكُمْ الْمَلَائِكَةَ^(١) حين يتزين الفعل بصدق القلب فإنه لا يمر عابراً كما يظن صاحبه، وإن لم ينل الجزاء في حينه .

﴿وَلَا يُلْقِيهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ﴾ آية تخاطب الواهمين الذين يعتقدون أن الآخرة لكل امرئ وإن لم يعمل . الحياة أكثر هشاشة من أن تتكى على جدار أملها وتعلق نفسك بأيامها .

قال تعالى ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ﴾^(٨١) وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَتَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَانَ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بَنَاءُ وَيَكَانَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ^(٨٢) تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ^(٨٣) القصص [٨١-٨٣]

﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ كان يتعالى على الناس فجاءه العقاب بالخسف ، خسف الله به وبداره الأرض فلم يعد يرى له أثر .

﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فكل متكبر يغتر بما بين يديه من أدوات القوة ، من مال ومنصب وحسب وجاه؛ لكن لا شيء من كل هذا سيحول دون وقوع عذاب الله به .

﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَتَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَانَ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ الفئة الأولى التي كانت بالأمس تتمنى لو أن تصبح في مثل حاله لما رأوا ما وقع به من العذاب الآن فهموا كيف توزن الأمور، ذهب بريق الأمس الذي فتن أعينهم، علموا أن عاقبة الظالمين إلى هلاك، علموا أن المال والسلطة والقوة لا تحول دون وقوع عذاب الله، علموا أن عطاء الله ومنعه ليس دليل فضل إنما هو اختبار ، بسط الله الرزق لقارون فبغى به فأخذ الله بذنبه، فتبين لهم أن بسط الرزق لقارون لم يكن لخير فيه .

﴿يَقُولُونَ وَيَكُنَّ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ الثقة في تدبير الله هي ما تُكسب القلب الطمأنينة، فالذين تمنوا ما بين يدي قارون كانوا ساخطين على ما بأيديهم من النعم، على ما رزقهم الله وإن كان فيه قلة، ففي العطاء حكمة وفي المنع حكمة، ولو بسط الله لهم الرزق لبغوا فأخذهم بغيهم، فكان في التضييق عليهم رحمة بهم وخير لهم، لكنه خير أجل لم يروه بعد.

﴿لَوْلَا أَن مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَّا﴾ لولا لطف الله بنا لحاسبنا على ما قلنا، على ما تمنينا، تغيرت أفكارهم، تبدلت مواقفهم لما رأوا عاقبة التكبر، والله يقص لنا لنعبر، لا لنتنظر حتى نرى العاقبة ثم نعتبر، فقد لا تأتي في حياتنا ونُجازى على ما قدمنا.

﴿لَوْلَا أَن مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَّا﴾ كم من أمنية شاردة في ظلمات ليل تمنينا بها حراماً وعصمنا الله منها، كم من فكرة جالت في أذهاننا كانت ترسم لنا طريقاً للحرام وحال الله بيننا وبينها، كم صرف الله عنا من سوء، كم عافانا الله من ابتلاء، لولا أن مَنَّ الله علينا لهلكنا.

﴿لَوْلَا أَن مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَّا﴾ كل ما مُنع عنك ضعه بجوار أمنيات هؤلاء القوم، لو تحققت أمنياتهم لَخَسَفَ بهم مع قارون، ليس كل منع ابتلاء، فقد يكون الخير كله في المنع، قد يكون اللطف كله في السلب، قد يكون تدبير الله لك في أن يمنع عنك شيئاً تعتقد أن فيه خيراً لك بظنك وفكرك المحدود، ويحوّل الله طريقك لتكتشف فيما بعد أنك لو أدركته لأهلكك.

﴿لَوْلَا أَن مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَّا﴾ الإنسان في حياته يضجر ويمل حينما لا يدرك شيئاً تمناه، والذي يطيب نفس المؤمن تعلقه القلبي بشيء غيبي، تعلقه بأن لطفاً ساقه الله إليه لم يأت وقته بعد، الذين تزرع دموعهم فرحاً بعد ابتلاء وقع بهم إنما يكون فرحاً بحسن ظنهم في الله رب العالمين، الذي يئن تحت بلاء لا يُبقي بداخله الأمل إلا حسن الظن بالله.

﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَّا﴾ كل التأخيرات في حياتك هي لحكمة، قد يأتي يوم وتفهمها وقد ينطوي سرها ولا تعلمها، فإذا ما تأخر عليك أمر تنشده علّق قلبك بتدبير الله ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (١).

﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَّا﴾ مَنْ الله عليهم هنا كان بمنعهم عما أُعطي قارون، علموا الآن أن المنع عين العطاء، الناس تتعجل ويدفعها التعجل إلى عدم فهم حقائق الأمور، والله تعالى يدبر الأمر بحكمته ويسوق الخير بفضله، ويرفع البلاء بلطفه، ويجازي كل من صبر، ويعطي كل من شكر، ويتقم من كل ظالم، هكذا يصرف ربنا الأمور .

﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَّا﴾ يُدرك المرء متأخرًا معنى تفويض الأمر لله، يزعجه دعاء لم يستجب، وأمر لم يتحقق وكان يظن أن الخير كله فيه، ثم يظهر له شيء من لطف الله في تدبير الأمر فترضى نفسه لاختيار الله ، ويأنس قلبه للطف الله.

﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَّا﴾ قد تستخير الله في أمرين يحار قلبك فيهما ثم تجد نفسك تميل لأحدهما رغم شيء من الأذى تطاله نفسك فيه، وتمضي قُدماً فيه ويزداد الأذى إيلاًماً حتى تجد نفسك مدفوعاً لتركه بلا شائبة في النفس أن فيه خيراً، فقد يتليك الله بالبقاء في أمر يؤذيك حتى لا تعتقد أنه قد حرمك شيئاً جميلاً فتركه بعد ذلك ولا أثر له في نفسك ولا خاطرة، ولو كنت قد تركته أول الأمر لتعلقت نفسك به

﴿وَيَكَاذِبُونَ لَا يَقْلُحُ الْكَافِرُونَ﴾ علموا الآن أنه كان كافراً، حينما تمنوا مثل حاله رأوه قدوة وتمنوا أن لو صاروا في مثل حاله، ولما رأوا ما حلّ به من خسف تذكروا أنه كان كافراً متكبراً، بغى بآله وظلم به واغتر بسلطانه وظن أنه لن يناله الله بعداب .

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ القصص [٨٣]

عطاء الله كله هاهنا، فضل الله كله هاهنا، كل مُبتلى يطمئن حين يسمعها، كل مُنفق يسعد حين يسمعها، كل قائم بأمر الله يهنأ حين يسمعها، الجزاء الغيبي الذي تتعلق به القلوب، الذي تأنس به في زحمة الحياة، الذي تتقوى به على ما تواجه من كيد البشر، ومن صدود البشر، ومن مكر البشر، ومن تدابير البشر.

﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ﴾ العلو بالتكبر والتجبر والطغيان، العلو بالظلم والاستهزاء والتباهي والتفاخر، كل علو فيه إفساد فهو إلى زوال، فالوعد الغيبي ليس لأمثال هولاء إنما للذين يكبحون جماح شهوات النفس ويتزينون بالتواضع رغم كل ما في أيديهم من مقومات التكبر والتجبر، لكنهم يتواضعون لله لا للبشر، ينتظرون الأجر من الله لا من البشر، حين ترى صاحب سلطة يتواضع بلا تصنع فإنه يكسر شهوة النفس إرضاء لله، يكسر رغبة الزهو إرضاءً لله. بقدر انخفاض النفس في الدنيا تواضعًا لا تذللًا تكون الرفعة في الآخرة جزاء واستحقاقًا.

﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ يا لرحمة الله، العاقبة آتية لا محالة لكنها للمتقين دون غيرهم، النعيم للمتقين دون غيرهم، الخير للمتقين دون غيرهم، وأي لطف من الله بعد هذا؟! أيتساوى الظالم والمظلوم فنهلك بلا حساب ولا جزاء؟! بل العاقبة آتية لمن اتقى وأصلح، فالحمد لله على وجود الله.

﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ نبأنا الله في كتابه في غير موضع أن عمل المرء له، عائد عليه، فائدته له. ﴿فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾^(١)

﴿وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾^(٢) ﴿وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ﴾^(٣)

﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾^(٤) ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ﴾^(٥)

١ هود [١٠٨]

٢ لقمان [١٢]

٣ فاطر [١٨]

٤ فصلت [٤٦]

٥ الأنعام [١٠٤]

كله لنفسك، كل عملك لك، صبرك جزاؤه لك، إنفاقك عاقبته لك، إحسانك يعود لك، فلا تغتر بعطاء ساقه الله إليك لتجازى عليه فيما بعد، ولا تجزع من ابتلاء حل بك لتجازى على صبرك عليه، وليكن في قلبك يقين بأن كل أمرك خاضع لتدبير الله ولطفه.

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٨٣﴾

أذكر أن أول تعلقي بهذه الآية حينما كنت أقرأ في سيرة عمر بن عبد العزيز فعلمت أنه لما حضرته الوفاة ردها حتى مات، وكأنها يضع بها خاتمة منهجه في الحياة، ذاك الذي حكم الدنيا وزهد فيها فاختر التواضع وكل مقومات التعالي بين يديه، اختار الزهد وأموال الأرض تُساق إليه، اختار الصلاح على الفساد، والخير على الشر، والحق على الباطل والإيمان على الكفر، والصدق على الكذب، واليقين على الشك، هكذا عاش ولما حضرته الوفاة كأنها رسم بهذه الآية المنهج الذي اختار السير عليه في حياته فعاش به ومات عليه حتى قال عنه إمبراطور الروم حينما علم بموته: ماتَ والله رجلٌ عادِلٌ، ليس لعدله مثيلٌ، وليس ينبغي أن يعجبَ الناس لراهبٍ ترك الدنيا ليعبدَ الله في صومعته، إنما العجبُ لهذا الذي أتته الدنيا حتى أناختْ عند قدمه فأعرض عنها.

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٨٣﴾

يجعلها الله لبعض عباده لا كلهم، يجعلها الله للذين ترفعوا عن الكبر ولم يعيشوا في الأرض فسادًا، فسادًا في العلاقة بينهم وبين الله وفسادًا في العلاقة بينهم وبين الخلق، آية تحاطب أولئك الذين سعوا في الأرض فسادًا بأقوال أو أفعال يظنون - وهما - أنها هينة وهي عند الله جُرم كبير.



السامري مع نبي الله

موسى عليه السلام

نموذج ثالث للطغيان الذي واجهه موسى ﷺ، بعدما رأينا طغيان السلطة في فرعون وطغيان المال في قارون نرى طغيان الصنعة والقدرة على التلون في شخصية السامري، وأين الطغيان في شخصية السامري؟ إنه طغيان من نوع مختلف، طغيان النبوغ الذي يتقص من قدر من حوله فيرى أنه صاحب فضل وأنه لم يأخذ حقه ومكانته. طغيان يخدع الناس ليوهمهم بصدق زعمه، طغيان القدرة على قلب الحقائق لتصير أكاذيب ثم يجعل تلك الأكاذيب ليُصدقها الحمقى، طغيان النفس حينما تغتر فتعتقد أن على البقية إجلالها وتقديسها.

وأمثال السامري لا يظهرون إلا وقت الراحة والأمن، أما عند البأس والشدة هم أسرع من يختبئ، وأول من يفر، أين كان السامري في مواجهة استعباد فرعون لقومه؟ قطعاً لا يجرؤ على تصدر المشهد لأن مثله يقود الفتن في ظلام الليل لا في وضوح النهار، وحتى الفتنة التي أحدثها في قومه لم يجرؤ على الحديث عنها في وجود نبي الله موسى ﷺ، إنما رأى أن يستغل غيابه فترة عن قومه حينما ذهب ليتلقى التوراة من الله عز وجل، فجمع الذهب الذي كان مع قومه وأحرقه وصنعه على شكل عجل كبير وبصنعه كان الهواء يدخل من دُبر العجل ثم يخرج من فمه فيحدث صوتاً ثم أخبرهم أن هذا هو إلههم، هذا هو مجمل المشهد.

والمرء لا يدري مم يعجب؟ أيعجب من سذاجة الفكرة؟! أم من سفه الصانع؟! أم من حمق المصدقين؟! فهذا العجل الذهبي الذي اتخذ بعض منهم إلهاً كان بعدما اجتازوا البحر وقد أنجاهم الله وأغرق فرعون أمام أعينهم، وبعد السقطة الأولى حينما قالوا نريد إلهاً كما لهم آلهة، نرى هنا سقطة أشد بشاعة وقد أخذت حظها منهم حتى وجدت من يُصدقها.

والسامري رمز آخر للتحايل على العامة ومن لا رأي لهم، رمز لقدرة أشخاص على طمس الحقيقة وتزيين الباطل ليحتل مكانة في النفوس، وأمثال السامري لا يكاد يخلو منهم زمان، ولا نكاد نجهلهم في مجتمع من المجتمعات، إنهم حاضرون دائماً، لا يأتون للناس مباشرة بل يُشككونهم في الحقائق ليصنعوا عمراً يدخلون منه إليهم؛

فإذا ما تمكنوا منهم جهروا بأفكارهم، فالسامري وعظهم أن الذهب الذي أخذوه من مصر ليس من حقهم فامتلأوا وجمعوه وقرروا دفنه، ثم تراءى له خطوة ثانية ماذا لو جمعناه وأحرقناه وشكلناه، ففعل وهم له عون، ثم تراءت له أن يعرض غايته التي كان يخبئها فلما اكتملت صناعة العجل من الذهب أطلق على مسامعهم أن هذا هو ربكم فاسمعوا وأطيعوا، فوجد من يسمع ويطيع؛ لأن الإيمان الضعيف لا يصمد في مواجهة الفتن، فالذين طلبوا من موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلهًا من صنم، والذين عبدوا عجل السامري لو أنهم عرفوا الله يقينًا لما وقعوا في فتنة السامري.

وأمثال السامري نرى ارتفاع صوتهم حينما يسكت من يكشف كذبهم، الذي ينشر بدعة يدقق في اختيار الزمان؛ حتى لا يظهر من يرد عليه كذبه، ويدقق في اختيار المكان؛ حتى يجد بيئة خصبة تحتضن بدعته، فالسامري الذي أخذ فرصته في تضليل قومه وفتنتهم حينما جاء موسى عليه السلام لم يجرؤ على الحديث بصحة ما اعتقد ولا الدفاع عنه، إنما اخترع مبررات ككذبه الأولى على قومه ظنا منه أنها ستنتظلي على نبي الله.

في زمان عمر بن الخطاب قام رجل يدعى (صَبِيغُ بْنُ عَسَلٍ) وكان يُحَدِّثُ الناس في متشابهات القرآن فتنة وتشكيكًا لا استرشادًا واستفسارًا، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب فأرسل إليه وقد أعدَّ له عراجين^(١) النخل فلما دخل عليه قال له عمر: مَنْ أَنْتَ؟ فقال: أَنَا عَبْدُ اللَّهِ صَبِيغٌ. فقال عمر: وَأَنَا عَبْدُ اللَّهِ عُمَرُ، ثُمَّ أَهْوَى إِلَيْهِ فَجَعَلَ يَضْرِبُهُ بِتِلْكَ الْعَرَاجِينَ، فَمَا زَالَ يَضْرِبُهُ حَتَّى جَعَلَ الدَّمُ يَسِيلُ عَلَى وَجْهِهِ، فَقَالَ: حَسْبُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَقَدْ وَاللَّهِ ذَهَبَ الَّذِي كُنْتَ أَجْدُ فِي رَأْسِي، فَأَعَادَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ إِلَى الْبَصْرَةِ ثُمَّ أَمَرَ أَنْ يَقُمَ خَطِيبًا فِي النَّاسِ فَلِيقُلْ: إِنَّ صَبِيغًا طَلَبَ الْعِلْمَ فَأَخْطَأَهُ، وَمَنَعَ النَّاسَ أَنْ يَجَالِسُوهُ، حَتَّى قَالَ أَبُو عَثْمَانَ النَّهْدِيُّ: كَتَبَ عُمَرُ إِلَى أَهْلِ الْبَصْرَةِ أَلَّا يَجَالِسُوا صَبِيغًا، فَلَوْ جَاءَ وَنَحْنُ مَائَةٌ لَتَفَرَّقْنَا عَنْهُ^(٢)

١ عراجين: مَا يَحْمِلُ الثَّمَرُ وَهُوَ مِنَ النَّخْلِ كَالْعِنَقُودِ مِنَ الْعِنَبِ

٢ سنن الدارمي حديث ١٤٦، كنز العمال (٢/ ٣٣٥)، الدر المنثور (٨/ ٢)، (سير الذهبي: ١/ ٢٩)

قال تعالى ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَىٰ ۖ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَيَّ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ۚ ۞ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ۚ ۞ طه [٨٣-٨٥]

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَىٰ ﴾ بعدما نجى الله موسى عليه السلام وقومه واعدده ربه لميقاته ليتلقى التوراة فتقدم موسى عليه السلام قومه للقاء الله وأناب عنه أخاه هارون عليه السلام ليقوم مقامه في بني إسرائيل، وذهب إلى ميقات ربه، فسأله الله ما الذي حمله على أن يسبقهم ولم يصبر حتى يأتي معهم ؟

﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَىٰ ﴾ بعض الأعمال يكون الخير فيها أن تأتي في وقتها لا قبله، فموسى عليه السلام من شدة حرصه على طلب رضا الله قد سبق قومه فلما تركهم لم يجد السامري من يوقف بدعته بحزم كحزم موسى عليه السلام فشاع أمرها حتى صدقها فئة من الناس، فندبير قائد القوم ليس كأبي أحد منهم، لأن نظرتهم عامة غير مقيدة، فقد يكون الخير في أن يكون بينهم، لا أن يتقدمهم .

﴿ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَيَّ أَثَرِي ﴾ أي قادمون ينزلون قريباً من الطور، ولم يكن يعلم بأمر السامري.

﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ لترضى، ليس لتعطي، فكل غايته أن يرضى الله عنه، والذي يتعلق قلبه بالآخرة تجدد نفسه مدفوعة دائماً لتعجل الطاعة، لا تصبر نفسه حتى تأتيها، فإذا ما أتمها سكنت نفسه واطمأنت.

في الحديث أن النبي ﷺ قال: (التَّوَدُّةُ فِي كُلِّ شَيْءٍ خَيْرٌ إِلَّا فِي عَمَلِ الْآخِرَةِ) ^(١) أي التآني في كل الأعمال خير إلا أعمال الآخرة فلا يهلك العمل إلا التسويف.

قال أحد الصالحين : إذا فُتِحَ لأحدكم باب خير فليُسرع إليه، فإنه لا يدري متى يُغلق عنه

﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ فالغاية التي يريد بها هي إرضاء الله، هي الغاية التي يسعى إليها كل مؤمن يُخضع حياته لمراد الله، يعرض أفعاله وأقواله على منهج الله فما استقام منها أقامه وما خالفها كان أبعد الناس عنه

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾ قد ابتليناهم بعدما تركتهم اختباراً لهم. إذا ما رأيت من انتكس بعد طاعة فادع له بالهداية واتهم نفسك بالتقصير، فهؤلاء قوم عبروا البحر بمعجزة ورأوا من الآيات ما لم يره غيرهم، ولما سبقهم نبي الله في المسير عبدوا عجلاً!

﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾ لن تجد صاحب بدعة في زمن شاع فيه العلم وكثر فيه العلماء وحُفظ فيه الدين، إنما تنتشر البدع حين ينتشر الجهل، فالسامري الذي أخذت فتنته من قوم موسى عليه السلام كل مأخذ في غيابه لم تصمد في حضور موسى عليه السلام سويغات حتى هدمها.

﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ أضلهم السامري حين زين لهم عبادة العجل، فصدّقه بعضهم وأطاعوه في عبادته.

﴿وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ كل صاحب بدعة في قوم هو سامري زمانه، كل من يدعو إلى باطل فهو سامري زمانه، فهذا القصص يُقص علينا لتعلم، لتتعظ، لتأخذ العبرة، لنفهم كيف يفكر أمثال قارون وأمثال السامري، لئلا نتخذ أفكارهم ديناً ومنهجاً، لئلا نركن لمثل أفكارهم ونزينها بأسماء واهية تخدع العامة والبسطاء فنكون شركاء في الجرم، فالذي يعلم الحق ويعجز عن نصرته عليه ألا يصفق للباطل فيلبس أمره على الناس.

قال تعالى ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَقَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ طه [٨٦]

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا﴾ كم لاقى نبي الله في مشوار دعوته! حين تُتابع مشوار دعوة موسى عليه السلام تجد رحلة شاقة حوت أغلب صنوف العناد البشري للحق، والآن يرى من قومه ذنباً لا يدري بأي عقل فعلوه؟! أهؤلاء الذين رأوا بأعينهم كل هذه الآيات يفعلون هذا؟ أهؤلاء الذين عبروا البحر بمعجزة لم يسمعوا عنها إنما عاشوها واقعاً حيّاً يفعلون هذا؟ أهؤلاء الذين لا زالت آثار مياه البحر على أقدامهم يرتدون عن الإيمان؟ وحقّ لنبي الله أن يغضب، إنه يغضب نصرّة الله، وغيرة على عقيدته.

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا﴾ حينما يرى المرء إخفاقاً يئن القلب من مرارته، يئن من المجهود الذي بذله في رحلة بنائه، يئن حينما يرى الأيدي التي يفترض بها أن تتم بناءه هي من تهدمه، فالذين عبدوا العجل كانوا يُرَبَّون لبناء مجتمع على عقيدة خالصة من الشرك نقية من شوائب الوثنية .

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا﴾ يحق لكل صاحب دعوة أن يغضب نصرة لها، يحق لكل صاحب فكرة أن يغضب إذا ما رآها تُهدم أمام عينيه، الأمم لا تُبنى بالكلمات، الأمم تبنى بالعمل، بالحزم مع من يسعون للفساد، من يسعون للهدم، الأمة التي لا تأخذ على يد الفاسد ينهض بعده عشرات، وصاحب البدعة الذي لا يؤخذ على يديه تزداد شوكة فكرته الضالة ويجد لها أنصاراً وتتسع رقعتها وتأثيرها مع الزمان، فالبدع لا تبدأ كبيرة أبداً، إنما تبدأ بخاطرة في رأس صاحبها يحاول غرسها في الواقع فإن وجد من يقتلعها مبكراً عجزت عن إيجاد أرض خصبة تنبت فيها وتزهر .

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا﴾ وفي موضع آخر ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَنَ أَسْفًا قَالَ بَشَرًا خَلَقْتُمُونِي مِنْ بَعْدِي أَعْلَيْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى الْأَلْوَحَ وَآخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾^(١) في الحديث أن النبي ﷺ قال (لَيْسَ الْخَبْرُ كَالْمُعَايَنَةِ، إن الله تعالى أخبر موسى بما صنع قومه في العجل فلم يلق الألواح، فلما عاين ما صنعوا ألقى الألواح فانكسرت)^(٢) ليس حال الإنسان عند معاينة الشيء كحاله عند الخبر عنه في السكون، فقد علم موسى ﷺ بما حدث لقومه قبل أن يعود إليهم، لكنه حينما رآه بأمر عينه انفعّل حتى إنه ألقى الألواح التي كانت مكتوب عليها التوراة من يده من شدة غضبه من فعلهم.

﴿قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا﴾ أفیکم من يعبد صنماً وأنتم خير أهل زمانکم، ألم يعدكم ربکم بالخير في الدنيا والآخرة؟

١ الأعراف [١٥٠]

٢ أخرجه أحمد (٢٤٤٧)، والحاكم (٣٢٥٠) وقال صحيح على شرط الشيخين، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٣٧٤)

﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ﴾ أطال عليكم انتظار وعد ربكم؟ هل أمضيتم زماناً على الطاعة ولم تجدوا ثمرتها؟ إن ماء البحر لا يزال عالقاً بأقدامكم ، لم يطل الزمان بكم لتبدلوا أمر الله .

﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي﴾ هذا الذي فعلتموه بعدما تركتكم أفعلتموه لتعجلوا عقوبة الله بكم ؟ أنتركون اتباعي إلى الطور وتتوقفون عن المسير على أثري لتعبدوا عجلاً؟!

قال تعالى : ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلاً جَسَداً لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ طه [٨٧-٨٩].

﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا﴾ بملكنا أي : بطاقتنا، واختيارنا، فالمبرر لضلالهم أنهم ما فعلوه بإرداتهم، بل وجدوا أنفسهم يملكون بعضاً من حلي أهل مصر فتأثموا منها فصنعوا منها عجلاً فعبدوه ، ما أصبر نبي الله على قومه! يتأثمون من حلي أخذوه ولا يتأثمون من عجل عبده !

﴿وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ أوزاراً أي أثقالاً من حلي قوم فرعون، قد أخذوها معهم، ولست أدري بأي عقل يجيبون على نبي الله؟ أهذه أعدار تُقبل؟ أهذه مبررات ينطق بها أحد ليبر كفرة بالله؟ الذي يدافع عن باطل تجده ضعيف الحجة، وهو يدافع عنها باستماتة رغم يقينه بضعفها لا لشيء إلا أنها صادفت هوى في نفسه .

﴿فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ جمعوا الحلي في حفرة فظهرت فكرة السامري سريعاً فزين لهم أمراً صادف هوى في أنفسهم، وكانوا قد سألوا موسى عليه السلام أن يجعل لهم إلهاً صنماً يعبدونه فلم تزل الفكرة بعقل السامري حتى أوهمهم أنه على علم بأمر يفوق معرفتهم فصنع لهم من الحلي عجلاً .

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ﴾ له خوار أي له صوت، قد أتقن صنعته حتى إن الهواء يمر به فيحدث صوتًا، وهذه كانت مقومات إلهه الذي يعبد، أن يصدر منه صوت، ما أقبحها من مميزات تلك التي يدافع عنها كل سامري .

﴿فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾ فقالوا، لم يعد قول السامري وحده، فقد نبتت فكرته ووجدت من يدافع عنها، من يتحدث بها، من يعرضها معه أو بدلاً منه، إن هذا الذي ترونه هو إله موسى ﷺ الذي غفل عنه هاهنا وذهب إلى الجبل ليطلبه.

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ﴾^(٩١) أغابت عقولهم فاتخذت من هذا الصنم إلهًا يُعبد؟ فالإله المستحق للعبودية إله قادر، يملك أقدراهم وأرزاقهم وآجالهم، ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ رغم أنهم يبصرون لكن البصر لم يغن عنهم شيئًا، إنهم يرون صنمًا لا يملك شيئًا، فكيف اتخذه إلهًا؟

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَقَوْمُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ ۖ قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ۚ قَالَ يَهُدُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ۖ أَأَلَّا تَتَّبِعَنِ ۚ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ۚ قَالَ يَبْنَؤُهُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحَتِي وَلَا يَرَأْسِي ۚ إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ۚ﴾ طه [٩٠-٩٤]

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ﴾ قامت موعظة هارون فيهم على أربعة أركان اتخذها منهجًا لمواجهة هذه البدعة فبدأ أولاً بزجر الباطل وإظهار فسادة لإزالة أي شبهة فيه وتقييده في النفوس بوصفه فتنة تضل الخلق لا تهديهم ﴿يَقَوْمُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ﴾، ثم أتبعها بتعريف بالله المستحق للعبودية وحده تصحيحًا لأفهامهم ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ﴾ ثم أتبعها بتذكيرهم بمقام النبوة فهو خليفة موسى ﷺ فيهم ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾ ثم ختمها بتذكيرهم بما فرضته عليهم الشريعة بلزوم طاعته ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرِيَ﴾

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ﴾ كان نبي الله هارون فيهم آمراً وناهياً لكنهم توردوا على طاعته فخرجوا منها، وتعللوا بغياب موسى ﷺ وأنهم سيظلون على حالهم حتى يأتي موسى ﷺ فيقضي في أمرهم، وعنادهم هذا لم يأت من فكرة ينتصرون لها، ولا منفعة يتمسكون بها، إنما هو من فتنة أضلتهم، لذا نبههم نبي الله ﷺ ﴿يَقَوْمُ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ﴾ فما أنتم فيه هو فتنة، والفتن تُعمي القلوب عن الحق، تظهر فجأة ويتمسك بها ضعاف القلوب ويتنصر لها من يبحثون عن تصدر المشهد، من يريدون القيادة ولو بالفتن، من يعتقدون بسمو منزلتهم فيرفضون الاتباع، ولو كان المتبوع نبياً من أنبياء الله، فتصدر المشهد السامري وتمسك بالفتنة من لا دين لهم ولا رأي

﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ إنه لا يخبرهم بأمر جديد على أسماعهم، إنهم على علم بما يقول، على علم بالحقيقة التي لا غبار عليها ولا شائبة تُعكّر فهمها، إنما يذكرهم ناصحاً، يذكرهم موجهاً وآمراً وناهياً، فاتبعوني على الحق الذي أذكركم به وأطيعوني فيما أمركم به وأحملكم عليه .

﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى﴾ من يتمسك بفكرة لاقت في نفسه هوى - وإن كانت غير صالحة - لا يجادل إثباتاً لصحتها، لا يدافع عنها دفاع المؤمن بها، فهؤلاء الذين أعرضوا عن دعوة نبي الله هارون وقد دعاهم بالحسنى كانوا أسرع من اعتذر وتعلل بجهله حينما واجههم موسى ﷺ .

﴿قَالَ يَهْلُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ ١٢ ﴿أَلَا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ ١٣ ﴿حِينَ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا طريق الحق وانحرفوا لم تلحق بي لتخبرني؟

﴿أَلَا تَتَّبِعَنِ﴾ صلاح الدين أولى من صلاح الاجتماع، فما قيمة اجتماعهم مع فساد العقيدة؟

﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ الأمر الذي ألزمه به قبل أن يفارقه بأن يخلفه في قومه وأن يصلح ولا يتبع سبيل المفسدين ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ أَخْلَفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (١)

﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي﴾ وفي موضع آخر ﴿قَالَ ابْنُ أُمِّ إِنْ الْقَوْمَ اسْتَضَعْفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾^(١) لم يواجه هارون غضب موسى عليه السلام بغضب مثله، إنما قابله برقة ولين ولطف، وحين أراد أن يهدئ من غضبه ويستعطفه لم يقل يا أخي بل ذكر الأم ﴿قَالَ يَبْنَؤُمْ﴾ وذلك فيه استعطاف وتلين للجانب .

﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ خشي إن تركهم ولحق بموسى عليه السلام ليخبره أن يكون فيه هلاكهم وفرقتهم فمكث فيهم حتى عاد .

﴿إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾ عاتب موسى عليه السلام هارون عليه السلام أنه لم يتبعه حين رآهم ضلوا طريق الحق، وظن هارون أن في بقاءه خيراً ومنفعة من أن يتركهم ويتبع موسى عليه السلام، التماس العذر أولى من تقديم اللوم فلكل وجهة نظره التي يُقدِّر بها الأمور، لذا سرعان ما التمس موسى عليه السلام لأخيه عذر تأويله فما إن انتهى هارون من كلامه حتى رق قلب موسى عليه السلام لأخيه ودعا الله لهما ﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِإِخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾^(٢)

قال تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسْمِرُ﴾^(٣) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي^(٤) قَالَ فَأَذْهَبَ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ يُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا^(٥) طه [٩٧-٩٥]

﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَسْمِرُ﴾ بعض القضايا يُضيعها التغاضي، يقويها التجاهل، فلا يصلح لها إلا المواجهة والحزم، لا يصلح معها إلا اقتلاع جذور الفتنة لئلا تنبت من جديد، لم يكن حديث موسى عليه السلام مع السامري نقاشاً وجدالاً، إنما حديث حزم وشدة فليست كل القضايا يمكن اعتبارها محاور فكر يخضع للنقاش ووجهات النظر،

١ الأعراف [١٥٠]

٢ الأعراف [١٥١]

قضايا العقيدة لا فسحة فيها لأفكار هدامة نفسح لها مجالاً ثم نتركها تنبت ونُدعي أن
في تركها احتراماً للحرية وتأليفاً للجماعة، فصالح الجماعة لا يتحقق إلا بصالح العقيدة .

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ نجد في الحديث عن هذه الآية بعض الأخبار
من قبيل أنه رأى أثر جبريل عليه السلام وأنه أخذ حفنة من أثر قدم فرسه وأشياء من
هذا القبيل، وكلها أقوال لا تستند لأي أثر من السنة، وإن المرء ليعجب من أقوال
كهذه، أيسوقه الله في ثوب الضلال ثم يقولون عنه أنه رأى جبريل عليه السلام؟ أي قول
هذا؟ إنه بالمصطلح المعاصر "محتال" نسج الكذبة على قومه فلما صدّقوها تهادى فيها،
فلما واجه موسى عليه السلام اختلق كذبة جديدة لعله ينجو بها، لكن أننى لهذا أن ينجوا!
والقرآن حينما قص خبره ذكرها حكاية عنه، ذكر القول الذي قاله السامري لنبي
الله لموسى عليه السلام ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا
وَكَذَلِكَ سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي﴾ هذا هو قول السامري لموسى عليه السلام، ذكره ربنا حكاية عنه
يدّعي أنه رأى شيئاً لم يروه فسوّلت له نفسه تميزاً عن بقية القوم فأغواهم بصناعة
عجل من ذهب ودعاهم إلى عبادته، وقد رأى تجربة قومه الأولى حينما سألوا نبي الله أن
يجعل لهم إلهاً صنماً فأيقن أن فئة من القوم ليسوا على إيمان يقودهم لتمييز الحق من
الباطل، وأن خداعهم أمر يسير، أرادوا إلهاً من حجر فجاءهم بإله من ذهب فعبدوه.

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ﴾ قال القاسمي: واختلفوا أيضاً في أن السامري اختص
برؤية جبريل عليه السلام ومعرفته من بين سائر الناس ..؟ وكل هذا ليس عليه إثارة من
علم ولا يدل عليه التنزيل الكريم، ولذا قال أبو مسلم الأصفهاني " ليس في القرآن
تصريح بهذا الذي ذكره المفسرون ، فهنا وجه آخر ، وهو أن يكون المراد بالرسول
موسى عليه السلام ، وبأثره: سنته ورسمه الذي أمر به . فقد يقول الرجل : فلان يقفو أثر
فلان ، ويقبض أثره : إذا كان يمثل رسمه .^(١)

وقال ابن عاشور في تفسيره للآية : " وهذا الذي ذكروه لا يوجد في كتب الإسرائيليين ، ولا ورد به أثر من السنة ، وإنما هي أقوال لبعض السلف ، ولعلها تسربت للناس من روايات القصاصين .^(١)

﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ﴾ رأيتُ ما لم ير بنو إسرائيل ، وعلمت ما لم يعلموا وكذا كل صاحب بدعة يدّعي التميز ، يظن أنه حُصَّ بشيء لم يخص لأحد غيره ، ومن هنا يُغوي الناس باتباعه ، وأمثال السامري لا يغوون إلا سفيهاً لا رأي له ، أو جاهلاً لا علم عنده يرد به ، هؤلاء هم ضحايا كل سامري .

﴿ وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾ حين يأتي المرء بفعل قبيح لكنه يصادف هوى في نفسه لا يلتفت للنقد ، لا يلتفت لآثاره على غيره ، إنما تستحسنه نفسه ويدخلها العُجب كأنها أتى بأعجوبة لم يسبق إليها . فبعدما أغواهم لجمع الحلي وشكل لهم عجباً من الذهب وأمرهم بعبادته وجد من صنعه هذا قبولاً وإعجاباً في نفسه ، والذي لا منهج له يحكم تصرفاته يكون عرضة لغواية النفس قبل غواية الآخرين .

﴿ قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾ من أفسد على الناس دينهم أفسد الله عليه دنياه وآخرته ، فكان عقابه ألا يمس أحداً ، ولا يمسّه أحد ، ولا يخالط أحداً ولا يخالطه أحد ، ولا يقرب أحداً ولا يقربه أحد عقوبة له على إضلاله لقومه .
﴿ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا أَنْ تُخَلَّفَهُ ﴾ لك وعد آتيك لا محالة ، ولن يخلف الله وعده .

﴿ وَأَنْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنْهَرِكَنَّهُ ثُمَّ لَنْنِسِفَهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾ لم يكتف بالعقاب إنما أمره أيضاً بتطهير الأرض مما صنع ، فهذا ما صنعت يداك ودعوت الناس لعبادته وأطاعك منهم خلق كثير وبقيتم بجواره ملازمين لعبادته ؛ لأحرقنه ، ليس مجرد طمس للمعالم ، إنما إحراق ثم نسف كامل لآثاره لتلا يبقى له أي بقية ، لا على الأرض ولا في الأنفس ، فأفاقوا على عظم الجرم الذي جاءوا به ﴿ وَلَمَّا سَقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾^(٢)

١ التحرير والتنوير (ج ١٦ - ٢٩٦)

٢ الأعراف [١٤٩]



مؤمن آل فرعون

أخذت رحلة الصراع مع فرعون مشاهد عدة، جاءت بعض مشاهدنا لتبين لنا أن سلطان العقيدة في الأنفس صادقة الإيمان لا تزعه الهزات ولا تؤثر فيه المغريات، فرأينا مشهد الانتصار للعقيدة في قلوب السحرة وهم يحاجون فرعون بها ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ (٧٢) إِنَّمَا آمَنَ بِرَبِّنَا لِيُغْفِرَ لَنَا خَطَايَنَا وَمَا آكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿٧٣﴾ (١)

فهذا الرقي الإيمان والفهم العميق لحقيقة التوحيد كان وليد لحظات لامس الإيمان فيها قلوبهم، والسحرة إنما حاجوا فرعون حينما أيقنوا ببهتان دعوته وفساد أمره وبطلان منهجه.

ثم نجد في القرآن نموذجاً آخر يؤصل نفس المنهج ليرسخ في قلوب المؤمنين أن سلطان العقيدة ينتصر حتى إن عارضته الظروف، ليس انتصار سلاح إنما انتصار منهج، انتصار ثبات، انتصار تقديم الحجج الدامغة على صدق ما يؤمن به ويدعو إليه، وهو نموذج فردي بعدما رأينا في قصة السحرة النموذج الجماعي للانتصار للعقيدة نراه هنا في صورة فردية لا تقل جرأة عن موقف السحرة، إنه نموذج لرجل لامس الإيمان قلبه، فلم يبال بفرعون ولا سلطانه، ووقف في بلاطه ينصف موسى ﷺ ودعوته، ينصفه بالرأي والحجة، ينصفه بالدعوة لعقيدته الصافية الخالية من شوائب الوثنية.

والإنصاف بالكلمة قد يكون أشد وقعاً على الأنفس من الإنصاف ببذل النفس في ميادين القتال، فالدعوة التي تخاطب العقول بحاجة إلى من ينقلها إلى العقول، من يحملها إلى البشر مُحملة بالمشاعر الصافية والحساس الصادق في الدعوة إليها، فالأنفس التي تُزهق تحمل بدائها رسالة لكنها تكون بحاجة إلى الكلمة التي تنقل فكرتها قبل بذل النفس، الكلمة وحدها هي التي تبقى بعد فناء الجسد، وما أيسر أن نجد المؤمن المجاهد لكن ما أشق أن نجد الداعية صاحب الحجة.

والقرآن حين يحمل لنا هذا النموذج إنما يريد أن يلفت انتباهنا له حين نسعى لنشر رسالة الله ومنهج الله، فالقتال بالكلمة يعادل القتال بالسيف؛ كل له وقته وميدانه، والأفكار

وحدها هي التي تحمل في داخلها عنصر البقاء، كذلك نجد بجوار الدعوة بالكلمة معنى آخر يلفت القرآن انتباهنا إليه، حين يعرض حوار فرعون مع ملئه الذين زينوا له منهجه الباطل ثم يعقب الحديث مباشرة بقصة الرجل المؤمن الذي اقتحم حديثاً كله مؤامرات لينصف موسى ﷺ ودعوته بالحجة العقلية، فالحق يأتي من كل مكان، ولو كان الأمر للظنون ما تصور امرؤ يوماً أن يخرج من حاشية فرعون من ينصف موسى ﷺ في حضرة فرعون، هكذا هي ظنون البشر، تعجز أحياناً عن استيعاب قدرة الله، ومعية الله، وعناية الله لعباده، يُمنح موسى ﷺ سيف الكلمة الصادقة من قلب حاشية فرعون، كما مُنح إطلالة حب من زوجة فرعون وهو طفل رضيع.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدْكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ ﴿٢٨﴾ يَقُومُ لَكُمْ الْمَلَكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢٩﴾﴾ غافر [٢٨، ٢٩]

﴿وَقَالَ رَجُلٌ﴾ تكررت في كثير من مشاهد القرآن، فمثلاً بعد اقتتال موسى ﷺ مع القبطي ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَمُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِيَّيْكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٣٠﴾﴾ (١)

وفي سورة يس بعد قصة أنبياء الله لقومهم ﴿وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَنْقُومُ آتِيعُوا الْمُرْسَلِينَ ﴿٣١﴾﴾ (٢)

وها هنا في قصة مؤمن آل فرعون ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ لم يأت ذكر لأسمائهم، وما الحاجة للأسماء إن كان في الفعل الذي قاموا به تمييز لهم؟ فالرجولة ليست توضيحاً لجنسهم إنما وصف لواقعهم، رقي في تقدير الأمور، رقي في تحمل المسؤولية، رقي في الجهر بالحق رغم الخطر الذي قد يجره عليهم إعلانهم به.

١ [القصص: ٢٠]

٢ [يس: ٢٠]

في حياة كل إنسان لحظة فارقة ليس عليه أن يؤثر السلامة والخوف من عناء المدافعة مع الفساد وأهله، بل عليه أن ينحاز للحق ولو بالكلمة لئلا يعتقد دعاة الباطل أنهم على حق إذا صمت المصلحون .

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ حين نقرأ ﴿مُؤْمِنٌ﴾ ثم نقرأ بعدها ﴿فِرْعَوْنَ﴾ نستشعر في قرارة أنفسنا كمّ التحدي الداخلي الذي واجهه حتى يجهر بكلامه هذا، نستشعر كمّ الصراع الذي واجهه قبل أن ينطق، ربما شيء من التردد، ربما بعض مشاعر من خوف العاقبة، ربما جرأة دفعته إلى المواجهة لكنها لم تخرجه عن التركيز في اختيار الألفاظ والمعاني، لكننا حين نكمل بقية القصة يختلف بداخلنا هذا الشعور، وكأنّ المشاعر التي بدأ بها حواراه في حضور فرعون وملئه قد تلاشت مع استمراره في عرض دعوته فنجده في آخرها كأنها سرت الطمأنينة إلى قلبه، كأنها استشعر معية الله فلم يعد لحضور فرعون مهابة في قلبه، فأخذت كلماته تكون أكثر قوة، أكثر صراحة، أكثر جرأة، هكذا يفعل الإيمان بالمؤمن، يرتقي به، فإن لم يجد المرء تغييراً في أقواله وأفعاله وسلوكه فعليه أن يراجع نفسه، فالإيمان إذا لمس شغاف القلب ارتقى بالمرء كلية في القول والفعل والسلوك .

﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ﴾ وحين نقرأ ﴿رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ﴾ تتعلق أذهاننا بصورة ذهنية مختلفة عن تلك التي يمكن أن نرسمها في مخيلتنا إن لم يأت هذان اللفظان معاً ﴿رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ﴾ فهو رجل في تصرفاته لكن هذه التصرفات جاءت بهذا الشكل لأنها اقترنت بالإيمان، فبدون الإيمان قد لا يكون للرجولة معنى يليق بها، وذلك لأن الإيمان يرتقي بفكر المرء، يرتقي بنظرته وتقديره للأمور، وقد رأينا هذا في قصة السحرة وكيف ارتقى بهم الإيمان لمجابهة فرعون والرد عليه بلا خوف أو تردد وهو من هو في الظلم والطغيان، وذلك لأن الإيمان ينتقل بالفرد من شخصية هامشية عابرة إلى شخصية قد أدركت الغاية من وجود الإنسان، ومن خلق الإنسان، ومن تكليف الإنسان.

﴿مِنْ أِلَٰلِ فِرْعَوْنَ﴾ يدبر الله الأمر لموسى عليه السلام بلطف منه، في مبدأ الأمر عاطفة رقيقة في قلب زوجة فرعون تنجيه من القتل صغيراً، والآن رجل من خاصة فرعون يدافع عنه فيصرف فرعون عن فكرة قتله، ليست كل المعارك بحاجة إلى حشد وتجهيز، بعض المعارك تُغير مصائرنا كلمة.

﴿يَكُنْكُمْ إِيْمَانُهُ﴾ يكتنم لأنه يعلم أن في إظهاره هلاكاً له، كتمه خوفاً من بطش فرعون، لكنه لما تصاعدت حدة العداء من فرعون بالتدبير لقتل موسى عليه السلام لم يجد بُداً من الدفاع عنه، من مخاطبة فرعون بما يكره أن يسمعه وهو بين حاشيته وملئه، حتى مع الكتمان كانت هناك نقطة فاصلة لا يصلح معها السكوت.

﴿يَكُنْكُمْ إِيْمَانُهُ﴾ آية تعلمنا ألا نتعجل في إصدار أحكامنا، ألا نطلق لألستنا العنان لآتهام هذا بالكفر وغيره بالنفاق وثالث بالخيانة، آية تعلمنا أننا إن رأينا زلة ممن نعتقد فيهم الخير نتغاض ونتجاوز ونلتمس لهم عذراً قد لا نعرفه.

﴿يَكُنْكُمْ إِيْمَانُهُ﴾ صادق الإيمان لا يُحسن التصنع، كلما أراد التَّخَفِّي كشفه صدق إيمانه في قول أو فعل.

﴿يَكُنْكُمْ إِيْمَانُهُ﴾ الإسهام في التغيير يكون بالمتاح من الإمكانيات، ليس عليك أن تكون داعية فصيحاً، أو في منصب مرموق، أو ذا مال وفير حتى تخدم عقيدتك، بل اخدمها بكلمة صادقة، بثبات على المبدأ حين تنزل أقدام آخرين، بابتسامة صادقة، بكلمة طيبة، بأمر بمعروف، بنهي عن منكر، بأن تكون قدوة صالحة، الذي يريد خدمة دعوته لن يُعَدِّم الوسيلة.

﴿يَكُنْكُمْ إِيْمَانُهُ﴾ ليس شرطاً أن يكون ظاهر الحال يدل على النية والمقصد، فقد تأتي الأعمال في غير قالب الذي نريد، وقد يخرج العمل الصالح في قالب غير الذي رسمناه له، لكن الذي يشغلنا الغاية التي من أجلها نسعى.

﴿يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ رغم كل محاولات فرعون لتضييق نطاق الدعوة ومحاربتها في كل واد لكنها اقتحمت حاشيته وهاهو رجل من قومه يرد عليه مدافعاً عن موسى عليه السلام

﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ هكذا علانية ينطق فيهم، ينطق في حضور فرعون، ينطق بما لا يُعجب فرعون، نعم إنه يكتُم إيمانه لكن الحق قد جرى على لسانه، وإن الإيمان الذي قد يجتهد المرء في كتمانته يتجلى في لحظة صدق كال موج الثائر بكلمات لا يقوى الباطل على الصمود أمامها، إنه مؤمن أثر الكتمان، إلا أنه في حياة كل مؤمن نقطة فاصلة ولحظة حاسمة تتغير فيها الإرادة الضعيفة الخائفة وتركن إلى معية الله فتصير أقوى وأشد ثباتاً، فأخذه إيمانه إلى حيث ينصف موسى عليه السلام في حضور فرعون، وأي كلمة تنصف داعية في حضور طاغية تحمل الموت لقاتلها، لكن الإيمان الصادق يأخذ بالنفس إلى التجرد الصادق، تجرد لا تركز فيه النفس إلى منكر، لا تركز بقول ولا بفعل ولا بصمت، لذا نطق الرجل المؤمن غير آبه بسلطان فرعون ولا ببطش فرعون، ولم يحمل لنا القرآن تعقيب فرعون عليه، أرضي فرعون أن يُهان منهجه ويصمت؟ أرضي أن يُنصف موسى عليه السلام على الملاء ويصمت؟ إن الذي أنطق الرجل المؤمن قادر على حفظه من مكر البشر .

﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ أقتلونه لمجرد أن قال ربي الله؟ إن هذه الكلمة البسيطة تحمل منهجاً يشمل كل مناحي الحياة، فمتى نطقها المؤمن رسمت له كل شئون حياته، ربط بها إيمانه القلبي بالفعلي، لكن أين الظالمون من فهم معانيها؟ إنهم يهيمون بعيداً عنها، فيستصغرون تضحية المؤمنين بها، يستخفون بهم، يعجبون أمن أجل هذه الكلمة ينفون أعمارهم؟ أمن أجل هذه الكلمة يبدلون أموالهم وأرواحهم؟ إنها في ظنونهم كلمة عابرة لكنها في قلوب المؤمنين بها كلمة تعني الحياة.

﴿وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ جاء بالآيات التي تدل على صدق نبوته، لم يقل أنا نبي الله فأمنوا بي بلا بينة يحملها، بلا معجزة تُظهره، إنما جاء بما يثبت صدق دعوته وما نكرانكم لنبوته إلا نكران من من يرى الحق ويعرض عنه .

﴿وَأِنْ يَكَ كَذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾ اتركوه يخاطب الناس، يدعوهم، فإن كان كاذبًا لن تضركم دعوته، وإن كان صادقًا يأتكم الذي يعدكم به، وأنبياء الله الذين واجهوا طغاة البشر حملوا ضمنيًا هذه الرسالة لهم، فوجد النبي ﷺ يطوف على منازل الحجيج بمنى وعرفات عشر سنين يطلب النصرة على طغاة قريش «مَنْ يُؤْوِينِي مَنْ يَنْصُرُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ رَسُولَ رَبِّي وَلَهُ الْجَنَّةُ»^(١) ثم يخاطبهم علانية بعد رحلة طويلة من الحروب والصراعات «يَا وَيْحَ قُرَيْشٍ لَقَدْ أَكَلْتَهُمُ الْحَرْبُ مَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ خَلَّوْا بَيْنِي وَبَيْنَ سَائِرِ النَّاسِ، فَإِنْ أَصَابُونِي كَأَنَّ الَّذِي أَرَادُوا وَإِنْ أَظْهَرَنِي اللَّهُ عَلَيْهِمْ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَهُمْ وَأَفْرُونَ»^(٢) فرسالة التوحيد على ألسن كل الأنبياء تحمل المنهج القادر على إصلاح البشر وهدايتهم، لكن الطغاة يأبون الصلاح إلا على المنهج الذي يخدم سلطانهم ويقي مجدهم الزائف واستبدادهم بالبشر .

﴿وَأِنْ يَكَ صَادِقًا يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ كان من الممكن أن يخبرهم أنه إن كان صادقًا فسوف يصيبهم كل الذي توعدهم به، لكنه لم يرد أن يحرك فيهم حمية كاذبة لمعتقداتهم فخاطبهم بما لا يؤخذ عليه صراحة أنه مؤمن بموسى ﷺ، وبما يكون أقرب لتسليمهم به وتصديقهم له .

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ﴾ يخبرهم بحجة عقلية دامغة أنه لو كان موسى ﷺ غير صادق في دعوته ما كان الله ليظهره بالمعجزات التي رأيتموها، فسنة الله ألا يظهر أمر مسرف قد تجاوز في حدود الله ، كذابًا في الإخبار عن الله .

﴿يَقُومُ لَكُمْ الْمَلِكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ يذكرهم بنعم الله عليهم بما بين أيديهم من قوة وسلطان ، ويجذرهم من نقم الله؛ فالملك الذي تصنعه يد البشر يعجز عن رد أمر الله إن جاء .

١ مسند أحمد ١٤٨٣٠ وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٦٣
٢ مسند أحمد ١٩٤٢٣ وصححه الألباني في تحقيق فقه السيرة للغزالي

﴿فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا﴾ حتى تقع كلماته في قلوبهم لم ينفصل عنهم في الحديث إنما أشرك نفسه معهم ﴿إِنْ جَاءَنَا﴾ والذي ينصح الناس من برج عاجي بعيداً عن واقعهم تأنف قلوبهم أن تأنس بحديثه، فالقلوب تألف من يألفها، من يتوددها، لا من يخاطبهم من علو، لا من يخاطبهم أنهم في النار جميعاً إلا هو، لا من يخاطبهم بلغة الوعيد، لا من يظهر تفضله عليهم، صلاحه وطلاحهم، خيره وشرهم، صدقه وكذبهم، فمؤمن آل فرعون يعلم أنهم على باطل وأنه على حق لكنه لما كان في مقام نصيح وإرشاد وضع نفسه في نفس قلوبهم لئلا يصد قلوبهم عن الأخذ بنصيحته .

﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ عقلية كل فرعون بكل العصور، الإعجاب بالنفس حد الغرور، حتى الرأي العابر يصادر حقهم في إبدائه، فلم إذن كان يطرح عليهم القضية للنقاش؟! ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ﴾^(١) ما الحاجة لسؤالهم إن كان لا رأي لهم؟ ما الحاجة إلى الاستماع للناس إن كان ما تحمله لهم هو الصواب والرشاد قبلوا ذلك أو رفضوه؟ ثرى ما الذي دفعه لأن يطلب منهم إذناً لقتله؟ أما كان يعجزه أن يفعل بلا إذن؟ وما الذي حال دون أن يفعل؟ إنه فقط يريد أن يخاطب الناس بأنه إنما يدافع عنهم، عن إرادتهم، إنما ينزل على رغبتهم وينفذ إرادتهم.

قال تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا يَوْمَ الْأَحْزَابِ ۖ مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ ۖ وَيَقُومُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ ۖ يَوْمَ تُولُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ۖ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ ۚ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ۚ كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾ ﴿غافر: ٣٠-٣٤﴾

﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ ما كان ليقول كلمة الحق ثم يركن من جديد لجوار فرعون ومنهجه، إنما تابع حديثه في قوة وثبات زلزل به تصورات فرعون وملئه لدعوة موسى عليه السلام، فأخذ يذكرهم بمصائر الأمم التي سبقتهم ﴿مِثْلَ دَابِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ فهذه الأمم التي وصلتكم أخبارها كانت تظن أنها تُعجز الله بقوتها، ومُلْكها، فلم يبق منها شيء، لقد رحلت إلى حيث يذهب كل باطل، والله حين يأخذ الناس بظلمهم لا يظلمهم إنما يجازيهم على عصيانهم.

﴿وَيَقَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ﴾ فقوتكم تقف عاجزة أمام أقدار الله، وقوتكم تقف عاجزة عن رد الموت إن جاء إليكم، والقوة التي عجزت عن حمايتكم في الحياة الدنيا ستكون في الآخرة بلا قيمة.

﴿يَوْمَ تُولَوْنَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ﴾ يصرف نظرهم لموضع آخر غير الذي يعتقدون فيه قوتهم وبأسهم، إنهم ينظرون إلى ما بين أيديهم، إلى قوتهم الحالية، إلى سلطانهم الحالي، لكنه يصرف أفهامهم لمنظر آخر، لما بعد الحياة الدنيا، لحياة أخرى بمقاييس أخرى يصبح فيها سلطانكم بلا قيمة، تصبح فيها قوتكم عاجزة عن نصركم ﴿وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ يرد على زعم فرعون بأنه يحمل لهم الرشاد ويحمل لهم النجاة، فلا سبيل لرشاد فرعون إن كان الضلال قد تمكن من قلبه فحال دون أن يؤمن بالحق الذي جاءه.

﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ فأمر الرسل والدعوة للتوحيد ليس بجديد عليكم، لقد بعث الله إليكم يوسف عليه السلام من قبل رسولاً، فلم تعاندون وتستكبرون الآن على الإقرار بوحدانية الله والإيمان به؟

﴿فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾

واصل الرجل المؤمن عرض قضيته، يخاطب عقولهم تارة وقلوبهم أخرى، يرغبهم تارة ويحذرهم أخرى، إن كلماته لم تحرك ضمائرهم لكنها أوهنت عزائمهم فحالت دون إجماع أمرهم على رغبة فرعون في قتل موسى عليه السلام

قال تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُ ابْنُ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسَبَّبَ السَّحَابَ فَاتَّطَاعَ إِلَٰهَ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَا أَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ غافر [٣٦، ٣٧]

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُ ابْنُ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ هذا الذي فعله يمكن أن نسميه بالإلهاء. هكذا هو تجميع القضايا المصيرية في حياة الشعوب، يأخذونها إلى منحى آخر يقلل من شأنها في أنفس الناس، ففي الفكر المادي تصبح كل الحياة خاضعة لإرادة البشر، وفرعون إنما يشغله صرف الناس عن دعوة موسى عليه السلام أكثر من انشغاله بالرد عليها، فكيف يرد عليها ولا حجة معه ولا منهج لديه؟ لذا لا يملك إلا صرف الناس عنها ﴿وَإِنِّي لَا أَظُنُّهُ كَذِبًا﴾ سابدأ في بحث قضية إله موسى عليه السلام رغم أني أعلم كذبه، هكذا يرتب فرعون أولويات البشر، فالقضية خاضعة للبحث والتحري فلا تجعلوها أول شغلهم، إنما انتظروا حتى أبدي فيها رأيا حين أتسلق على بناياتي الشائخة لأرى إله موسى عليه السلام، وفرعون إنما صرف الناس إلى أمر يحسنه ويرى فيه قوته المادية، بناء ضخيم يصرف إليه قوة الناس وهمتهم وتفكيرهم فلا يفكرون إلا به ولا يقطعون أمرا إلا بعد إتمامه، فينتظرون أن يعتلي البناء ويبت في أمر إله موسى عليه السلام، هكذا هو تصويره، وقد قبله الناس، فلا عجب أن يُنصَّب نفسه عليهم إلهًا يُعبد.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنُ ابْنُ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ﴾ لكل فرعون هامانه، ليس شرطاً أن يكون رفيق مجلسه، ليس شرطاً أن يكون عاملاً تحت إمرته، إنما كل من يُزين للحاكم الباطل هو هامان زمانه، والله تعالى حينما أشار إلى رسالة موسى عليه السلام سمى ثلاثة أسماء تحديداً لأن كلاً منهم رمز قابل للاستشهاد به في كل زمان، قارون بقوة المال، وفرعون بقوة السلطان، وهامان التابع المذلل للصعاب.

﴿ فَأُطْلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى ﴾ مفهوم الألوهية عند فرعون يرسم لنا بعض ملامح تفكيره فهو يراها في بناء شامخ يقف في أعلاه لينظر في أمر إله موسى ﷺ ، والمتتبع لآراء فرعون في صراعه مع موسى ﷺ يجده من أفقر الناس عقلاً، وأقلهم رأياً وأضعفهم بياناً، يجده يسود بالقوة وحدها، ويفرض بها سلطانه، يجده يجمع حوله من يُزكي صنعه وإن كان باطلاً، من يحمده رأيه وإن كان سفيهاً، فهذا الذي يدعي نفسه إلهاً يُعبد يعتقد أن وقوفه فوق بناء عالٍ كافٍ للحكم في مسألة إله موسى ﷺ .

قال تعالى ﴿ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَنْقُومُ أَتَتَّبِعُونَ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ۖ يَنْقُومُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا مَتَّعُ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ۚ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا ۚ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ۖ ﴾ غافر [٤٠-٣٨]

﴿ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَنْقُومُ أَتَتَّبِعُونَ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ يرد بها على كذب ادعاء فرعون حينما ادعى أن ما يراه في قتل موسى ﷺ هو الخير والرشاد لهم ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾^(١)

﴿ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَنْقُومُ أَتَتَّبِعُونَ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ تأليف القلوب يحملها على الاستماع للحق وقبوله، فقد ظل حرصه على هدايتهم ملازماً لدعوته رغم علمه بطغيانهم واستكبارهم، ﴿ يَنْقُومُ ﴾ لست غريباً عنكم، إنما أهتم لأمركم، أريد لكم الخير، ظل يرددها عليهم تأليفاً وتودداً .

﴿ يَنْقُومُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا مَتَّعُ ﴾ حقيقة ألقاها على أسماعهم ونعيشها واقعاً في حياتنا، قد نجد من يغتر بصحة، ومن يغتر بمال، ومن يغتر بسلطة، وحين يشارف الموت يجد كل هذا بلا قيمة، وذلك لأنه أدرك قيمة أخرى لم يكن ينتبه لها حين كانت لديه بعض مُتَّع الحياة وهي قيمة الإيمان والعمل الصالح.

﴿يَنْقُورُ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ﴾ وهو يخاطب قومًا أَلْفُوا رَغْدَ الْعِيشِ، أَلْفُوا حَيَاةَ الرِّفَاهِيَةِ، ومن تكون لديه أسباب المتعة قد لا يلتفت لحقيقة الحياة إلا متأخرًا، وقد يموت دون أن يلتفت إليها، حقيقة أن كل هذه متع وقتية، متع إلى زوال، متع قد تُسلب في أي لحظة وتفارق صاحبها .

﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ وفي مقابل متع الحياة الوقتية يقدم لهم بديلًا دائمًا لكنه غيبي، وهذا في الحقيقة ما يميز البشر، إيمانهم بحقيقة وعد غيبي، فالذي ينعم في الحياة برغد العيش ومتاعه قد لا ينتبه لهذا الوعد الغيبي إلا متأخرًا وقد يفارق الحياة دون أن يفكر يومًا في وعد الآخرة الغيبي .

﴿وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ﴾ وحين نقرأ ﴿دَارُ الْقَرَارِ﴾ يستقر في القلب طمأنينة أننا لم نأت للحياة عبثًا إنما جئنا لغاية، وسوف نتقل إلى صورة أخرى هي أمر غيبي بالنسبة لنا الآن، لكنها حقيقة، ولن تكون حياة مؤقتة إنما قرارنا فيها، هي المستقر الحقيقي الدائم .

﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ من عاش حياته في معصية الله فسوف يُجَازَى في الآخرة بمثل ما عمل .

﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ ليس مجرد العمل الصالح إنما عمل صالح ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فالجزاء في الآخرة مرتبط بالإيمان والعمل، الله يجازي المؤمن على ما قدم .

﴿فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ يُعلق قلوبهم بالآخرة، لئلا تغلبهم متع الدنيا، لئلا يتوهموا أن هذا هو منتهى النعيم، أن هذا هو منتهى السعادة .

قال تعالى: ﴿ وَيَقَوْمَ مَا لِيَ ادْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ۖ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ ۚ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ۝ لَاجِرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَن مَّرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ۝ فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ ۖ وَأَفْوُضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۝ فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا ۖ وَحَاقَ بِقَالٍ فِرْعَوْنُ سُوءُ الْعَذَابِ ۝ غَافِرٌ [٤١-٤٥] ﴾

﴿ وَيَقَوْمَ مَا لِيَ ادْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ۖ ﴾ ادعوكم للخير فتدعونني للشر ، ادعوكم للنجاة فتدعونني للهلاك ، ادعوكم لليقين فتدعونني للشك ، ادعوكم للجنة فتدعونني للنار ، يرسم مؤمن آل فرعون ذاك الصراع الأبدي بين الحق والباطل ، ذاك الصراع الذي سقط فيه خلق كثير ، ذاك الصراع الذي نال من سادة ووجهاء وعظماء وفقراء تعلق قلوبهم بالدنيا وحدها فضلوا الطريق للآخرة ، يذكرهم ويذكر نفسه معهم أن ما ادعوكم إليه هو الحق وما أنتم عليه هو الباطل

﴿ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ ۚ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴾ لا تستقيم دعوتي ودعوتكم ، إنما أريد لكم النجاة وتريدون لأنفسكم الهلاك ، أريد لكم الجنة وتريدون لأنفسكم النار ، فالدعوة التي أريدكم لها ترتقي عن التقليد الأعمى للأباء ، دعوة تحمل لحياتكم منهجاً وأسلوباً للحياة ، وما أيسر تصحيح مسار الحياة حينما تدرك النفس حقيقة الحياة وتأنس بلذة الإيمان .

﴿ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴾ هو عزيز قادر ، وهو غفور يتجاوز ويعفو ويسامح ، هو عزيز لا يغلب ، قوي لا يُقهر ، وهو غفور يجازي الحسنة بأضعافها بل يجازي على النية الحسنة حتى دون أن يفعلها صاحبها ، فيا الله ما أعظم قدرته وما ألطف حلمه بعباده وهو الغني عنهم !

﴿لَا جَزْمَ أَمَّا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ﴾ في الآخرة نعلمها فكيف في الدنيا ؟ كل الذين يعبدون من دون الله إلهًا لا يملك لهم نفعًا ولا ضرًا، لا يملك لهم خيرًا ولا شرًا، يدعونه فلا يستجيب، ينادونه فلا يُجيب، ويستنصرونه فلا ينصرهم، يعلقون آمالهم على إجابة فلا يرونها طيلة حياتهم، هكذا خذلان عقيدتهم في دنياهم قبل آخرهم.

﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ ليس إسراف مال إنما إسراف أقوال وأفعال، طريق الحق واضح فيعرضون عنه، أسرفوا على أنفسهم بالتجرؤ على ربهم بمعصيته ، بالصد عن سبيله، بمحاربة منهجه، بالتضييق على المؤمنين به، أسرفوا كثيرًا فلم يردهم للحق رسول يدعوهم، ولا معجزة ترد إليهم رشدهم، فكان الجزاء من جنس عملهم أنهم أصحاب النار، إنه وعد غيبي وهم ينكرون الغيب، لكنه وعد يقيني سيرونها لا محالة .

﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ﴾ خاطب بها نفسك في كل ابتلاء وقع لك، خاطب بها نفسك إذا غلبك قوي بسلطانه ، خاطب بها نفسك إذا ظلمت ولم تجد لك منصفًا، خاطب بها نفسك في كل ليلة غلبتك الهموم، خاطب بها نفسك في كل مرة حدثتك نفسك بمشقة الطاعة، أن مردنا إلى الله، أن موعدنا بين يدي الله ليقضي ربنا بيننا، في حينها تهدأ نفسك فتأنس وتطمئن. إن جعلت الله كفيلك كفاك، وإن جعلته عونك أعانك، وإن جعلته قوتك أيدك ونصرك .

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ﴾ أنت مُطالب بالدعوة، بالنصح ، بالإرشاد ، أما التوفيق والهداية فليست شأنك ولا قضيتك إنها من الله، سألها إبراهيم عليه السلام لأبيه ومات كافرًا ، وسألها النبي ﷺ لعمه فنزل فيه قرآن يُتلى ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ السعي قضيتك، والدعوة قضيتك، والتذكير قضيتك، أما الهداية فلله وحده، فالزم ما يعينك وسل الله التوفيق ولا يضرنك قلة السالكين في طريق الحق، ففي أمم ممن كانوا قبلنا بعث الله أنبياء لم يؤمن بهم أحد حتى يُبعث النبي ولم يكن معه مؤمن واحد من قومه يُصدقه .

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولَ لَكُمْ﴾ فستذكرون نصيحتي، لكنكم قد تذكرونها في وقت لا جدوى فيه من تذكرها، وكأنه بكلماته يرسم لهم النهاية، فالتوحيد الذي فر منه فرعون ظل يرجوه وهو يغرق ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ ^(١) أدرك الحقيقة في غير وقتها، أدركها في وقت لا فسحة فيه، وغفل عن الانصياع لها طيلة حياته .

﴿وَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ لَا تَبَدُّلَ ۚ لِلَّهِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ وَالْأَمْسَ ۚ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ لِرُحْمَتِهِ ذَاتِ الْوَجْهِ الْعَظِيمِ﴾ كل أمري، صغيره وكبيره. قد يضع الله في طريقك ابتلاء لا كاشف له إلا هو، وعقدة لا حل لها في حدود إمكاناتك لأنه يريد أن يرى قلبك مستسلماً لقضاء الله، راضياً بأقدار الله، مقراً لله وحده بالقدرة، يريد أن يسمع صوتك مناجياً خارجاً من حولك وقوتك لاجئاً لحول الله وقوته، يريد أن يرى إيمان قلبك لا إسلام لسانك، يريد لك اصطفاءً يخرجك من ضيق مقدرتك لسعة عطائه، وحين تصل لهذا المستوى من الإيمان ترى كل الأحزان قد تلاشت، وكل الابتلاءات قد انكشفت وكل الصعاب التي ظننت للحظة ألا حل لها قد بدت صغيرة بعدما فتح الله لها ألف باب يخرجك منها، في حينها يطمئن القلب الحائر، وتهبط النفس القلقة فتركن أنفسنا إلى حقيقة إيمان القلب والقالب .

﴿إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ بصير بأعمالهم، عالم بأحوالهم، وبمقادير حاجاتهم، يُعطي بفضلٍ ويمنع بحكمة فيكون في العطاء خير وفي المنع خير وما يميز المؤمن عن غيره هو رضاه بحكم الله في أمره في المنع والعطاء .

قال ابن عطاء الله: "ربما أعطاك الله فمنعك، وربما منعك فأعطاك، وإذا كشف لك الحكمة في المنع عاد المنع عين العطاء."

انتهى الحوار وانتهى الجدل إلى حيث ينتهي كل جدال مع مستكبر لا يؤمن بيوم الحساب، فتأبى نفسه الانصياع للحق وتأبى نفسه إلا الركون للهوى، ثم تأتي الإشارة في لفظة بسيطة تقذف في النفوس المؤمنة السكينة وهي تتابع الحوار الجدلي من أوله، لترى الخاتمة في أروع صورها، وترى معية الله في صورتها المادية المحسوسة فحال دون أن يُصاب بأذى ﴿فَوَقَّهٗ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا﴾ وَحَاقَ بِعَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿١﴾ سيئات ما مكروا في الحياة الدنيا، فحاشية فرعون التي تنطق بلسانه تأبى أن تسمع ما يחדش ضمائرهم الغائبة، إلا أن عناية الله فوق تدبير البشر، وفوق مكر البشر، فحفظه الله في الدنيا من مكرهم، وسيرعاه في الحياة الآخرة برضاه، وقد شهد الله له بالإيمان ووصفه بالرجولة، وجعله رمزا لكل داعية يقوى على قول كلمة الحق، فأنصار الباطل تؤرقهم الكلمة الصادقة، تقض مضاجعهم، ترد الظالم إلى حجه الطبيعي، إلى بشريته الزائلة، إلى عدم الاغترار بسلطانه وقوته، ترده إلى عجزه البشري.

انتهت قصة الرجل المؤمن، لكنها بقيت حية في ضمائر المؤمنين، في ضمائر الدعاة، في ضمائر الفئة التي لا ترسخ لباطل ولا تركز لظالم .

انتهت القصة في أحداثها وبقيت في قيمتها وأثرها، تحمل لنا حقيقة الدعوة وقوة الداعية، فالعمل الذي جاء به في صميم الدعوة لكنه جاء من منظور خارج عنها ﴿يَكْتُمُ إِيمَنَهُ﴾ ﴿٢﴾ فما الفائدة من الضجيج إن كان المضمون أجوف، الضجيج لمن لا هدف لهم، أما أصحاب الرسالات فينشغلون بالجواهر، ينشغلون بإيصال فكرهم نقية بلا شوائب، فما القيمة التي يتركها الالتزام الأجوف الذي يخالف فيه القول العمل، والسلوك للمنهج؟ إن الرسالة التي حملها لم ينشغل بالكيفية التي هو عليها بقدر انشغاله بشرح تفاصيلها بالحجة العقلية التي يقبلونها، فما الفائدة من الصدام؟ إنه يبني حاجزًا يحول دون التواصل بين الناس، يحول دون الوصول إلى مشاعرهم، إلى مخاطبة ضمائرهم، فالدعوة الجافة تموت والدعوة الغليظة تموت، إنما الدعوة اللينة يبقى أثرها ويجني دعائها ثمراتها، والدعوة التي تبقى هي التي ترتقي بأفهام الناس وترتقي بمشاعرهم، ففي أشد اللحظات شدة جاء بدعوته الراقية في مضمونها الرقيقة في أسلوبها.



مریم ومیلاد المسیح العلیہ السلام

قال النبي ﷺ (كَمَلْ مِنَ الرَّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا أَسِيَّةُ امْرَأَةٍ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ)^(١) كمال في الصفات الإنسانية، من فضائل وخصال تسمو بهن عن دونهن من الناس، ليس للدنيا حظوظ في قلوبهن، إنما سلّمت قلوبهن من كل شائبة تُعكّر صفو الإيمان الحقيقي، إيمان يسكن القلب وتبرهنه الأقوال والأفعال، وهكذا كانت حياة مريم ابنة عمران، أفضل نساء زمانها، ديناً وخلقاً، لم تكن نتاج تربية بقدر ما كانت نتاج دعوة صادقة لهج بها قلب أمها الصادق الممتلىء بالإيمان .

وقصة مريم لم ترد في القرآن كإخبار عن المعجزة التي غيرت حياتها فحسب، إنما بدأت تفاصيل قصتها من قبل ميلادها، من أم صالحة قد نذرتها الله من قبل أن تولد، ولما علم الله صدق نيتها قبل ميلادها، فنشأت مريم في أروع صورة يمكن أن تنشأ فيها فتاة، في بيت حافل بصنوف الطاعات وفي كفالة نبي من أنبياء الله، لتنشأ على أتم صور الطاعة، وأروع صور العبادة، على الصورة التي جعلت فتاة في مطلع عمرها ترى رزقاً يُساق إليها في محراب عبادتها فلا تعجب إنما تُحِبُّ بكل ثقة ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٢) لم تكن نشأتها عادية كما حياتها فيما بعد، لقد جاءت مريم كسرّاً للمألوف في حياة النساء، ولم تحصل على مرتبة الصديقية إلا حينما اجتازت عديد من الابتلاءات قد تجاوزتها لا بشيء سوى بصدق توكلها على الله، الذي شملها بعفوه ولطفه في أصعب لحظاتها ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾^(٣)

والسياق الذي وردت فيه تفاصيل القصة جاء في عرض حي مليء بالمشاعر والانفعالات حينما تقرأ تفاصيله تجد ثباتها مع كل ابتلاء يهز كيانك، يحرك كل مشاعرك تفاعلاً معها، تستوقفك الردود في مواقف مختلفة، يشد انتباهك ذاك اليقين الذي ينطلق مع كلماتها، حين ترى يقين فتاة في مستقبل العمر تجيب على نبي كريم ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٤) يقين فتاة في مستقبل العمر

١ رواه البخاري (٣٤١١) ، ومسلم (٦٤٢٥)

٢ [آل عمران: ٣٧]

٣ [المائدة: ٧٥]

٤ [آل عمران: ٣٧]

تجيب على ملك كريم ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾^(١) يقين فتاة في مستقبل العمر تجيب على قومها بإيماء صغيره لوليدها ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ ليبدأ خطبة ستظل عالقة في تاريخ البشرية، وهي خطبة - رغم قصر كلماتها - تضع الفئة المؤمنة على طريق الحق، الحق الذي لا زيغ فيه، لا شبهة فيه، لا مكان لأقاويل باطلة، ليكون أول ما ينطق في خطبته ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾^(٢) إقرار واضح وصريح أنه عبد الله، أنه بشر مكتمل البشرية، أنه نبي من أنبياء الله، ذاك الإعلان الذي ظل يردده على آذان الناس لتعيه أفهامهم وتستوعبه قلوبهم ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾^(٣) إعلان بربوبية الله وحده من عيسى عليه السلام لكل البشر، لا استثناءات في هذه، لا مجال لشبهات ولا أباطيل ولا شك ولا أوهام، ولا تأويلات .

قال تعالى ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَدَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٤) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِؤُا نَآ لَكَ هَآذَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّا اللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾^(٥)

آل عمران [٣٧-٣٥]

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾ لا عجب أن تكون لمريم أم كهذه، فهذا أشبه بسنن الحياة، صلاح الآباء يقود إلى صلاح أبنائهم، فالصلاح منجاة للمرء ولذريته، لذا نجده واضحاً ومباشراً في قصة الغلامين بسورة الكهف؛ فكان تعليل الخضر لموسى عليه السلام ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾^(٦) والأبناء لا ينصلح شأنهم في الدنيا بقدر ما ترك لهم من ثروة بل بقدر ما ترك فيهم من أثر وقدوة .

١	[مريم: ١٨]
٢	[مريم: ٣٠]
٣	[مريم: ٣٦]
٤	[الكهف: ٨٢]

﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ محررًا من ماذا؟ محررًا من كل مظاهر العبودية لغير الله، من كل تعلق إلا بالله، من كل ميل للدنيا، من كل حظ للنفس، من كل شهوة، من كل قول أو عمل لا يأتي وفقًا لمراد الله، من كل اعتصام إلا بالله، من كل ركون للدنيا أو اعتماد على الخلق، هذا هو التحرر، هذا ما يرتقي بقلب المؤمن نحو الكمال، كمال يرتفع به من دونية الشهوة إلى عز العفة، من دونية الظن السيئ إلى يقين حسن الظن، ليصبح خالصًا لله عز وجل لا يشوبه شيء من أمر الدنيا

﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ إذا رتبته خطواتك وفق مراد الله وجدت السعادة أيًا كان الوضع الذي تحياه، وإذا رتبته وفق مراد النفس وجدت الشقاء أيًا كان الوضع الذي تحياه .

﴿مَا فِي بَطْنِي﴾ تجود بما في بطنها قبل أن يأتي إلى الدنيا، فكيف يكون حالها فيما بين يديها من متاع الدنيا؟!

﴿فَتَقَبَّلَ مِنِّي﴾ تقبّل مني بالله لتحقق أمنيته، تهتف بالدعاء ليقبل نذرهما، تتقوى بعون الله لا بعون الظنون، تأمل أن يحيط وليدها معية الله فلا يشقى، لم تكله إلى فطنتها، إلى مالها، إلى ما ستوفره له من صنوف الراحة والتعليم والتهديب، إنما تهتف بالدعاء ليعينها الله في تربية وليدها .

أنفق محمد بن كعب القرظي - أحد التابعين - مالا كثيرا ف قيل له: لو تركت شيئا لأبنائك فقال لهم: ادخرت مالي لنفسي عند ربي، وادخرت ربي لأولادي.

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾ كانت تتمنى ذكرا يصلح لخدمة بيت المقدس - رقعة من الأرض تقام فيها الشعائر - وأرادها الله أنثى تخدم العقيدة، تظل آية عالقة في أذهان البشرية - ما دام على الأرض حياة - تدل على طلاقة قدرة الله. والله حين يتفضل على خلقه لا يعطي ما سألوا فحسب بل يزيد فضلا وكرما بأكثر مما تمنوا.

﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى﴾ تفضيل في حدود الغاية التي كانت تقصدها، فإنما تمت ولداً يقوم على خدمة بيت المقدس ويقوى على مشاق هذا العمل، وهو تفضيل لا يتقص من جنس لصالح آخر، فإنما يرمم كل منهما نقص الآخر فيكمل بعضهم بعضاً.

﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ ومريم تعني في لغتهم العابدة أو خادمة الرب، وحين يرجو الآباء صلاح أبنائهم يجتهدون بكل ما في أيديهم لحملهم على الهداية حتى في أبسط الأمور وهو اختيار الأسماء.

﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ ظلت عند نذرها حتى بعدما ولدت أنثى، لكنها رجت أن تكون خادمة لعقيدتها إن لم تكن صالحة لخدمة البيت كالذكور، فتمنت أن تنشأ على تربية عقدية صحيحة كي تدرك ما فاتها من خدمة البيت كالرجال بخدمة عقيدتها كامرأة صالحة.

﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ لما اختارت اسماً لها هتفت بالدعاء لها بالصلاح ليكون فعلها مطابقاً لاسمها، فكان دعاؤها أن يعصهما الله من كل شوائب الشرك، من همزات الشياطين ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ﴾ أي: أمنعها وأجيرها بحفظك أن يصيبها شر من الشيطان، والشيطان في لغة العرب هو كل متمرّد من الجن والإنس والدواب وكل شيء^(١) وحين يكون العبد في معية الله لن يقوى شيطان من إنس أو جن على أن يمسه بسوء.

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ تقبّل الله منها نذرها، لما علم من صدق سريرتها، وحين يقبل العبد نحو ربه بسريره يُصلح الله له علانيته، فتجده ميسراً للفعل الخيرات، مقبلاً على كل صنوف الطاعات، وهذا من علامات قبول الله له.

﴿وَأَنْبَأَهَا نَبَأًا حَسَنًا﴾ بعض الناس يظن أن لطف الله به يكون في كبره، يكون في مرضه، يكون في ابتلاء أصابه، ولم يدر أن لطف الله يشمله حتى في تربيته لأبنائه، تجد فيهم صلاحاً فتستبشر فيهم خيراً.

﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ اختلفوا في أيهم يتولى رعايتها، ولما كانت نتاج دعوة صالحة تقبلها ربها وأنبتها نباتًا حسنًا، فكان من قبول الله أن يتولى رعايتها نبي من أنبيائه لا شخص عادي وإن كان تقيًا، وكفالة زكريا ﷺ لمريم لم تبدأ منذ ولادتها إنما منذ أن بلغت سنًا تصلح فيه التربية وتقوم فيه بخدمة البيت. وقد ورد بيان اختلافهم فيمن يقوم بأمرها كل يريد أن يرعاها وذلك لأن أباهما قد توفى قبل أن تولد، ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ يَقِفُونَ﴾ ﴿يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ ﴿آل عمران ٤٤﴾

قال ابن عاشور في تفسيره "ولما ولدت مريم كان أبوها قد مات، فتنازع كفالتها جماعة من أحبار بني إسرائيل، حرصًا على كفالة بنت حبرهم الكبير، واقتروا على ذلك، فطارت القرعة لزكريا ﷺ، والظاهر أن جعل كفالتها للأحبار لأنها محررة لخدمة المسجد فيلزم أن تُربى تربية صالحة لذلك" (١)

وقال الرازي في تفسيره: «ظاهر الآية يدل على أنهم كانوا يلقون أقلامهم في شيء على وجه يظهر به امتياز بعضهم عن البعض في استحقاق ذلك المطلوب، وإما ليس فيه دلالة على كيفية ذلك الإلقاء، إلا أنه روي في الخبر أنهم كانوا يلقونها في الماء بشرط أن من جرى قلمه على خلاف جري الماء فاليد له، ثم أنه حصل هذا المعنى لزكريا ﷺ، فلا جرم صار هو أولى بكفالتها والله أعلم» (٢)

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾ المحراب هنا ليس المعروف بوقتنا الحالي الذي يُصلي فيه الإمام، إنما هو غرفة كانت مُلحقة ببيت المقدس بُنيت لمريم لتعتكف فيها، فهو في الأصل بناء كان يُتخذ للعبادة والخلوة وهو غير المسجد وكان يُسمى بالمحراب لأن المقيم فيه كأنه محارب للناس مبتعد عنهم.

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ ليست كرامة مرة، ولا فضل مرة، ولاية الله لها كاملة، عناية الله لها موصولة لم تنقطع، يراها زكريا ﷺ في كل مرة يزورها في محرابها.

١ التحرير والتنوير: (٣/ ٢٣٥).

٢ تفسير الرازي - ج ٨ ص ٥٠ - آل عمران ٢٦ - ١٢٩

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ رزق ساقه الله إليها يصل إلى داخل محرابها، وهكذا هو عطاء الله، يرزق بأسباب مألوفة ظاهرة، ويرزق بلا أسباب حين يريد إظهار كرامة عبد من عباده.

وفي سوق الرزق إليها بهذه الكيفية تهيئة لها لقابل المعجزات، لتألف رؤية ما خالف الواقع والمألوف في حياة الناس، لتأنس نفسها بآيات الله، لتأنس نفسها بمعية الله، ثم هو رزق ليس معجزاً في كيفية وصوله لها فحسب، إنما فيما يشتمل عليه.

قال ابن عباس: ثمار الجنة، فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف.

﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ المعجزة هي أمر يُجْريه الله على أيدي الأنبياء ويكون على خلاف ما اعتاده الناس من سنن الكون وقوانينه، مقرونًا بالتحدي بهدف إثبات صدق نبوتهم، كتحويل عصا موسى عليه السلام إلى حية.

أما الكرامة فهي أمر يجريه الله على يد بعض أوليائه، ويكون على خلاف ما اعتاده الناس من سنن الكون وقوانينه كالرزق الذي ساقه الله لمريم، وفي حياة أصحاب النبي بعض الكرامات، ففي صحيح البخاري أن خبيب بن عدي الصحابي حينما أخذته قريش لتقتله حبسته أياماً فقالت امرأة ممن كانت في الدار التي حُبس بها (مَا رَأَيْتُ أُسِيرًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ خُبَيْبٍ، لَقَدْ رَأَيْتُهُ يَأْكُلُ مِنْ قِطْفِ عِنَبٍ وَمَا بِمَكَّةَ يَوْمَئِذٍ ثَمَرَةٌ، وَإِنَّهُ لَمَوْثِقٌ فِي الْحَدِيدِ، وَمَا كَانَ إِلَّا رِزْقُ رَبِّكَ اللَّهُ) ^(١)

﴿قَالَ يَمْرُؤُا أَنَّى لَكَ هَذَا﴾ أتدري من السائل ومن المسئول؟ السائل زكريا عليه السلام والمسئول مريم ابنة عمران، حين رأى ما استغربه لم يتغافله، إنما سأل، من واجب المربي أن يتنبه لأحوال من يقوم بتربيته، أن يسأل إذا ما رأى ما لم يألف رؤيته فيطمئن القلب.

﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ من الطواف الله العظيمة أن جعل كل شيء في الحياة قابلاً للتعويض إلا طريق النجاة فإنه مرتبط ارتباطاً تاماً بالله وحده ولا تعويض له.

﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ توفيق في الرد، إرجاع الفضل لله وحده، مخاطب نبيًا كريما وهكذا كان ردها، لذا كأنها استشعر زكريا عليه السلام أن في جوابها هذا إشارة له، ولم يكن له ولد فبعدها مباشرة ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿١﴾ بعض الردود تأتي في حياتنا على شكل رسائل؛ فإذا ما خَالَطْتَ من ترى فيه الصلاح والتقوى فلا تجعل عباراته تَمُرُّ عليك مرور الكرام. عن ابن عباس قال: فلما رأى ذلك زكريا عليه السلام - يعني فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف - عند مريم قال: إِنَّ الذي يَأْتِي بهذا مريمَ في غير زمانه، قادرٌ أن يرزقني ولداً، قال الله عز وجل ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ قال: فذلك حين دعا. (٢)

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَأَصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَمْرُؤُا أَقْنِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ آل عمران [٤٢، ٤٣]

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُا﴾ كل الأحداث التي مرت بها مريم كانت تؤهلها لأن تصبح إحدى آيات الله، من رزق يأتي بغير حساب، إلى ملك من السماء تمثل لها في صورة بشر ليخبرها باصطفاء الله لها، لتأنس بمعية الله، لتطمئن في قابل الأحداث، لتركن إلى ركن الله لا إلى ركن البشر حين تحمل بلا رجل، والإيمان حين يخالط القلب يُخضع أفعال المؤمن وأقواله لمراد الله، يعرضها على مراد الله، فإن وافقته قالها وفعلها وإن عارضته أعرض عنها، فلا قول ولا فعل يصدر منه يخالف مراد الله.

﴿أَصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَأَصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ اختارها دون غيرها لتكون إحدى آيات الله، وقد تكرر لفظ الاصطفاء مرتين فالاصطفاء الأول كان عامًا فقد ميزها بالإيمان والصلاح والطهارة، لكنه اصطفاء لم يقتصر عليها، فقد شاركها فيه غيرها من النساء، أما الاصطفاء الثاني فهو خاص لمريم دون نساء العالمين بأنها الوحيدة التي ستلد دون ذكر، وهذه مسألة لن يشابهها فيها أحد.

١ آل عمران [٣٨]

٢ تفسير الطبري (٦٩٤١)

﴿يَمْرِيْمُ أَقْنَتِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِيْنَ﴾ لا زال الخطاب من الملك جبريل ﷺ إلى مريم أن هذا الاصطفاء يحتاج منك مزيداً من الطاعة، مزيداً من الركوع والسجود ، مزيداً من العبادات التي ترتقي بها، فالطاعات ترتقي بالمؤمن بقلبه، بعقله، بجوارحه، لا تتركه كما كان قبلها.

عن أبي هريرة قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: « إِنَّ فُلَانًا يُصَلِّي بِاللَّيْلِ فَإِذَا أَصْبَحَ سَرَقَ » قَالَ ﷺ « إِنَّهُ سَيَنْهَاهُ مَا يَقُولُ »^(١) أي إن صلاته ستردعه عن تكرار المعصية .

قال تعالى ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرِيْمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيْحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ٥٥ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ٥٦﴾ آل عمران [٤٥ ، ٤٦]

﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ﴾ رغم شدة الموقف عليها، رغم كل ما سوف تلاقي بعده، إلا إنه يسوق إليها الخبر على أنه بشارة، الله يبشرك، الله الذي اصطفاك الآن يبشرك، أي عطاء هذا؟ أي فضل هذا؟ أي اختصاص لمريم هذا؟

﴿اسْمُهُ الْمَسِيْحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ لقب واسم ونسب، كله من الله ، لم تسمه أمه ولا ذوهه، وقد أنتسب إليها لا إلى أب، إخبار لها مع البشارة أنه وَلَدٌ من غير أب لذا فطنت لهذا حينما جاوبت فقالت: ﴿وَلَمْ يَمَسَّ سِنِي بَشَرٍ﴾

﴿اسْمُهُ الْمَسِيْحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ المسيح هو مسيح من الله أي مبارك من الله تعالى وقيل سمي مسيحاً لأنه خرج من بطن أمه ممسوحاً بالدهن، وقيل سُمي مسيحاً لأنه كان لا يمسح ذا عاهة إلا برئ، وقيل المسيح الصديق.

أما الثابت أن الذي سماه ولقبه هو الله تعالى ، واللقب جاء مُعَرِّفًا بالألف واللام ليكون قد اختص باللقب دون غيره، فما قال قائل المسيح إلا وعُرف أنه عيسى ابن مريم ﷺ، أما اللقب ففيه إشارة إلى أن الممسوح يقتضي من يمسحه وأن المبارك يقتضي من يباركه ، وكونه بشراً رسولاً فقد جرت عليه بركة الله ولاصقت اسمه ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾^(٢)

١ مسند أحمد ١٠٠٣٠

٢ [مريم : ٣١]

﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ وجيهاً، ما أجملها الألقاب التي تستند على عقيدة صادقة، التي تستند على إيمان خالص، وجاهة في الدنيا بالنبوة فهو نبي من أولي العزم من الرسل، ووجاهة في الآخرة بعلو المنزلة حين يجمع الله الناس للحساب .

﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ لن يكون شخصاً عادياً، إنما ستكون حياته كلها معجزات، إعجازاً في طريقة حملك به، ثم إعجازاً في نطقه في المهد، ثم إعجازاً في كهولته وقد صار نبياً من أولي العزم، وإعجازاً في الصبر على ما لاقى من قومه، من عناد واستخفاف وتنكيل به، من مغالاة في الحب، ومغالاة في البغض.

قال تعالى ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ ۚ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ آل عمران [٤٧]

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ استفسار يكون في الجواب عليه سكونية تستقر في القلب فلا يجزع مما هوأت، لذا جاء الجواب ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ إن الأمر خاضع لإرادة الله، لمشئته الله، إن الله سيجعل من ميلاد ابنها هذا آية للعالمين، فهي أهل للاصطفاء وهو أهل للبركة.

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ كان من المقبول منها أن تستفسر ﴿أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾ وتقف لكنها أتمت استفسارها ﴿وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ وهذا من فطنتها حينما سمعت ﴿يَمْرِيَمُ إِنَّ اللَّهَ يَبْشِرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ فهو ابن مريم لم ينسب لأب إنما انتسب لها ولو كان من أب لانتسب إليه لا إليها، لذا اكملت استفسارها الباحث عن جواب لهذا الانتساب لها فقالت ﴿وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ فجاء الجواب تأكيداً لفهمها ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ إنك صادقة حين قلت ﴿وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ ومع ذلك سترزقين بولد، وهذا راجع لمشئته الله وقدرته لا للأسباب المألوفة التي اعتدت عليها .

وفي سورة مريم جانب آخر من تفاصيل القصة

قال تعالى ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ۖ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۖ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ۖ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ۖ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۖ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَى هَيْنٌ وَلَنَجْعَلَ لَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ۝﴾ مريم [١٦-٢١]

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ لم يذكر الله تعالى امرأة في القرآن وسماها باسمها إلا مريم بنت عمران، فأفرد لها القرآن الكريم سورة كاملة باسمها، وسورة باسم أهلها وذويها «آل عمران» وجاء ذكر اسمها في نحو ثلاثين موضعاً.

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ قال الزركشي في كتابه «البرهان في علوم القرآن»: إن عيسى لا أب له، واعتقاد هذا واجب، وإن تكرار اسم عيسى عليه السلام منسوباً إلى أمه مريم استشعاراً للقلوب ما يجب عليها اعتقاده من نفي الأب عنه، وتنزيه الأم الطاهرة عن مقالة اليهود عنها». (١).

﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ فاتخذت من دون أهلها سترًا يسترها عنهم وعن الناس، لذة العبودية لله ليست بحاجة إلى أعين تنظر أو آذان تسمع، إنما خلوة ومناجاة ويقين في القلب أن الله يسمع نجواها .

﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ بعض الأعمال لا يليق بالمؤمن أن يفعلها أمام الناس وإن كانوا أهله وخاصته، ليكن لك خبيئة عمل لا يعملها إلا الله .

﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ سويًا أي مستوي الخلق، فما كانت لتتحمل رؤية ملك على صورته التي هو عليها، إقرار بالضعف البشري وأن الله لا يُجَمَّل عباده - وإن كانوا أولياءه - فوق طاقتهم .

﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ جاءها جبريل ﷺ في صورة رجل ، فلما رأت رجلاً قد خرق عليها الحجاب ظنت أنه يريد بها بسوء ، فأول ما نطقت كانت التعوذ بالله ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ﴾ ومن قبل قائلها يوسف ﷺ ﴿مَعَاذَ اللَّهِ﴾^(١) حين يفزعك أمر ليكن أول نطقك الالتجاء لله ، فذكر الله في كل أمر يورث القلب سكينه تخرجك من فزعك إلى الأمان بمعيته ، من عجزك إلى قدرته ، من ضيقك إلى سعة فضله ، من فراغ حيلتك إلى جهيل تدبيره .

﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ بالرحمن ، استعاذت بالرحمن وكأن لسانها قد اعتاد ذكر صفة الرحمن ، ففي لحظة فزعها استعاذت به حيث رأت رجلاً في هيئته الصلاح والتقوى لكنه ظهر في طريقها بلا مقدمات ففزعت منه .

﴿إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ لم تكن تعلم أنه ملك من عند الله قد تمثل لها في صورة بشر تستطيع رؤيته ، فافترضت فيه التقوى فقدمتها تذكيراً له بالله ، حتى مع هول المفاجأة لم تزد عن التذكير بالله ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ﴾ فالتقي حينما يسمع اسم الله تغلبه تقواه على مجرد التفكير في الذنوب ، لذا حُذف جواب الشرط لأنه فهم من السياق كأنها قالت إن كنت تقياً فلا تتعرض لي بسوء .

﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ رسول ربك ، يُطمئن فزعها أنه ليس شخصاً عادياً ، إنما هو ملك مرسل من عند رب العالمين ، عَرَفَ نفسه ثم وضح سبب وجوده ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾

﴿قَالَتْ أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ بِغِيًّا﴾ استفهام تريد به إزالة الحيرة مما سمعت ، إزالة الدهشة مما قاله ، ولد ولم يمسسني بشر؟ ثم أعقبته بدفاع عن نفسها تنفي به كونها قد أخطأت ، دفاع عن نفسها بما تعرفه من الأسباب ، ولد بلا أب وبلا خطيئة ؟

وأقدار الله خاضعة لمشيئته ، يهيئ الأسباب لوقوعها ، وقد تحدث بلا أسباب وذلك لأنه قادر .

﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ مَنْ أَنْبَتَهَا اللهُ نَبَاتًا حَسَنًا، وَمَنْ كَفَلَهَا نَبِيٌّ كَرِيمٌ فِي تَرْبِيَّتِهَا مَا كَانَتْ لَتَسْتَبْعِدَ شَيْئًا عَنْ قُدْرَةِ اللهِ تَعَالَى إِنَّمَا كَالَّذِي يَسْتَفْهَمُ كَيْفَ سَيَحْدُثُ كُلُّ هَذَا؟ أَهَوْبَعْدَ نِكَاحٍ مُسْتَقْبَلِي أَمِ أَمْرٍ يَقْضِي فِيهِ اللهُ بِحُكْمِهِ؟

﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبِّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ﴾ يَأْتِي الْجَوَابُ لِيُزِيلَ حَيْرَتَهَا، يُقَرِّبُ بِحَقِيقَةِ قَوْلِهَا، أَنَّهَا عَفِيفَةٌ لَمْ يَمَسَّسْهَا بَشَرٌ، أَنَّهَا طَاهِرَةٌ لَمْ تَكُنْ بَغِيًّا، وَأَنَّ خَلْقَ وَلَدٍ بِلَا أَبٍ هُوَ أَمْرٌ هَيِّنٌ عَلَى اللهِ الَّذِي خَلَقَ أَوَّلَ الْخَلْقِ بِلَا أُمٍّ أَوْ أَبٍ، جَوَابٌ يَرْدُّهَا إِلَى الْحَقِيقَةِ الْغَائِبَةِ عَنْ أَذْهَانِ أَغْلَبِ النَّاسِ أَنَّ الْأَسْبَابَ خَاضِعَةٌ لِمَشِيئَةِ اللهِ، وَأَنَّ خَلْقَ ابْنِ بِلَا أَبٍ لَنْ يَعْبُزَ إِلْهًا خَلَقَ آدَمَ بِلَا أُمٍّ أَوْ أَبٍ، لِذَا أَرَادَ اللهُ لِلطِّفْلِ الصَّغِيرِ أَنْ يَنْطَقَ؛ مُخَالِفًا لِلْعَادَةِ، حَتَّى يَسْتَوْعِبُوا أَنَّ خَلْقَهُ أَيْضًا مُخَالِفٌ لِلْعَادَةِ، وَأَنَّ الْاِلْتِفَاتِ الدَّائِمِ لِلْأَسْبَابِ وَحَدِّهَا هُوَ قُصُورٌ فِي الْفَهْمِ، وَأَنَّ رَدَّ قَضِيَّةِ خَلْقِ الْمَسِيحِ إِلَى حَقِيقَتِهَا الْأَوَّلِيَّةِ فِي خَلْقِ آدَمَ يُذْهَبُ أَيُّ عَجَبٍ، بَلْ يَقْتَضِي التَّسْلِيمَ الْمَطْلُوقَ، وَالْإِيمَانَ الْمَطْلُوقَ أَنَّ الَّذِي خَلَقَ آدَمَ دُونَ أَبٍ أَوْ أُمٍّ قَادِرٌ عَلَى خَلْقِ عِيسَى الْحَمْدُ لِلَّهِ مِنْ أُمِّ بِلَا أَبٍ.

﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ يَتَابَعُ شَرْحُهُ لَهَا لِتَطْمَئِنَّ أَنَّ كُلَّ هَذَا لَنْ يَجْرِي مِثْلَ بَاقِي أُمُورِ الْحَيَاةِ، أَنَّ وَلِيدَهَا لَنْ يَكُونَ كَغَيْرِهِ مِنْ أَهْلِ زَمَانِهِ، إِنَّمَا هُوَ آيَةٌ مِنْ آيَاتِ اللهِ، مُعْجَزَةٌ مِنْ مُعْجَزَاتِ اللهِ، وَأَنَّهُ سَيَكُونُ فِي مِيلَادِهِ وَنُبُوَّتِهِ فِيمَا بَعْدَ رَحْمَةِ النَّاسِ، لِمَنْ آمَنَ بِهِ وَصَدَّقَهُ.

﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ آيَةٌ وَاضِحَةٌ يَسْتَدِلُّونَ بِهَا عَلَى طَلَاقَةِ قُدْرَةِ اللهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ بِلَا أَبٍ، وَقَدْ خَلَقَ آدَمَ مِنْ قَبْلِ بِلَا أُمٍّ أَوْ أَبٍ

﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أَيُّ أَنَّ مَا أَقُولُهُ هُوَ قَضَاءُ اللهِ الَّذِي لَا يُرَدُّ، إِنَّهُ أَمْرٌ كَائِنٌ لَا حَالَةَ فَلْتَطْمَئِنِّي لِأَقْدَارِ اللهِ وَلِتَسْتَقْبِلِيهَا بِقَلْبِ الْمُؤْمِنِ، وَالَّذِي يَعَامِلُ اللهُ بِالطَّاعَةِ فِي رِخَائِهِ يَعَامِلُهُ اللهُ بِلُطْفِهِ فِي شِدَّتِهِ، وَهَكَذَا كَانَ لَطْفُ اللهِ بِمَرْيَمَ فِي الشَّدَةِ أَنْ أَلْقَى فِي قَلْبِهَا سَكِينَةً فَلَمْ تَفْزَعْهَا الْأَحْدَاثُ.

قال تعالى ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ۝ فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا ۝ فَدَادَهَا مِنْ تَحْتِهَا آلا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ۝ وَهَرَىٰ إِلَيْكَ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقُ عَلَيْكِ زُطْبًا جَنِيًّا ۝ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ۝ ﴾ مريم [٢٢-٢٦]

﴿ فَحَمَلَتْهُ ﴾ بعدما أخبرها جبريل عليه السلام بالأمر نفخ فيها نفخة أحدث الله بها الحمل بعيسى عليه السلام، وفي سورة التحريم ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا كِتَابٌ وَأَحْصَتِ فَرْجَهَا أَيْ لَمْ يَدْنَسْهُ شَيْءٌ، لَمْ يَلْقَ بِثُوبِهَا رِيْبَةً.

﴿ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ في الرخاء اختارت المكان ﴿ مَكَانًا شَرَفِيًّا ﴾ وفي الشدة عجز العقل عن اختيار المكان فكان ما يشغلها هو الابتعاد ﴿ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ هكذا تفعل النوازل بالمؤمن، ولن يتجاوزها إلا حين يسكن قلبه استسلامًا لقضاء الله ورضاه به .

﴿ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ تنَحَّتْ به عن الناس إلى مكان ناءٍ، لكن لطف الله بها لم يبعد عنها. إذا انقطعت السبل في الناس فإنها لا تنقطع في الله.

﴿ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾ بعض الابتلاءات لا يصلح معها المخالطة، إنما العزلة، العزلة عن فضول الآخرين، عن كلماتهم الجارحة، عن تهماتهم، عن نظراتهم الشامتة، في حينها تكون العزلة منجاة من استنزاف الطاقات هدرًا على ردود لا جدوى منها.

﴿ فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ ﴾ هملت فترة حملها كما تحمل النساء، وولدت كما يلدن، ليتم أمر الله ﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا ﴾ فلما جاء وقت ولادتها لجأت إلى جذع نخلة، لا أهل، لا سند من نساء يساعدها في أمر ولادتها، انقطع عنها كل عون من البشر ليتعلق قلبها بعون الله وحده، بمعية الله وحده، بلطف الله وحده .

﴿قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ قالتها امرأة تربت في بيت صالح، وتكفل بتربيتها
نبي كريم، وكلمها ملك من ملائكة الرحمن، هكذا يصنع الألم، هكذا قد تخوننا
بعض ألفاظنا في أوقات عصيبة مرت علينا .

﴿قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا﴾ قالتها في وقت بلائها، وقت
ضيقها وشدتها، ولم تعلم أنها سوف تلد نبياً من أولي العزم، ليس كل بلاء شقاء،
إنما تأتي المنح من رحم المحن ، ويأتي اللطف من رحم الشدة .

﴿قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا﴾ كأنما مر بمخيلتها ما ينتظرها
من قومها ففسى عليها أن ابتلاءها سيكون في عفتها ، وأن قومها لن يُصدّقوا خبرها،
وأن مريم العابدة سوف تصبح موضع اتهام من مرضى القلوب من قومها ، فتمنت
الموت رغم ما أخبرها به الملك ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ رفقا بمن يئنون تحت
وطأة الابتلاء ، إن قلوبهم في غمرة آلام لا يعملها إلا الله .

﴿قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا﴾ لكل إنسان طاقة في الكتمان،
في الصبر، في التحمل، بعدها يحتاج إلى أن ينطق بشيء يُسرِّي عما بداخل قلبه، لذا
كان رد فعلها أول مرة قبل وقوع الابتلاء ﴿أَنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾
استفسار غير مشحون بعاطفة ترغب في الإيضاح فلم يكن البلاء قد وقع بعد، أما
بعدها أصبح أمراً واقعاً تعيش تفاصيله جاءت الألفاظ تحمل شيئاً بسيطاً مما تحمله
بداخلها من ألم وحيرة، فهي بشر تفجعها النوازل، تئن من شدة الابتلاء، وهذا مما
تسمو به نفوس المؤمنين، إنهم يتفاعلون مع الابتلاءات ببشريتهم لكن إيمانهم يحول
دون السخط، دون الجزع، دون التبرم، دون الانتكاس بعد الرضا .

﴿وَكَُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا﴾ بلاء تمننت معه الموت، تمننت أن يخفي ذكرها، ولم تدري في
لحظتها أنه بلاء في ظاهره ورحمة في باطنه، وأن حديثها العابر في لحظة ألم ووقت ابتلاء
حين تمننت أن لو تُنسى قد قصه الله في كتابه لِيَكْتُبَ لكلامها العابر خلوداً في الذكر .

﴿ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا ﴾ صراع داخلي قد بلغ ذروته، بين واقع تعلم أنها قد صارت به آية من آيات الله، وأن ابنها هذا سيكون ذا شأن، وبين موقف المجتمع الذي تعيش فيه، والذي سوف يتربى فيه ابنها، والذي تعلم مسبقاً إنكاره له، ورفضه لقبوله وتكذيبهم لها .

﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا ﴾ قيل أن المنادي هو جبريل عليه السلام وقيل هو عيسى عليه السلام، والقول بأنه عيسى عليه السلام هو الأظهر في سياق الحديث وذلك لأنه لما حَدَّثَهَا قومها في أمره كل ما فعلته أنها أشارت إليه قرينة على أنها عرفت قبل ذلك أنه يتكلم على سبيل خرق العادة لندائه لها عندما وضعته، ومثل هذا في قصة موسى عليه السلام حين أمره الله أن يُلقِي عصاه فصارت ثعباناً حتى إذا صارت ثعباناً أمام فرعون لا يجزع، هكذا هو لطف الله بعباده، فلا يُحْمِلُهُم فوق طاقتهم، فحتى أنبياء الله وأوليائه رغم نقاء قلوبهم إلا أنهم بشر لهم طاقة تحمّل.

﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا ﴾ سريعاً جاء اللطف، تسمع صوتاً ييث في قلبها المضطرب الطمأنينة، ينطق صغيها الذي لم تمض على ولادته دقائق لتعلم أنها بصدد معجزة، أنها بصدد آية من آيات الله، لذا حين سألوها فيما بعد عن ابنها هذا لم تزد عن ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾^(١) فمن لطف الله أن حَدَّثَهَا طفلها أولاً لتطمئن، فحين تسمعه يُحدث القوم وهو رضيع لا تفرع .

﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي ﴾ أول ما سمعت من كلام وليدها ينهاها عن الحزن. قال ابن القيم : الحزن يُضعف القلب، ويوهن العزم، ويضر الإرادة، ولا شيء أحب إلى الشيطان من حُزن المؤمن، وقد استعاذ الرسول ﷺ منه (اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ الهمِّ وَالْحُزْنِ)..... والمكروه الوارد على القلب إن كان من أمر ماضٍ أحدث الحزن، وإن كان من مستقبلٍ أحدث الهم، وإن كان من أمر حاضرٍ أحدث الغم.

﴿ قَدْ جَعَلَ رَبِّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ سرّياً أي جدول ماء كالنهر الصغير لتشربي منه .

﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ كلمات تنقلها من عمق المحنة إلى سعة اليقين في معية الله، يقطع تفكيرها العميق في تفاصيل الأحداث إلى أفعال اعتيادية تشغل العقل عن مداومة التفكير في الأمر والتعمق في بناء تخیلات لمستقبل الأحداث وتوابعها.

﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ لطف الله بها لم ينقطع، ففي الوقت الذي تضع فيه مولودها وليس بجوارها أحد يعينها؛ يُنطق الله صغيرها ليربط على قلبها، يُجري ماء عذبًا بجوارها، يسقط عليها الرطب لتتقوى به، تفاصيل تربط على قلبها الصابر أن معية الله تحيط بها، تشملها، يتكفل الله بأمرها حتى في أبسط الأمور، وفي أدق التفاصيل.

﴿أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ لا تحزني فحالتك أدعى للاستبشار والفرح، لا للحزن والضيق، إن حالتك جديرة بالمسرة لا بالحيرة، إنك بحاجة إلى السكينة والهدوء لا إلى استنزاف الطاقة بالتفكير فيما هو فوق طاقتك، فاخرجي من حولك وقوتك إلى حول الله وقوته، فما دام الأمر كله كان عند الله قدرًا مقدورًا فتفاصيل أحداثه كائنة وفق مراده، ولن يُضيّع الله عبدًا اعتصم به وركن إليه واستقوى به ولجأ إليه.

﴿وَهَئِذَا إِلَيْكَ جِئَ النَّخْلَةُ﴾ وماذا تفعل هزة امرأة بعد آلام الولادة ومشقتها لنخلة؟ فحتى مع المعجزة جاء الجهد البشري، إفراغ الطاقة في السبب وبعدها يأتي عون الله، حتى إذا رأت أن دفعها الذي لا قوة فيه قد حرك النخلة فأسقطت عليها من ثمارها يطمئن قلبها ويأنس لمعية الله، فأيقنت أنها أوت إلى ركن الله المتين الذي أنطق وليدها، والذي أسقط عليها ثمرات النخيل بدفعها الذي لا قوة فيه فلا عليها بما هو آت، فسوف يُدبره الله.

﴿وَهَرَيَ إِلَيْكَ مِجْزَعَ النُّخْلَةِ﴾ في أشد لحظات الضعف أبقي الله الأسباب لئلا يتكل القلب ، حتى وإن كانت الأسباب بسيطة لكن بها شيئاً من السعي ، من الحركة ، من البذل . يأتي عون الله للعبد بعدما يفرغ الجهد في السعي ، لا أن يتكل إلى عون الله فلا يحرك ساكناً ويتنظر من الله العون والتأييد ، ليس بمثل هذا تقوم الحياة .

﴿فَكُلِّ وَأَشْرِبِي﴾ في محن كهذه ، في آيات تتوالى عليها كهذه ، في كرب وابتلاء كهذا ؛ يأتيها الأمر بلطف أن كُلِّي واشربي ، أن تقوي على الأيام بأسباب البقاء ، أن الابتلاءات لا ينبغي لها أن توقف سير الحياة ، أن المحن إنما هي اختبار فلا نجعلها نهاية المطاف بإعراضنا عن مقومات الحياة ، أن بعض الصعاب التي نلقاها يكون حلها عند الله وحده .

﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ ما أرحم الله بعباده ، أنطق وليدها في المهد ، فإذا به يخاطبها بأروع الألفاظ ، ألا تجزعي وطبيي نفساً بما اختارك الله له ، أن قري عيناً فاستبشري خيراً ولا تري من الابتلاء ظاهره ، فإنما أنت آية من آيات الله . في شدة المحنة يشملها الله بطفه ، حتى في الألفاظ ليسكن قلبها المضطرب وينعم بالسكينة والطمأنينة ﴿أَلَا تَحْزَنِي﴾ ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾

﴿فَكُلِّ وَأَشْرِبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ طعام وشراب يتقوى به الجسد ، ثم علاج للقلب من الحيرة التي تعتصره كيف ستقابل قومها بصغيرها ؟ فيأتي الأمر بأن ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ طيبي نفساً فلا حزن ، ولا حيرة ، ولا وهن ، ولا تردد ، وتذكري في شدة الضعف تلك البشارة بالاصطفاء على نساء العالمين ، فحياتك لن تكون حياة تقليدية كغيرك من النساء ، إنما أنت اصطفاء من الله اختارك لتكوني إحدى آياته للبشر .

﴿فَكُلِّ وَأَشْرِبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ أوامر ثلاث عالج الله بها ضعف الجسد وحيرة القلب ، فما أجمل لطف الله حين يشمل عباده بمعите فيرتب فوضى حياتهم ويربط على قلوبهم من الحيرة فتطمئن .

﴿فَإِمَّا تَرَيَنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ ثم يأتي التوجيه في أكثر ما كان يشغل بالها، كيف تواجه به قومها، أيستقيم في حالتها هذه أن تُدير جدالاً أو تُجري حواراً معهم؟ فإذا بالأمر يأتيها ألا تنطق، ﴿فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ ليتم الابتلاء، ليكون الاختبار في صدق توكلها، كنت تحشين مواجهة قومك وبإمكانك الحديث، الآن ستواجهين قومك ولن تنطقي كلمة لتشرحي بها أو تدافعي بها عن نفسك، ليتم مراد الله ولتظهر آيات الله على أعين الناس منذ اللحظة الأولى لميلاد عيسى عليه السلام .

﴿فَإِمَّا تَرَيَنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنَّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ صورة أخرى للطف الله بمريم، خفف عنها حتى مجرد الكلام، ففي وقت الابتلاء يسكن القلب حزن فيصعب عليه أن يجد ألفاظاً يشرح بها حاله، فلا يجد سوى الصمت سبيلاً، فكيف بمريم ولم يكن لها حُجَّة عند الناس ظاهرة؟ في بعض الحديث مفسدة، لذا كان في الصمت خير لها.

قال تعالى ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَمْرِئٌ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٧﴾ يَأْتِخَتْ هُرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴿٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٩﴾﴾ مريم [٢٧-٢٩]

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ مرت الأوقات على مريم طويلة مُرهقة، فالمكان القصي الذي ابتعدت فيه عن قومها ها هي عائدة منه إليهم ومعها طفل رضيع، حين يحسن العبد الظن بربه تهون عليه صعاب الحياة، يمضي في الحياة لا يحزن من أقدار الله، إنما يحزن من أفعال بعض البشر، من نكرانهم، من قسوة قلوبهم، من شدة ألفاظهم، من جحودهم، من إعراضهم، من تكذيبهم، أما أقدار الله فإنما يتقبلها برضا ويقين أن في كل أقدار الله خير .

﴿قَاتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ لا تردد ، تمضي في طريقها يقود اليقين خطاها ، أن الله لن يتركها ، أن الذي دبر الأمر سوف يتكفل بها حتى النهاية ، وهذا اليقين في معية الله هو الذي يزرع الأمل في أنفس المؤمنين ، في أنفس الطامحين ، لذا تجد أنفسهم يغمرها يقين أنه مهما كثرت المصائب واشتدت المحن فإن الفرج آت ، وإن اليسر آت ، وأن الله قد يفعل ذلك بأسباب مألوفة لنا ، وقد يفعله بأسباب غير مألوفة ، وقد يفعله بلا أسباب .

﴿قَاتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ عطاء الله دائماً على قدر البلاء ، في الحديث أن النبي ﷺ قال : « إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ » (١)

﴿قَالُوا يَمْرَيْمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ سريعاً جاء الاتهام ، سريعاً ألصقوا بها أبشع التهم ، لا سؤال يسبقه ، لا مساحة للكلام تعرض أمرها ، إنما اتهام مباشر في عفتها وما أصعبها من لحظات على المرء وهو مظلوم بسوء الظن ممن يفترض فيهم أنهم أعلم الناس بحاله وصلاحه وتقواه وأن النقائص أبعد ما تكون عنه !

﴿يَأْتَاكَ هَٰؤُلَاءِ مَا كَانَ آبَاؤُكَ أَمرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمَّكَ بَغِيًّا﴾ تتتابع الاتهامات وتزداد حدتها ليذكروها بصالحى قومها ، ومن كانت على شاكلتهم في العبادة والتقوى والصلاح ، ثم يأتي ما يدمي القلب مرارة وألماً حين يذكرونها بوالديها في مشهد كهذا ، لم تكوني إلا من بيت طهر وعفاف ، أما مريم فإنما أوكلت أمرها الله ، استسلمت لأمر الله ، علمت أن أمره مقضى لن يردده شيء .

﴿فَإِشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ تحمل رضيعها بيديها ، اجتمع القوم حولها ، بدأت ألسنتهم تطلق الاتهامات جزافاً ، لا فرصة لكلام ، ألفاظ صعبة ، تذكير بوالديها على رءوس الناس في موقف كهذا ، ثم هي بثبات المؤمن لم تزد عن الإشارة إلى رضيعها ، إلى معجزة الله فيهم ، إلى طلاقة قدرة الله ليروها بأمر أعينهم فيأتي

الاستنكار سريعاً أنكلهم طفلاً رضيعاً ؟ كأنما رأوا في إشارتها سخرية واستهزاء ولم يعلموا أنهم على بُعد لحظات من آية من آيات الله .

قال تعالى ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۖ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۖ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۖ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۖ ﴾ مريم [٣٠-٣٣]

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾ أول ما نطق به إقرار العبودية لله وحده، لتلا يكون للضلال سبيل إليهم فيفتنوا فيه ، إقرار بالعبودية لله ليعلموا أنه إحدى آيات الله للعالمين، إقرار العبودية لله ليغلق عليهم كل أبواب المغالاة في التقديس فيقر بأنه عبدُ الله، والمؤمن الحق لا يرتضي بغير هذا الوصف، المؤمن الحق يخضع لمراد الله قولاً وفعلاً، المؤمن الحق يعرض كل أمره على ميزان الطاعة فما وافقه أمضاه وما عارضه أعرض عنه .

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾ كانت أول ما نطق به ليقطع كل قول في حق أمه، ثم يقطع كل قول فيمن يغالي في تقديسه لميلاده المعجز، ليضع القرآن فهم الفئة المؤمنة على بينة من أمر ضلَّ فيه خلق كثير ، ليرشدهم إلى حقيقة الأمر بعرض الحقيقة ولا شيء غيرها، وافقت هوى الناس أو عارضتها ستظل هي الحقيقة ، وسيظل عرض القرآن لها هو الحق ولا شيء غيره، لذا جاءت قصة الميلاد بشيء من التفصيل بعدما حاد بسببها خلق كثير عن الحق، ونشأت عقائد ومذاهب جديدة لا تزال تُتبع حتى وقتنا هذا .

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾ بمنتهى البشرية، إقرار مباشر بتهام العبودية لتلا يظن ظان أن ميلاده المعجز يعلو عن كونه بشراً، وقد صرف الإلف الناس عن تدبر قضية الخلق الأولى ، فإذا كان عيسى عليه السلام بلا أب فآدم أول الخلق بلا أم أو أب، فكيف تقرون بشرية آدم التامة وتغالون في ميلاد المسيح ؟

﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ ﴾ معلماً للخير داعياً للحق أينما حللت .

﴿وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ إلزام بمداومة الطاعة ما دام حيًّا، طاعة لا تنقطع، لا تتوقف، ليس كما يدّعي البعض أن المرء إذا بلغ درجة من درجات المعرفة بالله تعالى يُسَرَّح من قيود التكاليف ومشقتها، فهذا نبي من أولي العزم أوصاه ربه بمداومة الطاعة ما دام حيًّا، وخص الصلاة والزكاة لعظيم فضليهما.

﴿وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ أوصاني بالقيام بحقوقه وأولها الصلاة، وحقوق عباده علي وأولها الزكاة.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ بعد كل هذه النعم التي أنعم الله بها عليه يُقر بالفضل لأمه على مرأى ومسمع منهم في مشهد لم يحدث من قبل، بكلمات لا ينطق بها إلا نبي كريم، فينصفها أمامهم، ويقر عينها أنه سيكون ابنًا بارًّا بها، ولا سعادة للأمم أكثر من بر أبنائها بها.

﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ إقرار بالفضل لله وحده، فلا يمكن أن تتحول نعم الله أداة للتجبر على الخلق، فأيات الله وتفضله علي بها لأكون عبدًا مطيعًا لا جبارًا على الخلق متعاليًا عليهم، ولن تجد جبارًا في أفعاله إلا ولازمه الشقاء، كأن التجبر قرين الشقاء.

﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ السلام أمن الله يحوطه ويشمله، أمن قد أحاطه يوم ميلاده، وسوف يرافقه بقية حياته، وكأن ميلاد المسيح آية سوف تظل عالقة في أذهان البشر منذ حدوثها وحتى القيامة، وذلك لأن البشر لم يروا الآية الأولى، بداية الخلق، فلم يتبها لها كثير من الناس، فجاءت آية خلق المسيح بما يخالف العادة والمألوف بين الناس لتردهم إلى حقيقة فهم الآية الأولى، الإيجاد من عدم، وأن قدرة الله لا تحدّها حدود العقول، ولا تقيدها أفهامهم، وأن آيات الله لم تأت لتتعب منها إنما لنقر الله وحده بالقُدرة، لنقر الله وحده بالعبودية، لذا نجد آية مباشرة تلفت انتباهنا لهذا الربط، بين المعجزة الأولى والمعجزة الثانية ﴿إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(١) فالذي عجز فهمه عن استيعاب المعجزة الثانية حق عليه أن يلتفت أولاً للمعجزة الأولى التي هو من نتاجها.



الحواريون مع نبي الله

عيسى عليه السلام

كانت فلسطين حينما وُلد عيسى عليه السلام تحت حكم الرومان، وكان ميلاد المسيح عليه السلام في عهد الإمبراطور أغسطس أكتافيوس، وكان عامله على أرض فلسطين هيرودس الكبير وكان شديدًا على اليهود لذا ناصبوه العداء، وفي أواخر عهده ولد المسيح عليه السلام فخافت مريم عليه من بطشه بعدما انتشر خبر حديثه في المهدي، فهربت ومعها رضيعها نحو مصر ورافقهم أحد عباد بيت المقدس ويدعى يوسف النجار وعادوا إلى فلسطين بعدما علموا بموته .

وقد كانت الديانة اليهودية قد انتشرت في جميع أنحاء فلسطين قبل ميلاد المسيح عليه السلام إلا أن ديانات أخرى غير سماوية كانت بجانب الديانة اليهودية، فكانت الديانة الوثنية لليونان والرومان، وكان اليهود في بعض الأحيان يعبدون إلهًا واحدًا، وفي بعض الأحيان تراهم زاغوا وعبدوا آلهة أخرى، وكان سبب هذا الانحراف في عقيدتهم تأثرهم بالديانة الفارسية أثناء فترة السبي ونفي اليهود إلى بابل ^(١)

أما أرض فلسطين فكانت تحت نوعين من الحكم، الحكام المستعمرون (الإمبراطورية الرومانية)، والحكام المحليون وهم فئة رجال الدين، وكان نبي الله يحيى عليه السلام يقف معارضًا لحاكم الدولة الرومانية على أرض فلسطين هيرودس لأعماله السيئة غير الشرعية، أما عيسى عليه السلام فوقف معارضًا للحكام الدينيين لما كانوا يبشرون الشعب بما لا يوافق الشريعة اليهودية في كثير من المسائل ^(٢)

وقد بدأ عيسى عليه السلام تبليغ رسالة الله لقومه وهو في سن الثلاثين فبدأ يصلح ما أفسده بعض أحبار اليهود، فوقف في وجه طوائف اليهود التي اعتادت استغلال الناس، وفي وجه بعض الأحبار الذين كانوا يملؤون بطونهم مما يدخل للهيكل ونهب أموال الفقراء والعامة باسم النذور ويخبرهم أنه مكان للعبادة لا سوقًا للبيع والشراء يحتكرون فيه السلع ثم يلزمون الناس بشرائها، فقد فاض الطابع المادي لليهود حتى وصل إلى دور العبادة والأماكن المقدسة، حتى صار الترف المادي والرغبة في الثراء هو القيمة الوحيدة التي يتصارع عليها رجال الحياة ورجال الشريعة على

١ اليهود في عصر المسيح (ص ٧٠-٦٩)

٢ اليهود في عصر المسيح (ص ١٠)

السواء .^(١) وكانت نتيجة التعمق في المادية إنكارًا للروحانيات فأنكر فريق منهم البعث والحشر . قال تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لِيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنُزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ التوبة [٣٤]

انحراف ديني، فساد اقتصادي واجتماعي، ليس هذا فحسب بل عاصر عيسى عليه السلام أيضًا حاكمًا ظالمًا هو هيرودوس أنتياس لكنه كدأب كل أنبياء الله واجه كل هذا غير آبه بتكذيب قومه، ولا بعنادهم، فقد أراد بنو إسرائيل مُخلّصًا يقود الجيوش ويحارب الروم، فجاءهم نبي كريم يقود حربًا على شرور أنفسهم قبل أن يخوضوا حربًا على أعدائهم، وما قيمة أن يخوضوا حربًا خارجية وبنائهم الداخلي خاو على عروشه؟ ربما اعتادوا ما قاله أسلافهم لموسى عليه السلام من قبل ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِلَا﴾^(٢) لقد كانت حرب المسيح عليه السلام الحقيقية ساحة النفس البشرية، تطهيرها من شوائب الشرك الذي ملأ حياتهم فاتخذوه تشرعًا كذبًا وزورًا، فخطب بني إسرائيل مباشرة أنه مرسل من الله إليهم جاء برسالة ذات معالم واضحة نفهم تفاصيلها من آيات القرآن .

- **الدعوة للتوحيد :** فهي رسالة ككل رسالات الله للخلق، تدعو العباد إلى التوحيد الذي لا شرك فيه، إلى الإقرار لله وحده بالعبودية ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنَىٰ إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾^(٣)

- **العمل بما جاء في التوراة وتجديد بعض أحكامها لما فيه مصلحة العباد في زمانه** ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيِّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَجْلِ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾^(٤)

- **إقامة الحدود وبيان ما اختلفوا فيه** ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلَفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾^(٥)

١ عيسى نبي الإسلام (ص ٣١)

٢ [المائدة : ٢٤]

٣ [المائدة ٧٢]

٤ آل عمران [٥٠]

٥ الزخرف [٦٣]

- التبشير برسول من بعده ﴿وَأِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف : ٦]

قال تعالى ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [١٨] وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا [٥٠] إِنَّ اللَّهَ رَفِيقٌ وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ آل عمران [٤٨-٥١]

﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ جاء المسيح ﷺ ليصحح مسار بني إسرائيل كغيره من أنبياء الله الذين أرسلوا لبني إسرائيل من بعد موسى ﷺ ، فالرسالة خاصة ببني إسرائيل، ﴿إِنَّهُ هُوَ الْإِلَهَ عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ (١) أي جعله الله آية لهم، في ميلاده المعجز وفي الآيات الدالة على نبوته ، وهكذا كان شأن كل الرسالات السابقة أن النبي يُرسل إلى قومه خاصة، ومن وصلته رسالته من أهل زمانه، قال تعالى ﴿وَأِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ (٢)

﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ المعجزة أمر خارق للعادات والقوانين الكونية الثابتة المتعارف عليها بين الناس عمومًا، يُظهرها الله على يد رسوله تصديقًا له في دعوته، ومعجزات الأنبياء جاءت كافية في إقامة الحجة البالغة والبرهان الواضح بنبوة رسل الله، أما كونها فيما برع فيه قومه فليست شرطًا مطلقًا، قد تكون فيما برع فيه قوم نبي الله وقد لا تكون، المهم أنها آية ظاهرة قوية واضحة تثبت صدق الرسول فيما يقوله أنه من عند رب العالمين، فمعجزات المسيح جاءت في مجال الطب وليس شرطًا براعة قومه في هذا المجال، إنما المهم أن تأتي الآيات دالة على صدق قول المسيح أنه رسول رب العالمين ، فأية إبراهيم ﷺ أن أنجاه الله من النار فأين

١ [الزخرف : ٥٩]

٢ [الصف : ٦]

البراعة من قومه في آية مثل هذه؟ والمسيح عليه السلام الذي أحيا الموتى آية تثبت طلاقة قدرة الله وتأييده لنبيه ولا دخل لها بالطب، فمعجزات الأنبياء إلى أقوامهم إنما كانت أن يأتوا بآية خارقة للعادة ولتواميس الكون يعجز عن مثلها البشر، قد تكون فيما برع فيه قوم النبي ونبغوا فيه كبراعة العرب في اللغة فجاء القرآن معجزاً لهم، وقد تكون آية تدل على طلاقة قدرة الله وتأييده لنبيه على عمومها وليس فيما برعوا فيه كإحياء عيسى عليه السلام للموتى وإخباره لهم بما يدخرون في بيوتهم، وكخروج إبراهيم عليه السلام من النار وكالناقة التي خرجت لصالح عليه السلام من صخرة حددها له قومه كتحدٍ له ليثبت صدق نبوته.

﴿إِنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ حين قال ﴿أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ لم يقدها بقوله ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فهذا من مقدور البشر، تشكيل الطين على هيئة الطير والنفخ فيه، هذا مما يستطيعه البشر، أما حينما صار طيراً أطلق على أذانهم ﴿فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ لأن الطين الصلب الجامد إنما صار طيراً حقيقياً بما فعله الله فيه من قدرة على الخلق والإحياء، ولا قدرة لبشر على تحويل جماد إلى خلق حقيقي إنما هي قدرة الله وحده.

﴿وَأَبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الأكمه هو الأعمى أو الأعشى وقيل هو الذي يولد أعمى وهذا أبلغ في إظهار المعجزة، فليس العمى لعلة مكتسبة قد تزول بالوقت، والبرص في اللغة بياض يصيب الجلد، وقيل إنه البهاق وقيل أيضاً الجذام وهو الأرجح، فالبهاق مرض غير خطير ولا يعيب إلا المنظر، أما الجذام فكانوا يحذرونه ويخافون من المصابين به ويعتبرونهم منبوذين لا يقترب منهم أحد ولا يقتربون من أحد.

﴿وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ آية أخرى جاءت لإثبات حُجَّتِه أنه رسول من رب العالمين، جاء بآيات تظهره على من كذب برسالته من قومه، وآيات الله لأنبيائه إنما جاءت بوحي الله لهم، لا باجتهاد شخصي منهم، بقدرة الله على حدوثها على يد نبيه، فهي دليل نبوة الرسول لا كما ضل فيها خلق كثير بأنها ترتقي

بالمسيح من بشريته أو كما وصفوها بطبيعته الإلهية، فقد كان من معجزات موسى عليه السلام أنه ألقى عصاه فصارت حية تسعى، وكان من معجزة صالح عليه السلام ناقه خرجت من صخرة حدودها له كتحد وخرجت الناقة تسعى من الصخرة، وكانت من معجزات عيسى عليه السلام أن أحيا ميتاً، كلها آيات أنبياء تدل على صدق دعوتهم أنهم رسل من رب العالمين، فلا السحرة الذين آمنوا بموسى عليه السلام ادعوا ألوهيته، ولا من آمن من ثمود قد ادعى ألوهية صالح عليه السلام حينما خرجت عليهم الناقة تسعى من صخرة صماء، إنما آمنوا أنهم أنبياء من عند رب العالمين.

﴿وَأُخِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وفي موضع آخر ﴿وَأُذْخِرُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾^(١) فإحياء الموتى من نفخ المسيح عليه السلام مقترن بالإذن من الله، فالإحياء لم يحدث من عملية النفخ بذاتها إنما من إذن الله لهذا النفخ أن يحدث الإحياء، وهذه هي ولاية الله لأنبيائه بإظهارهم على أقوامهم بالمعجزات، الآية واضحة إنها معجزة لقومه ومن طلب الحق عرفه، ومن أعرض عنه فقد ضل.

﴿وَأُخِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ معجزات الأنبياء لم تأت مطلقة إنما مقيدة، لأنها تخرق سنن الكون فلا حاجة لتكرارها مراراً على أعين الناس، إنما هي آيات تقوم بها الحجة على قومه في وقتها، فإحياء عيسى عليه السلام للموتى خرق للعادة لإثبات نبوته وليس تغييراً لسنن الله في كونه، فلم يسع المسيح عليه السلام إلى إحياء كل من مات من قومه، ولا كل من طلبوا إحياءه إنما أحيا عدداً محدوداً كبرهان لرسالته وكان إحياءه لها خاضعاً لإذن الله ومشيتته لذا قالها صريحة ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ إنما أفعل ما يأمرني به الله لا بقدرة شخصية مني .

﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ الإنباء يكون في الأمور الخفية التي لا يطلع عليها الغير، فكانت آية ظاهرة يلتمسها كل واحد منهم في شأنه الخاص، حينما يخبره عن أحواله التي لا يطلع عليها أحد وما أكل في بيته وما ادخر فيه بعيداً عن أعين الناس ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ الآيات قد رآها أكثر الناس ولم يؤمن بها إلا قلة، فالخطاب موجه إلى بني إسرائيل إن كنتم تريدون الإيمان فالآيات الدالة

على صدق نبوتي قد رأيتموها، ولن يمنعكم من التصديق إلا عادة عناد الحق التي يحسنها خلق كثير، فرغم كل هذه الآيات إلا أنهم أول من بادر بتكذيب دعوته.

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ كانت التوراة من أول الكتب السماوية التي جاءت بشرائع حياتية تنظم حياة الأمم، لذا أوحى الله إلى عيسى عليه السلام بتصديق ما كان قبله من كتب الله، والعمل بما جاء في التوراة وأن رسالته جاءت مكملية لرسالة موسى عليه السلام، فمن شرائع التوراة التي أمر بها المسيح حفظ الوصايا العشر^(١) وإقام الصلاة، والصوم، وتعظيم أيام الأعياد، ووجوب حد الزنا، وتحريم لحم الخنزير، وتعظيم ذبح النسك^(٢)

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ مصدق لما جاء بالتوراة تصديقاً لا تشوبه شائبة شك، فشرعة عيسى عليه السلام قامت على إحياء تعاليم التوراة وما تركوه فيها، قامت على تنقيحها من الشوائب التي ألحقها بها بعض أحبارهم ورهبانهم رغبة في مغنم دنيوي، وتحليل بعض ما حرمه الله عليهم رعاية لحالهم في أزمنة مختلفة.

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ وفي موضع آخر قال تعالى ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ ۚ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾^(٣) أي أتبعنا عيسى عليه السلام على إثر النبيين الذين جاءوا لبني إسرائيل، فبعثناه نبياً مصدقاً لكتابتنا الذي أنزلناه إلى موسى عليه السلام من قبل مؤمناً به حاكماً بما فيه، وآتاه الله الإنجيل فيه بيان ما جهله الناس من حكم الله في زمانهم، فهو نور يُستضاء به في إزالة الشبهات.

١- لا يَكُنْ لَكَ إِلَهَةٌ أُخْرَى أَمَامِي ٢- لَا تَصْنَعْ لَكَ تِمَثَالًا مَّنْخُوتًا، وَلَا صُورَةً مَّا مِمَّا فِي السَّمَاءِ مِنْ فَوْقَ، وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ تَحْتِ، وَمَا فِي الْمَاءِ مِنْ تَحْتِ الْأَرْضِ. لَا تَسْجُدْ لَهُنَّ وَلَا تَعْبُدْهُنَّ. ٣- لَا تَحْلِفْ بِاسْمِ إِلَهِكَ بِاطْلَا. ٤- أَذْكَرَ يَوْمَ السَّبْتِ لِتَقْدُسِهِ. ٥- لَا تَقْتُلْ. ٦- لَا تَزْنِ. ٧- لَا تَسْرِقْ. ٨- لَا تَشْهَدَ شَهَادَةً زُورَ. ٩- لَا تَشْتَهَ بَيْتَ قَرِيبِكَ. لَا تَشْتَهَ امْرَأَةً قَرِيبِكَ، وَلَا عَبْدَهُ، وَلَا أَمَتَهُ، وَلَا ثَوْرَهُ، وَلَا حِمَارَهُ، وَلَا شَيْئًا مِّمَّا لِقَرِيبِكَ. ١٠- أَكْرِمِ آبَاكَ وَأُمَّكَ لِكَي تَطُولَ أَيَّامُكَ عَلَى الْأَرْضِ الَّتِي يُعْطِيكَ الرَّبُّ إِلَهُكَ. «التحرير والتنوير» (٩٧/٩)

٢ المسيح عيسى بن مريم مصدق لما بين يديه من التوراة (ص ١١٤)

٣ [المائدة : ٤٦]

﴿وَلَا حِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ نسخ بعض شريعة التوراة تخفيفاً عليهم ومراعاة لاختلاف الأزمنة، بعضها أطعمة قد أُحِلَّ لهم أكلها، ومن البعض الذي أحله عيسى عليه السلام لهم فعل الخير يوم السبت، وقد كانوا يعتقدون تحريم مطلق عمل يوم السبت^(١)

﴿وَلَا حِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ العقائد لا تبديل فيها، إنما التبديل في بعض الأحكام وفقاً لمصالح الناس في أزمنة مختلفة، وحين نتابع الأحكام في شرائع الأنبياء نجدها تتجدد مع الاجتماع الإنساني ليلبي حاجاته، حتى إذا اكتمل نضج الاجتماع الإنساني جاءته رسالة خاتمة بأحكام صالحة لكل زمان ومكان .

﴿وَلَا حِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ حين تعلم أن شيئاً ما قد حرمه الله فلا تشغل بالبحث عن علة التحريم ، إنما من مقتضيات الإيمان التسليم بما أحل الله وبما حرم ، وليس في كل تحريم ضرر تعرفه، وليس بمعرفتك أو جهلك لعله الأشياء يقوم الحكم، فهي حرام عرفت علة التحريم أو لم تعرفها فلن يغير ذلك من حكم تحريمها، فجوهر الإيمان أن يبنى المؤمن حياته على مقتضى ما أنزل الله .

﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ جئكم بآية من ربكم لا من عندي، إقرار لا شك فيه .

وهذه الآيات نزلت حينما قدم وفد من نصارى نجران على رسول الله ﷺ وقد أكثروا الجدل واستدلوا بالآيات التي جاءت على يد عيسى عليه السلام أنها دليل ألوهيته وأنها لا تدخل تحت مقدرة البشر فجاءت هذه الآيات ترد على كذبهم على لسان عيسى عليه السلام نفسه فما أتى بمعجزة إلا وقال ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وختمها بقوله ﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ فكل ما أتى به هو آيات من الله أظهرها على يد نبيه ليظهره على قومه وتكون له حجة بصدق رسالته من الله رب العالمين .

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ لا تميز لي عليكم في شيء، إنما أنا عبد الله ربِّي وربكم، أعبدته وأقر له وحده بالوحدانية، حسم واضح لأمر العقيدة، إنه بشر عبد الله، وإن إخراجَه من بشريته ومن عبوديته لله هو ضلال .

﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ العبادة ليست الصلاة والصيام فحسب، إنما هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من أدق الأفعال إلى أعظمها، إنها الغاية التي من أجلها خلق الله الإنسان، وحين يفهم المؤمن حقيقة عبوديته لله في حينها يضبط كل أفعاله وأقواله بميزان مُراد الله، فالعبادة توجه كامل بالقلب إلى الله تعالى في كل نشاطات الحياة، رغبة ورهبة، أملاً ورجاء .

﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ إننا نعبد الله بقلوبنا أولاً، فعبادات الظواهر دون القلب ممقوتة، إنها درب الذين يظهرون خيراً ويضمرون في قلوبهم شراً، أما درب المؤمنين تجده دائماً بين عبادة واستعانة، فكل ما نفعله بحياتنا يمكن أن نحصره بين عبادة لله صادقة واستعانة بالله صادقة، فالعبادة هي الهدف والغاية والمقصد من كل ما تقوم به، والاستعانة هي خروجك من حولك وقوتك وضعفك إلى حول الله وقوته .

﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ صراط مستقيم لا عوج فيه، صراط قويم من اتبعه رشد وهدى، ففي معركة الحق والباطل لا حياد للمؤمن فيها، إنما إحقاق الحق وإنكار الباطل .

﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ الصراط المستقيم، ذاك الدعاء الذي نهتف به في كل ركعة حينما نردد سورة الفاتحة ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ دعوة ينطقها اللسان ليستشعر القلب معانيها فيطلبها في كل شيء، في كل قرار يتخذه، في كل تردد يقع فيه، في كل خطوة يخطوها في حياته، إنها إقرار أن هناك طرقاً أخرى متعرجة وأنت تشد الله أن يلهمك الطريق المستقيم الذي لا عوج فيه، لا شوائب فيه، لا ميلاً للهوى فيه، تدعو الله في كل ركعة أن يلهمك الطريق المستقيم وأنت تعلم أن غيرك قد سلكه ومضى فيه لآخره ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وآخرون قد أخطؤوا الطريق ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾

قال تعالى ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ آل عمران [٥٢-٥٣]

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ فاء تؤذن بالتعقيب، رأوا الآية تلو الآية؛ فلم تحرك فيهم ساكنًا إنما ازدادوا عنادًا، وهموا بمحاربة دعوته بل وتعمد إيذائه، فبيان كفرهم لدعوته ليس مجرد خاطر في قلبه إنما إدراك تام لا شبهة فيه كالذي يدركه المرء بالحواس غير قابل للظن أو التأويل .

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ صدر منهم ما صدر من أغلب الأمم مع رسلهم، قلة تؤمن وكثرة تكفر، قلة تُعَذَّب وكثرة تتجبر، والكثرة لا تتجبر من مجرد الرغبة في التجبر إنما من دفاع عن منافع يتعلق وجودها بدوام الوضع الخاطئ الذي يسعى دائمًا أنبياء الله لتغييره، فدعوة الأنبياء دائمًا ما تأتي لتغيير وضع خاطئ دأبت عليه الشعوب، وهذا الوضع له منتفعون بوجوده، انتفاع مادي أو قهري على غيرهم بسلطة ما، لذا يكون أول من يحارب دعوة الرسل هؤلاء المنتفعون من وضع سيئ قائم يابون تغييره .

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ الداعية ليس مجرد ناقل لرسالة إنما متفاعل معها، مهموم بها، وبشرها، وهذا الهم هو الذي يدفع حواسه للتفاعل مع معطيات ما يرى ممن يدعوهم. فلما رأى عيسى ﷺ جحودًا واستكبارًا كان عليه أن ينتقي منهم صفوة يقومون معه بالأمر، ينهضون بمهام الدعوة، يؤمنون بها إيمان القلب والقالب، إيمان الباطن والظاهر، ولن تجد حاملاً لهم دعوة إلا وقلبه متعلق بها، لا يأبه بما يلاقي في سبيل الدعوة لها، هؤلاء تقوم الدعوات، هؤلاء تنهض الأمم، لا مَنْ يَدْعُونَ الإيمان باللفظ المجرد وفي ميدان العمل يلتزمون الحياء في صراع لا مكان فيه للحياد.

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ رأى أمارات الكفر من استهزاء بآيات الله، من سخرية وتناول، من اتهام بالسحر ، من تضيق عليه في تبليغ دعوته، من إبعاد الناس عنه ، من منعه من منابر الدعوة السائدة في زمانهم كدور العبادة ، على الداعية وصاحب الهدف والمؤمن بفكرة ما حين يرى بوادى الرفض والتكذيب أن يُغير من وسائله، أن يُغير كذلك من مُستقبلي دعوته، فمن لم ترشده الآيات الظاهرة لن تحركه كلمات الوعد والوعيد .

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ ما أروع اللفظي القرآني وهو يرسم لنا صورة تنطق بالحياة لتفاعل عيسى عليه السلام مع دعوته ومع المحيطين به، (أَحَسَّ) أنه متعلق بالدعوة بكل حواسه، كلها تعمل في سبيل غايته التي ينشدها، إنه شغف يدفع صاحبه إلى استثمار كل طاقته لتحقيق غايته، ليست كلمات ينطقها ويمضي في حياته، إنما كل مشاعره، كل حواسه تتفاعل مع محيطه لتحقيق غايته .

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ لم ينتظر فوات الوقت وضعف الجهد واستنزاف الطاقة في قوم يأبون الطاعة، إنما ما إن رأى علامات التكذيب تطارد كل حديث ينطق به أيقن أن رسالته لن تنهض بعوام الناس إنما بخاصتهم، بمن يؤمنون بها إيمان القلب والقلب لا من يستحسنون الحديث ولا طاقة لهم على خوض أي نزال فكري في سبيل الدعوة لها، لذا حين استشعر تكذيبهم كان عليه أن ينتقي منهم من يقوم بالأمر كله بإيمان خالص لا شبهة فيه ، وهو هنا ينتقي صحيح الإيمان دون غيره لأن الرسائل لا تقوم بالترددين ، بمن في قلوبهم شبهات ، بمن لا يحسنون خوض نقاش فكري يظهر صدق ما يؤمنون به، وهؤلاء دائماً ما يكونون قلة في العدد لكنهم كثرة في المواقف التي يكون عليهم أن يُظهِروا فيها صدق انتمائهم للرسالة والدعوة.

﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ سؤال واضح وصريح لأن معركة الإيمان لا تقبل أنصاف الحلول، فحين تستخدم المواجهة بين حق وباطل يأخذ كل امرئ موقعه الحقيقي في معركة ليس فيها أماكن في المتصف، إما إلى جانب الحق وإما إلى جانب

الباطل. لذا سألها عيسى عليه السلام مباشرة وصريحة من منكم سيكون في جانب الحق حين تستخدم المواجهة، ثم ها هو يطلب منهم أن يختاروا مواقعهم برغبة كاملة منهم، حتى إذا ما احتدمت المواجهة وكان عليهم التضحية تهون عليهم أنفسهم في سبيل الغاية التي اختاروا نصرتها، لم يختر أنصاره إنما ترك لهم حرية التقرير، حرية الاختيار حتى يتحملوا تبعات الاختيار، في حياتنا دومًا فرصة للاختيار لكننا لا نمنح أنفسنا الوقت الكافي لاتخاذ القرار؛ لذا نعيش ما بقي من حياتنا نندم على تردد كان علينا أن نتحلى فيه بالحزم.

﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ من ينصروني نصرًا لا مكان لمغنم دنيوي فيه، لا مكان لطلب دنيا فيه، إنما هو نصر غايته الله ومرجعه إلى الله وجزاؤه عند الله، يحدد لهم تفاصيل النُصرة التي يريدونها منهم أنهم لن يجدوا جزاءً وقتيًا، لن يجدوا مغنمًا بانتظارهم بمجرد إعلانهم النُصرة، إنما صرفهم إلى الغاية الكبرى، إلى الله، وحين تكون الغاية هي الله تهون الدنيا، تهون الصعاب، تهون مكائد البشر وإعراضهم.

﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ حين تضيق عليك سُبُل الحياة لا تشغل بالجمع من حولك بل اختر من يهتم لأمرك دون غيره، فهو الأجدر على نصحك، على عونك، على تفهم دوافعك وأهدافك والمضي قدمًا في دربك الذي تشد، فحين ضَيِّقَتْ قريش على النبي ﷺ في دعوته خرج يحوب قوافل الحجيج قبل أن يهاجر فيقول لهم «أَلَا رَجُلٌ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ، فَإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أَبْلُغَ كَلَامَ رَبِّي» ^(١) حتى وجد الأنصار فأووه ونصروه.

﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ دائمًا ما يكون حديث الأنبياء مفعلاً بالثقة في الله، لذا ينقلها إلى أتباعه لا تردد فيها، بل يبقين يسكن القلوب، رغم أنه وعد لأجل بعيد لا مغنم قريب ومع ذلك ينقله إليهم بثقة المؤمن في وعد الله لذا تقبلته أفئدة الصفوة من أتباع الأنبياء بإيمان لا تشوبه شائبة شك، ولا تدنسه شبهة تردد، نجده أيضًا في سيرة رسول الله ﷺ حينما بايع الزمرة الأولى من الأنصار وهو لا يزال بمكة يبتغي النُصرة، قال لهم الرسول

١ أخرجه أبو داود (٤٧٣٤)، والترمذي (٢٩٢٥) واللفظ له وصححه

﴿وَعَلَىٰ أَنْ تَنْصُرُونِي إِذَا قَدِمْتُ يَثْرِبَ، فَمَنْعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ وَلَكُمْ الْجَنَّةُ﴾^(١) ولكم الجنة هكذا مباشرة ، لكنه ينقلها لهم بثقة المؤمن في وعد الله لذا استقبلها الأتباع بنفس الثقة .

﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ الحواريون هم النخبة من المؤمنين الذين آمنوا بعيسى عليه السلام ، وحواريو النبي أي خاصته والأقرب له ، و" الحور " عند العرب شدة البياض ، ولعل اللفظ قد تجاوز الدلالة الظاهرة إلى دلالة الإيمان النقي الذي لا شبهة فيه ، فكان لكل نبي قبل محمد ﷺ حواريون يقومون بأمر رسالته ، فلم يكن مبدأ الأمر أتباع عيسى عليه السلام إنما كان فيمن قبله من الأنبياء ، ففي الحديث أن النبي ﷺ قال (ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي ، إلا كان له من أمته حواريون ، وأصحاب يأخذون بسنته ، ويتقيّدون بأمره)^(٢) فالحواريون هم الصفوة من الذين آمنوا برسالة عيسى عليه السلام وأنه نبي من عند الله ، ومع أن غيرهم قد آمن به إلا أن الله قد اصطفى هؤلاء الأتباع دون غيرهم ليخلد ذكرهم ، ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّكَ مُسْلِمُونَ﴾^(٣) ربما كان أبرز ما ميزهم هو الوضوح ، وضوح الإيمان الذي لا شائبة فيه ﴿رَبَّنَا ءَامِنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ﴾ وضوح القصد الذي قادهم إلى إعلان اتباعهم للمسيح عليه السلام على ملأ من الناس لم يهابوا كيد كائد ولا بطش ظالم ﴿وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ وضوح الغاية من الإيمان والاتباع ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾

﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ حين يقدم لنا القرآن نموذجاً لفئة من المؤمنين إنما يستنهض همماً للاقتداء بها ، فالذين اختاروا نصره عيسى عليه السلام لم يختاروها في رخاء ورفاهية ودعة من العيش ، إنما اختاروها في وقت يكذّبه فيه أغلب قومه ، عامة الناس ووجهائهم ، أهل الدين وأهل الدنيا ، إنها ليست نصره في وقت قوة وكثرة من الأتباع ، إنما نصره في وقت ضعف وابتلاءات تحوط به ، لذا خلّد الله ذكرهم ، فما أكثر الأتباع في الرخاء وما أندرهم في الشدة ووقت البأس !

١ أخرجه أحمد (١٤٦٥٣)، وصححه شعيب الأرنؤوط في تحقيقه ، وابن حبان (٦٢٧٤)

٢ صحيح الجامع (٥٧٩٠)، وقال الألباني (صحيح)

٣ [المائدة : ١١١]

والمؤمن الخالص لله قولاً وفعلًا، ظاهرًا وباطنًا يستوي عنده البلاء والرخاء فتأتي أقواله وأفعاله موافقة لمراد الله، لذا يأتي الأمر بالاعتداء بهم واضحًا وصرحًا ﴿يَتَّيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾^(١) أنصارُ الله دعاة للحق بالقول والفعل، في السر والعلن.

﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ وجواب الحواريين ليس لفظًا مجردًا، إنما قولٌ اقترن بعمل، قلبٌ اقترن بالقلب، والذي يختار طريق الله يعلم أن المضي فيه صعب وذلك لأنه لا يمضي فيه سوى الرجال، ومع صعوبته يمضي فيه بلا تردد ولا خوف، لذا دائمًا ما تجد من يدعون الإيمان كثرة ومن يثبتون عند المحن قلة، فالحواري لكل دين هو تابع مخلص له يمضي حيث أمر، عينه على الغاية البعيدة لا المغنم القريب.

في يوم الأحزاب حينما اشتد الأمر على أصحاب رسول الله ﷺ وضافت عليهم الأرض بما رحبت قال النبي ﷺ لأصحابه :

- مَنْ يَأْتِينِي بِخَيْرِ الْقَوْمِ ؟

- قَالَ الزُّبَيْرُ: أَنَا.

- ثُمَّ قَالَ: مَنْ يَأْتِينِي بِخَيْرِ الْقَوْمِ ؟

- قَالَ الزُّبَيْرُ: أَنَا. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا، وَحَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ.^(٢)

﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ إيمان ليس باللفظ المجرد إنما يقين يسكن القلب يوافقه إقرار باللسان وعمل بالجوارح، وكل طاعة يقوم بها المرء من فرض أو نافلة هي من الإيمان، وكلما ازداد من الخير ازداد الإيمان وكلما أسرف في الذنب نقص الإيمان.

﴿وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ يطلبون شهادة نبي الله على صدق إيمانهم

١ [الصف : ١٤]

٢ البخاري (٢٨٤٦)

﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ﴾ يعودون بكل حوهم إلى مراد الله، إلى إعلان حقيقة هذا الإيمان أمام نبي الله ليقرؤا له بالرسالة ولربه بالوحدانية، يعودون بكل حوهم إلى الله وحده ﴿رَبَّنَا﴾ يقولون له بالوحدانية ﴿وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ أي صدّقنا بكتابك الذي أنزلت على رسولك وهو الإنجيل، وأطعنا رسولك فيما أمر به وفيما نهى عنه تصديقاً لنبوته وأنه رسول من عند رب العالمين .

﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ يهتف القلب الصادق دائماً بأن يقبله الله رغم التقصير والضعف والخطأ، لكنه لا يفتر في الإلحاح بقبول الله له، أن يقبله مع أولئك الذين أحسنوا في طاعتهم لله .

=====

« اللهم إليك تُقصد رغبتني، وإياك أسأل حاجتي، ومنك أرجو نجاحي، بيدك مفاتيح مسألتي، أرجو الخير منك، ولا أرجوه من غيرك، ولا أياس من روحك بعد معرفتي بفضلك، أحمّدك على كل قضائك حمد الرضا بحكمك، واليقين بحكمتك ، اللهم احفظنا من الخطأ والزلل الذي لا يأمن منه أحد منا، ووقفنا لما هو خير لنا، واعصمنا عما لا ينفعنا، إنك أنت المنان واسع الغفران »

وعند هذا الحد ينتهي هذا الكتاب بحمد من الله وتوفيقه، ولعل الله أن يكتب له بقية في أجزاء قادمة إن شاء الله

الفهرس

رقم الصفحة	القصة
٥	مشاهد من قصة يوسف <small>عليه السلام</small>
٨٨	موسى <small>عليه السلام</small> مع الخضر
١١٢	قارون مع نبي الله موسى <small>عليه السلام</small>
١٢٧	السامري مع نبي الله موسى <small>عليه السلام</small>
١٣٩	مؤمن آل فرعون
١٥٥	مريم وميلاد المسيح <small>عليه السلام</small>
١٧٧	الحواريون مع نبي الله عيسى <small>عليه السلام</small>